المعركة .. والمصير

المعركة التي نخوضها اليوم تتجاوز في غاياتها تحرير الارض المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ وإقرار الحقوق المشروعة لعرب فلسطين الى إقرار مبدأ حق العرب في الوجود :

السؤال الذي طرحه العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ هو : هل العرب يقيمون على ارضهم إقامة موقتة تحددها احتياجات الهجرة الصهيونية المتوسعة أم أنهم أمة تقيم على أرضها ولها حقوق تاريخية فيها تجعل إقامتها أمراً فوق الجدال الدولي أو الاقليمي ووراء كل المنازعات المحلية والدولية ؟

الصهاينة والامبريالية الأمريكية والفكر الأوروبي المعادي للعرب ، يقولون : لا . ليس العرب أمة وليس لهم أرض قومية ، وبقاؤهم على أرضهم أمر موقت تحدده إرادة التوسع الصهيوني .

وهذه الفكرة الشوفينية المتخلفة هي الدافع الأساسي وراء كل الصلف الاسرائيلي والاعتداءات المتكررة والرفض المستمر لأي حل من الحلول . فأحد الأحزاب الصهيونية يقترح التوسع شمالاً باتجاه سورية : ويقيم ليفي أشكول في الشمال رمزاً لدعم هذه الفكرة ، وحزب آخر يقترح التوسع جنوباً باتجاه سيناء : فيقيم بن غوريون في الجنوب رمزاً لدعم هذه الفكرة . وحزب آخر يرى مقتضيات التاريخ في احتجاز الضفة الغربية واحتوائها : فيبدأ إجلاء العرب من الخليل .

وحزب رابع يرى أن قطاع غزة شوكة في خاصرة اسرائيل : وإذن فلينظف قطاع غزة من العرب !!

ثم ينشأ الدور الفارغ أو الحلقة المفرغة : تقوم الوزارة الاسرائيلية باخلاء الأراضي (لدواعي « الأمن » !!) ثم تقام المستوطنات ويجلب إليها المهاجرون الذين يضيفون أصواتاً جديدة إلى الأصوات القديمة في سبيل المزيد من الأرض .

المعركة في صميمها تدور حول هذا المفهوم : هل العرب أمة ذات أرض قومية أم أن الحركة الصهيونية وحدها هي التي تمتلك الحق في أرض قومية تتسع وتتسع بلا انتهاء ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال لا تتحدد بمعركة واحدة ولكنها تبدأ بها . وبقدر مايثبت العرب وحدتهم في أرض المعركة وثباتهم على ارادة القتال لاتتحدد فقط مصائر الهجرة الصهيونية والاعتداءات الصهيونية والمستوطنات الصهيونية ـ مانشأ منها وما لم ينشأ ـ وإنما يتحدد قبل ذلك ـ للعرب وللعالم ـ مفهوم أمة عربية متحدة الارادة ، متحدة المصير ، متحدة في فهمها لحقوقها في أرضها وعلى أرضها . إن وحدات الأمم لم تولد إلا في ساحات القتال ، حيث تصفى نهائياً خلافاتها الداخلية . وحيث تحدد ـ نهائياً أيضاً ـ اين تبدأ حريتها وأين تبدأ حرية الآخرين .

رئيس التحرير



اننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا ، وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته .

حافظ الأسد

نص الكلمة التاريخيــة التي وجههـا الرئيس القائد حافظ الأسد غداة بدء حرب التحرير في السادس من تشرين الاول :

أيها الاخوة المواطنون .

ياجنودنا ، وصف ضباطنا ، وضباطنا البواسل .

يا أبناء شعبنا الابي .

مع تحيتي لكل فرد منكم ، أخاطب فيكم اليوم الروح العربية الاصيلة، روح الشجاعة والبطولة ، روح البذل والتضحية ، روح الفداء والعطاء .

أخاطب فيكم محبة الوطن التي فطرتم عليها ، والايمان بالقضية التي صممتم على الدفاع عنها .

منذ أسبوع ونيف ، والعدو يحشد ويعد ، وفي ظنه أنه سينال منا بضربة غادرة ، وكنا يقظين ساهرين ، نرصد حركاته وسكناته ، ونستعد ونتأهب ، لنرد عدوانه الجديد المحتمل ، فلم نسمح له أن يأخذنا على حين غرة ، فاندفعت قواتنا المسلحة ترد عليه الرد المناسب ، ولم يسمح له اخوتنا في مصر ان يأخذهم على حين غرة ، فاندفع جيش مصر العظيم يدافع عن كرامة مصر وكرامة الأمة العربية . فتحية لجيشنا وشعبنا ، وتحية لجيش مصر وشعب مصر العربي العظيم .

ولابد لي في هذه اللحظات الحاسمة من أن أوجه تحية أخرى من القلب إلى هؤلاء العسكريين البواسل الذين جاؤوا إلى قطرنا من المغرب الشقيق ليشاركوا في معركة العزة والكرامة ويقدموا الدم سخياً إلى جانب اخوانهم في سورية ومصر فجسدوا بذلك وحدة الأمة ووحدة المصير وقدسية الهدف .

اننا اليوم نخوض معركة الشرف والعزة ، دفاعاً عن أرضنا الغالية ، عن تاريخنا المجيد ، عن تراث الآباء والأجداد . نخوض المعركة بايمان بالله وبأنفسنا ، وبعزيمة صلبة وتصميم قاطع على أن يكون النصر حليفنا فيها .

لقد بغت — اسرائيل — واصابها الغرور ، وملأت الغطرسة رؤوس المسؤولين فيها ، فأوغلوا في الجريمة واستمرأوا أسلوب العدوان ، يملأ قلوبهم حقد أسود على شعبنا وعلى البشرية ، ويستبد بهم تعطش لسفك الدماء ، ويوجه خطاهم استخفاف بمبادىء البشرية ومثلها العليا وبالقوانين والقرارات الدولية .

مثل هؤلاء ، مثل من سبقهم من دعاة الحروب ، لايقفون عند حـد ، لا يرعوون إذا لم تردعهم الشعوب المؤمنة بحقها ، المكافحة في سبيل حريتها ووجودها .

وإذ نؤدي واجبنا في الدفاع عن أرضنا وشرف أمتنا ، فاننا مستعدون لبذل كل تضحية وتقبل كل شدة ، في سبيل أن ينتصر الحق وتنتصر المبادىء ، وفي سبيل أن يسود السلام العادل .

أيها الاخوة المواطنون .

ان الشدائد هي محك لمعدن الشعوب ،وامتحان لاصالتها . وكلما ازدادت الأزمة شدة ، كلما ظهر المعدن الصافي وتأكدت الاصالة الراسخة .

انكم أبناء أمة عرفت على مدى التاريخ بمواقف الرجولة والاباء ،بمواقف البطولة والفداء ، أبناء أمة حملت رسالة النور والايمان الى اصقاع الأرض ، وشهد لها العالم قاطبة بأسمى الصفات وأنبل الأخلاق .

فيا أحفاد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم ، يا أحفاد خالد ، وأبي عبيدة ، وعمرو ، وسعد ، وصلاح الدين . ان ضمير أمتنا يناديتا ، وأرواح شهدائنا تستحثنا ، أن نتمثل معاني اليرموك ، والقادسية ، وحطين ،وعين جالوت ، وان جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج تشخص بعيونها وأفئدتها الى صمودنا العظيم ، وكلها أمل وثقة بأننا إلى النصر سائرون .

يا جنودنا ، وصف ضباطنا ، وضباطنا البواسل .

نحن أصحاب حق وأصحاب قضية عادلة ، والله ينصر من كان على حق ، وكان عن حقه ذائدا مدافعاً . انكم اليوم تدافعون عن شرف الأمة العربية ، وتصونون كرامتها ، وتحمون وجودها ، وتضحون كي تحيا الأجيال القادمة هانئة مطمئنة .

وتشاء إرادة العلي القدير أن يكون جهادكم في هذا اليوم من أيام الشهر الفضيل ، شهر رمضان ، شهر الجهاد ، شهر غزوة بدر ، شهر يوم الفتح ، شهر النصر ، صفحة ناصعة في تاريخ قواتنا المسلحة تضيفها إلى العديد من صفات البطولة والفداء التي سطرتها بدماء الشهداء الأبرار في تاريخ قطرنا ووطننا .

لقد انتصر أجدادنا بالايمان ، بالتضحية ، بالتسابق على الشهادة دفاعاً عن دين الله ورسالة الحق . وانكم اليوم ببطولاتكم وشجاعتكم ، انما تستلهمون هذه الروح وتحيونها ، وتحيون بها التقاليد العربية المجيدة .

سلاحكم بين أيديكم وديعة فأحسنوا استعماله ، وشرف الجندي العربي في أعناقكم أمانة ، فصونوا الأمانة ، ومستقبل شعبنا في عهدتكم فابذلوا المستحيل دفاعاً عنه .

وان شعبنا الذي تعمر صدور أبنائه حماسة يقف وراءكم صفاً واحداً ، يحمي خطوطكم الخلفية ، ويدعم جهادكم بكل ما يملك ، ومن ورائه جماهير أمتنا العربية ، التي لا أخالها الا واقفة الموقف الذي يمليه الواجب القومي في هذه المرحلة الحاسمة ، وخلفها من بعد في العالم أصدقاء عديدون يؤازرون حقنا ويدعمون قضيتنا ويؤيدون نضالنا .

لسنا هواة قتل وتدمير ، وانما نحن ندفع عن أنفسنا القتل والتدمير .

لسنا معتدين ولم نكن قط معتدين ، ولكننا كنا وما نزال ندفع عن أنفسنا العدوان .

نحن لانريد الموت لأحد ، وانما ندفع الموت عن شعبنا .

اننا نعشق الحرية ونريدها لنا ولغيرنا ، وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته .

نحن دعاة سلام ونعمل من أجل السلام لشعبنا ولكل شعوب العالم ، وندافع اليوم من أجل أن نعيش بسلام .

فسيروا على بركة الله ، وان ينصركم الله فلا غالب لكم .

والسلام عليكم

نص الخطاب الذي ألقاه الرئيس
محمد انور السادات أمام مجلس الشعب:

فتحنا طريق الحق
بقوة السلاح

ألقى الرئيس أنور السادات خطاباً هاماً في الجلسة الطارئة التي عقدها مجلس الشعب المصري أمس وحدد فيه الموقف من الحرب والسلام وذلك في اليوم الحادي عشر للقتال على الجبهتين السورية والمصرية ضد العدوان الصهيوني ولتحرير الارض العربية.
وفيما يلي نص هذا الخطاب :

بسم الله

أيها الاخوة والأخوات ،

كان بودي أن أجيء اليكم قبل الآن، التقي بكم وبجماهير شعبنا، وأمتنا لكن شاغلي كان كما تعلمون وكما تريدون. وأثق أنكم تقدرون وتعذرون . ومهما يكن فقد كنت أحس بكم وبشعبنا وأمتنا معي فيما أخذته على مسؤوليتي تعبيراً عن إرادة أمة وتعبيراً عن مصير شعب، ثم وجدت مناسباً أن أجيء اليكم اليوم أتحدث معكم ومع جماهير شعبنا ومع شعوب أمتنا العربية وأمام عالم يهمه مايجري على أرضنا لأنه وثيق الصلة بأخطر قضايا الانسانية وهي قضية الحرب والسلام، ذلك لأننا لا نعتبر نضالنا الوطني والقومي ظاهرة محلية أو اقليمية لأن المنطقة التي نعيش فيها، بدورها الاستراتيجي والحضاري، في القلب من العالم وفي الصميم من حركاته، ولأن الحوادث كبيرة ولأن التطورات متلاحقة ولأن القرارات مصيرية، انني أريد أن أدخل مباشرة فيما أريد ان نتحدث فيه معاً وسوف أركز على نقطتين: الحرب والسلام .

أولاً: الحرب . لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف امامكم لكي نتفاخر معاً ونتباهى بما حققناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر بل أعظم وأمجد أيام التاريخ؛ وربما جاء يوم نجلس فيه معاً لا لكي نتفاخر ونتباهى ولكن لكي نتذاكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلاً بعد جيل قصة الكفاح ومشاقه ، مرارة الهزيمة وآلامها، وحلاوة النصر وآماله .

نعم، سوف يجيء يوم نجلس فيه لنقص ونروي ماذا فعل كل منا في موقعه، وكيف حمل كل منا أمانته وأدى دوره، كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الأمة في فترة حالكة ساد فيها الظلام ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى تستطيع أمتهم ان تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء. ذلك كله سوف يجيء

وقته وأظنكم توافقونني على ان لدينا الآن من المشاغل والمهام ما يستحق ان نكرس له كل وقتنا وجهدنا. وإذا جاز لي ان اتوقف قليلاً وانا أعلم أن بكم شوقاً الى سماع الكثير فاني أقول ما يلي :

أولاً : فيما يتعلق بنفسي فلقد حاولت ان أفي بما عاهدت الله وعاهدتكم عليه قبل ثلاث سنوات بالضبط من هذا اليوم، عاهدت الله وعاهدتكم على أن قضية تحرير التراب الوطني والقومي هي التكليف الأول الذي حملته ولاء لشعبنا وللأمة. عاهدت الله وعاهدتكم على أني لن أدخر جهداً في سبيل ان تصل الأمة الى وضع تكون فيه قادرة على رفع إرادتها الى مستوى أمانينا، ذلك أن اعتقادي كان دائماً ولا يزال أن التمني بلا إرادة نوع من أحلام اليقظة، يرفض حبي وولائي لهذا الوطن أن نقع في سرابه أو في ضبابه، عاهدت الله وعاهدتكم على أن نثبت للعالم أن نكسة عام ١٩٦٧ كانت استثناء في تاريخنا وليست قاعدة. وقد كنت في هذا اصدر عن ايمان بالتاريخ يستوعب سبعة آلاف سنة من الحضارة ويستشرف آفاقاً نعلم علم اليقين نضال شعبنا وأمتنا لبلوغها والوصول اليها وتحقيق قيمها وأحلامها العظمى . عاهدت الله وعاهدتكم على أن جيلنا لن يسلم أعلامه الى جيل سوف يجيء بعده منكسة أو ذليلة وإنما سوف يسلم أعلامنا مرتفعة هاماتها، عزيزة صواريها، وقد تكون مخضبة بالدماء ولكننا ظللنا نحتفظ برؤوسنا عالية في السماء وقت أن كانت جباهنا تنزف الدم والألم والمرارة . عاهدت الله وعاهدتكم على ألا أتنحى عن لحظة أجدها ملائمة ولا أتقدم عليها لا أغالي ولا أتلكأ وكانت الحسابات مضنية والمسؤولية فادحة لكنني أدركت كما قلت لكم وللأمة مراراً وتكراراً أن ذلك قدري وأنني حملته على يدي . عاهدت الله وعاهدتكم وحاولت مخلصاً أن أفي بالوعد ملتمساً عون الله وطالباً ثقتكم وثقة الأمة واني لأحمد الله .

ثانياً : لقد كان كل شيء منوطاً بإرادة الأمة ، حجم هذه الإرادة وعمق

هذه الإرادة، وما كنا لنستطيع شيئاً وما كان أحد ليستطيع شيئاً لو لم يكن هذا الشعب ولو لم تكن هذه الأمة .

لقد كان الليل طويلاً وثقيلاً. ولكن الامة لم تفقد ايمانها ابدا بطلوع الفجر، واني لاقول بغير ادعاء ان التاريخ سوف يسجل لهذه الامة ان نكستها لم تكن سقوطا وانما كانت كبوة عارضة ، وان حركتها لم تكن فورانا .. وانما كانت ارتفاعا شاهقا . لقد اعطى شعبنا وعيا غير محدود . واهم من ذلك كله اهم من الجهد والتضحيات والوعي ان الشعب احتفظ بايمان غير محدود . كان ذلك هو خط الفاصل بين النكسة وبين الهزيمة . ولقد كنت احس بذلك من اول يوم تحملت فيه مسؤوليتي ، وقبلت راضيا بما شاء الله ان يضعه على كاهلي . كنت اعرف ان ايمان الشعب هو القاعدة واذا كانت القاعدة سليمة فان كل ما ضاع يمكن تعويضه وكل ما تراجعنا عنه نستطيع الانطلاق اليه مرة اخرى . وبرغم ظواهر عديدة بعضها طبيعي وبعضها مصطنع من تأثير الحرب النفسية التي وجهت الينا فقد كان سؤالي لنفسي ولغيري في كل يوم يمر : هل القاعدة سليمة ؟ وكنت واثقا انه ليس في قدرة اي حرب نفسية مهما كانت ضراوتها ان تمس صلابة هذه القاعدة . وما دامت القاعدة بخير فان كل شيء بخير وغير ذلك لن يكون الا زوبعة في الفنجان كما يقولون . لست انكر اننا واجهنا مصاعب جمة . مصاعب حقيقية . مصاعب في الخدمات . مصاعب في التموين. مصاعب في الانتاج. مصاعب في العمل السياسي ايضاً . وكنت اعرف الحقيقة ولكنني لم اكن في موقف يسمح لي بشرحها . كنت اعرف اننا نحاول ان نجعل الحياة مقبولة للناس . وفي نفس الوقت فان علينا ان نحتاط لما هو منتظر. وكنت واثقا انه سوف يجيء يوم تظهر فيه الحقيقة لغيري ، كما كانت ظاهرة لي . وحين تظهر الحقيقة فان الناس سوف يعرفون وسوف يقدرون واحمد الله .

ثانيا . ولقد كانت هناك اشارات واضحة الى وجود تمزق في ضمير الامة العربية كلها . و كنت ارى ذلك طبيعيا لاسباب اجتماعية وفكرية. كان هناك من يسألونني ويسألون انفسهم : هل تستطيع الامة ان تواجه امتحانها الرهيب وهي على هذه الحالة من التمزق في ضميرها؟. و كنت اقول ان هذا التمزق فضلا عن اسبابه الطبيعية يعكس تناقضاً بين الواقع والامل . اليس في ذلك ما يفيد .

بل كنت اعتقد انه ليس هناك شقاء لضمير الامة ولا راحة الا عندما تواجه الامة لحظة التحدي .

ولم اكن في بعض الاوقات على استعداد للدخول في مناقشات عقيمة .. هل نعالج التمزق قبل مواجهة التحدي او نقبل التحدي رغم وجود اشارات الى التمزق .

وكان رايي ان الامم لا تستطيع ان تكشف نفسها او جوهرها الا من خلال ممارسة الصراع وبمقدار ما يكون التحدي كبيرا بمقدار ما تكون يقظة الامة واكتشافها لقدراتها كبير .

لست انكر وجود خلافات اجتماعية وفكرية تلك مسار حركة التاريخ، ولكنني في نفس الوقت كنت اعرف ان الامم العظمى عندما تواجه تحدياتها الكبرى فانها قادرة على أن تحدد لنفسها اولوياتها بوضوح لا يقبل الشك. كنت مؤمنا بسلامة وصلابة دعوة القومية العربية و كنت مدركا للتفاعلات المختلفة التي تحرك مسيرة امة واحدة ولكنني كنت واثقا من ان وحدة العمل سوف تفرض نفسها على كل القوى وعلى كل الاطراف وعلى كل التيارات لانها جميعا سوف تعي ان هذه الظروف ليس مباراة بين الاجتهادات وانما هو الصراع بين الفناء والبقاء لأمة بأسرها واحمد الله .

رابعا : ولقد كنت اعرف جوهر قواتنا المسلحة ولم يكن حديثي عنها

رجما بالغيب ولا تكهنا، ولقد خرجت من صفوف هذه القوات المسلحة وعشت بنفسي تقاليدها وتشرفت بالخدمة في صفوفها وتحت الويتها. ان سجل هذه القوات كان باهرا ولكن اعداءنا، الاستعمار القديم والجديد والصهيونية، ركزت ضد هذا السجل تركيزا مخيفا لانها ارادت ان تشكك الامة في درعها وفي سيفها. كان في استطاعة هذه القوات عام ٦٧ ان تحارب بها اليوم لو ان قيادتها العسكرية في ذلك الوقت لم تفقد اعصابها بعد ضربة الطيران التي حذر منها عبد الناصر او لو ان تلك القيادة لم تصدر بعد ذلك قرارا بالانسحاب العام من سيناء بدون علم عبد الناصر ايضا. ان هذه القوات لم تعط الفرصة لتحارب دفاعا عن الوطن وعن شرفه وعن ترابه. لم يهزمها عدوها ولكن ارهقتها الظروف التي لم تعطها الفرصة لتقاتل. ولقد شاركت مع جمال عبد الناصر في عملية اعادة بناء القوات المسلحة ثم شاءت لي الاقدار أن اتحمل مسؤولية استكمال البناء ومسؤولية القيادة العليا. ان القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة على اي مقياس عسكري. لقد اعطت نفسها بالكامل لواجبها. استوعبت العصر كله تدريبا وسلاحا، بل علما واقتدارا، وحين اصدرت لها الامر ان ترد على استفزاز العدو وان تكبح جماح غروره فانها اثبتت نفسها ان هذه القوات اخذت في يدها بعد صدور الامر لها زمام المبادأة وحققت مفاجأة العدو وافقدته توازنه بحركتها السريعة، ولست اتجاوز اذا قلت ان التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس امام عملية يوم السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياز خط بارليف المنيع واقامة رؤوس جسور لها على الضفة الشرقية من القناة بعد ان افقدت العدو توازنه كما قلت في ست ساعات. لقد كانت المخاطرة كبيرة وكانت التضحيات عظيمة ولكن النتائج المحققة

ولى من حربنا كانت هائلة فقد العدو المتغطرس

توازنه الى هذه اللحظة استعادت الامة الجريحة شرفها. تغيرت الخريطة السياسية الشرق الاوسط. واذا كنا نقول ذلك اعتزازاً وبعض الاعتزاز ايمان، فإن الواجب يقضينا ان نسجل من هنا وباسم هذا الشعب وباسم هذه الامة ثقتنا المطلقة في قواتنا المسلحة، ثقتنا في قيادتها التي خططت، وثقتنا في ضباطها وجنودها الذين نفذوا بالنار والدم، ثقتنا في ايمان هذه القوات المسلحة وثقتنا في علمها وثقتنا في سلاح هذه القوات المسلحة وثقتنا في قدرتها على استيعاب هذا السلاح. نقول باختصار ان هذا الوطن يستطيع ان يطمئن ويأمن بعد خوف انه قد اصبح له درع وسيف. أريد من هنا ان أشد انتباه حضراتكم معي الى الجبهة الشمالية حيث يحارب الجيش السوري العظيم معركة من أمجد معارك الامة العربية تحت القيادة المخلصة والحازمة للاخ الرئيس حافظ الأسد. وأريد أن اقول لاخواتنا في الجبهة الشمالية انكم عاهدتم وكنتم الاوفياء للعهد وصادقتم وكنتم اشرف الاصدقاء وقاتلتم وكنتم أشجع المقاتلين. انكم حاربتم حرب رجال وصمدتم صمود ابطال ولم يكن في مقدورنا أن نجد رفقة سلاح اكثر مدعاة للطمأنينة والفخر من هذه الرفقة التي تشرفنا بالقتال فيها معكم ضد عدو واحد لنا هو عدو امتنا العربية كلها.

لقد كنا معاً طلائع المعركة، تحملنا معاً ضراوتها ودفعنا معاً أفدح تكاليفها من دمنا ومن مواردنا. ولسوف نواصل القتال، ولسوف نتحدى الخطر، ولسوف نواصل مع اخوة لنا تنادوا إلى الساحة صادقين مخلصين. سوف نواصل جميعاً دفع ضريبة العرق والدم حتى نصل الى هدف نرضاه لانفسنا وترضاه امتنا لنضالها في هذه المرحلة الخطيرة من مراحله المتصلة والمكتملة.

ايها الاخوة والاخوات. كان ذلك عن الحرب. والآن ماذا عن السلام؟. عندما نتحدث عن السلام فلا بد لنا أن نتذكر ولا ننسى كما لا بد لغيرنا ان لا يتناسى حقيقة الاسباب التي من أجلها كانت حربنا وقد تأذنون لي أن أضع بعض هذه الاسباب محددة قاطعة أمام حضراتكم.

أولاً : اننا حاربنا من أجل السلام . حاربنا من أجل السلام الوحيد والذي يستحق وصف السلام، وهو السلام القائم على العدل. ان عدونا يتحدث أحياناً عن السلام ولكن شتان ما بين سلام العدوان وسلام العدل . ان ديفيد بن غوريون هو الذي صاغ لاسرائيل نظرية فرض السلام . والسلام لا يفرض والحديث عن فرض السلام معناه التهديد بشن الحرب أو شنها فعلاً . والخطأ الكبير الذي وقع فيه عدونا انه تصور أن قوة الارهاب تستطيع ضمان الأمن .

ولقد ثبت عملياً اليوم وفي ميدان القتال عقم هذه النظرية . ثبت انها اذا صلحت بضعف الآخرين في يوم فانها لا تصلح اذا ما استجمع هؤلاء قوتهم في كل يوم .

ولست اعرف كيف كان لديفيد بن غوريون ان يفكر لو انه كان في مركز القيادة في اسرائيل اليوم هل كان في استطاعته ان يفهم طبيعة التاريخ أو أنه كان سيظل كما نرى قيادة اسرائيل اليوم في موقف معاد للتاريخ .

ان السلام لا يفرض . وسلام الأمر الواقع لا يقوم ولا يدوم . السلام بالعدل وحده والسلام ليس بالارهاب مهما أمعن في الطغيان ومهما زين له غرور القوة أو حماقة القوة، ذلك الغرور وتلك الحماقة اللتين تمادى فيهما عدونا ، ليس فقط خلال السنوات الست الاخيرة بل خلال السنوات الخمس والعشرين أي منذ قامت الدولة الصهيونية باغتصاب فلسطين .

ولقد نسأل قادة اسرائيل اليوم اين ذهبت نظرية الأمن الاسرائيلية التي حاولوا اقامتها بالعنف تارة وبالجبروت تارة اخرى طوال خمسة وعشرين سنة؟ لقد انكسرت وتحطمت .

قواتنا العسكرية تتحدى اليوم قوتهم العسكرية وهاهم في حرب طويلة ممتدة وهم أمام استنزاف نستطيع نحن أن نتحمله بأكثر وأوفر مما يستطيعون.

وهام عمقهم معرض اذا تصوروا ان في استطاعتهم تخويفنا بتهـديد العمق العربي. وربما أضيف ، لـكي يسمعوا في اسرائيل ، اننا لسنا دعاة ابادة كما يزعمون وان صواريخنا المصرية عابرة سيناء من طراز ظافر موجودة الآن على قواعدها مستعدة للانطلاق باشارة واحدة الى أعمق الاعماق في اسرائيل ولقد كان بوسعنا منـذ الدقيقة الاولى للمعركة ان نعطي الاشارة ونصـدر الأمر خصوصاً وان الخيلاء والكبرياء الفارغة أوهمتهم بأكثر بما يقدرون على تحمـل تبعاته لكننا ندرك مسؤولية استعمال انواع معينة من السلاح ونرد انفسنا بأنفسنا عنها وان كان عليهم ان يتذكروا ما قلته يوماً وما زلت اقوله العين بالعين والسن بالسن والعمق بالعمق.

ثانياً : اننا لم نحارب لـكي نعتدي على أرض غيرنا وانما حاربنا ونحاربه وسوف نواصل الحرب لهدفين اثنين .

الأول – استعادة أراضينا المحتلة بعد سنة ٦٧

الثاني – ايجاد السبيل لاستعادة واحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين. هذه هي أهدافنا من قبول مخاطر القتال، ولقد قبلناها رداً على استفزازات لاتحتمل ولاتطاق . ولم نكن البادئين فيها وانما كنا فيها ندفع عن أنفسنا وعن أرضنا وعن حقنا في الحرية وفي الحياة وأن حربنا لم نكن من أجل العدوان ولكن ضد العدوان .

ولم نكن في حربنا خارجين على القيم ولا القوانين التي ارتضاها مجتمع الدول بنفسه وسجلها ميثاق الأمم المتحدة الذي كتبته الشعوب الحرة بدمائها بعد انتصارها على الفاشية والنازية .

بل لعلنا أن نقول أن حربنا هي استمرار للحرب الانسانية ضد الفاشية والنازية ذلك لأن الصهيونية بدعاويها العنصرية وبمنطق التوسع بالأرض ليست

إلا تكراراً هزيلاً للفاشية والنازية يثير الازدراء ولايثير الخوف ويبعث على الاحتقار أكثر مما يبعث على الكراهية .

اننا في حربنا كنا نتصرف وفقاً لنص وروح ميثاق الأمم المتحدة وليس مجافاة للروح ولا للنص وإلى جانب الميثاق نفسه. فقد كنا نتصرف تقديراً واحتراماً لقرارات المنظمة الدولية سواء على مستوى الجمعية العامة للامم المتحدة أو على مستوى مجلس الأمن .

أيها الاخوة والأخوات ..

لقد شهد العالم كله أننا بالحق وأشاد بشجاعتنا دفاعاً عن هذا الحق. أدرك العالم أننا لسنا البادئين بالعدوان ولكننا المبادرون لواجب الدفاع عن النفس. لسنا ضد قيم وقوانين المجتمع الدولي . لسنا مغامري حرب وانما نحن طلاب سلام .

لقد أدرك العالم ذلك كله وكان يتعاطف من قبل ذلك مع قضيتنا واليوم زاد على تعاطفه معنا احترامه لتصميمنا على الدفاع عن هذه القضية ولقد كنا نطمئن بعطف العالم ونحن الآن نعتز باحترامه وأقول لكم بصدق وأمانة أنني أفضل احترام العالم ولو بغير عطف على عطف إذا كان بغير احترام وأحمد الله .

أيها الاخوة والأخوات ..

ان دولة واحدة اختلفت مع العالم كله ولم تختلف معنا فقط انما مع العالم كله كما قلت . هذه الدولة هي الولايات المتحدة . لقد فوجئت كما تدعي بأننا حاولنا رد العدوان ولسنا نفهم كيف ولماذا فوجئت هذه الدولة. لم تكتف كما تقول بأنها فوجئت وانما افاقت من المفاجأة دون أن تعود إلى الصواب ومن المؤسف والمحزن أن يكون هذا موقف واحدة من القوى الأعظم في هذا العصر . لقد كنا نتوقع أو ربما نتمنى ضد الشواهد والتجارب كلها ان تفيق الولايات المتحدة الأمريكية من المفاجأة إلى الصواب لكن ذلك لم يحدث. ورأينا الولايات المتحدة

تخرج من المفاجأة إلى المناورة. ان عرضها الأول هو : وقف القتال والعودة إلى خطوط قبل ٦ اكتوبر. وكان يمكن ان نغضب من هذا المنطق المعكوس ولكننا لم نغضب لأننا نثق في أنفسنا من ناحية ومن ناحية أخرى لأننا بالفعل نريد ان نساهم في سلام العالم. ان العالم يدخل في عصر الوفاق بين القوتين الأعظم ونحن لانعارض سياسة الوفاق. كان لنا تحفظ واحد عليه ومازال تحفظنا قائماً. اننا كنا نريد ان يدخل العالم بعد استحالة الحرب العالمية إلى عصر من السلام فان السلام ليس معنى مجرداً او مطلقاً . . السلام له معنى واحد هو ان تشعر كل شعوب الأرض انه سلام لها وليس سلاماً مفروضاً عليها . . وأني اقول امام حضراتكم وعلى مسمع من العالم نحن نريد ان تنجح وتتدعم سياسة الوفاق ونحن على استعداد للمساهمة في انجاحها وتدعيمها لكننا نرى وبحق ان ذلك لايمكن ان يحدث بينما العدوان قائم ضد امة عربية بأسرها تقع في قلب العالم استراتيجياً وتملك اهم ثرواته اقتصادياً . . ان اي نسيان لهذه الحقيقة البديهية ليس تجاهلاً فحسب وانما هو اهانة لا نرضاها لأنفسنا ولا للعالم الذي يعرف اهمية وقيمة هذه المنطقة التي نعيش فيها وعليه ان يعرف الآن ان هذه المنطقة قادرة على ان تمنح او تمنع .

أيها الأخوة والأخوات . .

إن الولايات المتحدة بعد أن فتحنا طريق الحق بقوة السلاح اندفعت الى سياسة لا نستطيع أن نسكت عليها أو أن تسكت عليها أمتنا العربية ذلك انها أقامت جسراً سريعاً تنقل به المعونات والمساعدات العسكرية لاسرائيل. لم يكف الولايات المتحدة أن سلاحها هو الذي مكن اسرائيل من تعطيل كل محاولات الحل السلمي لأزمة الشرق الاوسط فانها الآن تتورط فيما هو أفدح وفيما هو أخطر. وبينما نحن نقاتل العدوان وبينما نحن نحاول ازاحة كابوسه عن أراضينا المحتلة اذا هي تسارع الى العدوان تعوض العدو عما خسر وتزوده بما لم يكن لديه.

البقية على الصفحة (١٨٩)

ماهي النتائج المستخلصة من

الأيام العشرة الأولى لحرب التحرير ؟

فوزي الكيالي

كانت المعارك القاسية التي خاضتها الشعوب المتقدمة عبر تاريخها، جزءاً اساسياً وهاماً من تجاربها التي ساعدت على تطورها ودفعها في طريق التقدم. ففي المعارك الوطنية الكبرى، وفي حروب التحرير، تولد الوحدة القوميـــة، وتتجرد الشعوب من الأنانيات الفردية والاقليمية، وتتخلص من الكثير من رواسب التخلف، ومن عوامل الفرقة والانقسام، فالحروب الوطنية كالنار التي تصهر فلذات الحديد فتعزل الشوائب الغريبة عن جوهر المعدن واصله، وتنقيه وتحيله إلى فولاذ صلب. والعرب – مـع الأسف – لم يخوضوا حتى الآن حرباً بالمعنى الصحيح منذ مئات السنين. كانوا يخوضون بعض الحروب كافراد مجندين في جيوش اجنبية، ولكنهم لم يخوضوها قط كأمة، ولم يخوضوها قط حرباً عربية لتحقيق أهداف عربية وبقيادة عربية. واستطيع القول إن هذه الحرب

هي حربهم الأولى . واذا كان الأمر كذلك فان ما مضى من ايام الحرب حتى الآن خلال الأيام العشرة الأولى من هذه الحرب ، قد أعطى نتائج على جانب كبير من الاهمية :

١ – أول هذه النتائج في رأيي هي انعكاس هذه التجربة في الأيام العشرة الماضية على نفس الانسان العربي ، هذا الانسان الذي كان يشعر قبل هذه الأيام العشرة بأنه انسان هش من الداخل ، وليست لديه الصلابة الكافية ليخوض غمار حرب حديثة تستعمل فيها أسلحة الحرب وأكثر أساليبها تطوراً ، ولكن الواقع اثبت عكس ذلك تماماً . ان اجتياز الجيش المصري في الجنوب والجيش السوري في الشمال لخطوط وقف اطلاق النار التي كانت من أمنع ما عرفه تاريخ الحروب من تحصينات استخدمت فيها آخر مبتكرات العلم والتكنولوجيا ، والتي كانت تبدو في نظر الخبراء العسكريين حواجز لا تقتحم .. إنما يدل على أمور كثيرة ، أولها أن الانسان العربي قادر على أن يقاتل كأحسن ما يقاتل الجنود في أي شعب من الشعوب دفاعا عن أرضهم وحريتهم وكرامة أوطانهم . ويدل ذلك ايضاً على أن القيادات العربية العسكرية قادرة على أن ترسم أفضل الخطط العسكرية وان تنفذها بكفاءة كاملة وأن القيادات السياسية في كل من سورية ومصر هي في مستوى اتخاذ القرارات الحاسمة المصيرية ، وان توقت لها بدقة واحكام .

٢ – ان اسرائيل لم تحتل ارضنا فقط خلال الحروب الماضية التي شنتها ضد شعوبنا ، وانما حاولت أن تحتل عقولنا وضمائرنا ، وأن تزرع الشك في نفوسنا من أنفسنا ومن امكانياتنا ، وكان في رأس النتائج التي حصلنا عليها خلال الأيام العشرة الماضية هي أننا انتصرنا على كل الشكوك وعلى كل الأوهام وعلى أسطورة أن عدونا لايقهر ، وأننا لا نستطيع ان نواجهه بالكفاءة اللازمة . وهذه في يقيني ، مع النتيجة الأولى، تعتبر أهم وأخطر ما حققناه من نصر في حربنا هذه ، ومما يجب أن نشير اليه هنا أن هذه النتيجة لا يمكن أبداً أن تسلب منا في يوم من الايام مهما كانت نتيجة المعارك على جبهات القتال . واسترجاع الأرض – كل الأرض – سيأتي حتماً غداً أو بعد غد . . لايهم ، الأكثر أهمية هو أن شروط النصر الداخلية في أعماق الوجود العربي وفي ضمير الفرد العربي قد وضحت منذ الآن وتأكدت في كياننا القومي وفي بنائنا النفسي .

٣ – النتيجة الثالثة هي أن سمعة العرب الدولية والانسانية في الربع الأخير من القرن العشرين قد بدأت تتغير خلال معارك الأيام العشرة .

لقد استطاعت الدعاية الصهيونية والامبريالية أن تصور الأمة العربية على أنها

أمة هرمة فقدت مقومات الحياة لأنها فقدت ارادة الدفاع عن حياتها ووجودها ، وأنها تمزقت وتفككت قطرياً وقومياً بحيث أنها لا تستطيع أن تجمع أمرها على شيء ، وأنه يجب ألا يحسب حسابها عند تقدير المواقف أو في حساب القوى التي تتحكم في مصير المنطقة العربية أو في مصير العالم . ويوماً بعد يوم ، منذ بدء المعركة ، تثبت الأمة العربية أنها أمة قابلة وقادرة على ان تجدد حياتها وأن تستعيد فتوتها وان توحد صفوفها وأن تحزم أمرها وأن تصبح في موازين القوى الدولية قوة فاعلة مؤثرة لها حسابها في صفوف الأحرار والمناضلين والمدافعين عن القيم الانسانية ، ضد صفوف القتلة والمجرمين والغزاة والبرابرة . ان القتال والصمود العربيين يشغلان الآن من اهتمام الانسانية ما كانت تشغله فيتنام بالذات . وان هذا لما ينسجم مع تقاليد تاريخنا ويبرر تضحياتنا ويكرم استشهاد أبنائنا .

٤ — إن ما فعلته معارك الأيام العشرة الماضية ، على الصعيد القومي ، هو أضخم وأعمق وأبقى بالنسبة لترسيخ فكرة المصير العربي الواحد ، من كل ما فعلته الدعاية للعربية والنظريات والأحزاب خلال خمسين عاماً ، وهو حصيلة لكل ذلك في الوقت ذاته .

في الحرب ، يقف الانسان وجهاً لوجه أمام المصير . ومن خلال معاناة الانسان العميقة والجادة في ساحة القتال تتوضح لديه كل الخطوط وتسقط من أمامه كل البراقع والستائر والحجب ، ويرى الأشياء أوضح وأقوى وأصدق مما كان يراها في أي وقت قبل ذلك . ولقد شعر كل انسان عربي وخصوصاً أولئك الأبطال الذين كانوا يواجهون الموت بالنار والحديد ، وكل الذين كانوا وراءهم على الأرض العربية مرتبطين بهم ارتباط الحياة أو الموت، أن المصير العربي واحد ، وأن السوري والمصري لا يقرران بقتالهم مصير سوريا ومصر وحدهما وإنما يقرران مصير الوطن العربي كله ومصير كل انسان يعيش على هذه الأرض العربية .

من خلال هذا الشعور بوحدة القدر وبوحدة المصير، تقدم الجندي العراقي والجندي الأردني والجندي المغربي والجندي الجزائري والجندي الليبي والجندي السوداني ، وكل الجنود العرب ، ليأخذوا مكانهم إلى جانب السوريين والمصريين على خطوط النار ، ذلك لأن حديث المعركة كان أقوى من كل حديث ، ومصداقاً لكل حديث يقول بوحدة المصير العربي .

في لهيب معارك الأيام العشرة الماضية نمت وترعرعت وحدتنا القومية أقوى وأشد

مما نمت وترعرعت خلال عشرات السنين . وعلى هذا الاساس فان معارك الأيام العشرة تلعب في التاريخ الحديث دوراً كالدور الذي لعبته معركة ذي قار في تاريخ العرب القديم ، إنها المقدمة الجادة في طريق بناء وحدتنا القومية وفي طريق بناء دولة العرب الكبرى من الخليج الى المحيط .

إن أحداً في العالم لا يستطيع بعد اليوم أن يشكك في وحدة أمتنا وفي أن امتنا موجودة فعلا على أرض الواقع وقادرة على أن تعبر عن وجودها ، لا في الصحف والاذاعات والنشرات الحزبية فقط ، وانما على ساحات المعارك ، وبالحديد والنار ، وأن تدافع عن هذا الوجود بعشرات الألوف بل بمئات الالوف والملايين من الضحايا الذين يسقطون فداء ودفاعاً عن الارض وعن المستقبل الأفضل والاكرم للأمة الواحدة ، لا تستطيع أن تميز فيهم المغربي من المصري من السوري من العراقي من الجزائري .

٥ – وكما حاول الأعداء ان يضللوا العرب عن انفسهم ، حاولوا دائماً ان يضللوهم عن اصدقائهم في العالم . ولكن حديث المعارك ، هو أصدق الأحاديث وروايات الحروب هي اصدق الروايات . وصدق شاعرنا الكبير أبو تمام حين قال :

السيف أصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

ولو ذهبت الآن لتسأل كل طفل وكل شيخ وكل انسان في دمشق والقاهرة وكل مدن وقرى مصر وسورية ، بل في كل مكان من الوطن العربي، من هم الاصدقاء ومن هم الاعداء، لقالوا لك بكل عفوية وبكل صدق ، وبكل ما في قلوبهم من ثبات اليقين وحرارة الايمان، ان اصحاب صاروخ سام هم أصدقاؤنا وان أصحاب طائرات الفانتوم هم اعداؤنا . الاول ينشر الأمن ويبث الطمأنينة ويحمي الحياة ويبشر بالحرية ، على ارضنا ، والثاني يبذر بذور الموت وينشر الخراب ويهدد بالعبودية .

ان المعركة العربية هي معركة انسانية بمقدار ما هي معركة قومية . هي معركة كل الشعوب المضطهدة والمعتدى عليها والمغلوبة على امرها . هي معركة تحرير وطني عربي، بمقدار ما هي معركة تحرر انساني .

ان الجهد العربي الباسل والتضحيات الكبيرة التي تبذلها امتنا في ساحات القتال اليوم انما تضيف رصيداً ضخماً وهاماً لحساب التقدم الانساني والحرية الحقيقية للأمة العربية ولجميع شعوب العالم ، وان النصر العربي المؤكد لن يكون الا لحساب مستقبل انساني افضل تظلله رايات الحرية والعدل والسلام .

ماهي الدروس المستفادة من معارك

الأيام العشرة الأولى لحرب التحرير ؟

مصطفى الحلاج

النقطة الأساسية أن المعركة أحدثت تغييراً جوهرياً في البنيان النفسي للمواطن العربي . فلاول مرة في تاريخ العرب المعاصر، وبعد سلسلة متلاحقة من الهزائم والنكسات والمرارة، شعر المواطن العربي خلال هذا الصدام أنه كفؤ ومساو للبشر المناضلين في سبيل حريتهم في الثلث الأخير من القرن العشرين . وعلى عكس صدمة ١٩٦٧ فانه بالرغم من التضحيات والآلام والمعاناة، يتبدى نوع من اليقظة المفاجئة لدى العرب ؛ وحتى في إطار العلاقات العربية الداخلية ، دلت المعركة عملياً على كل ما كان يقال من الناحية النظرية عن روابط الدم واللغة والتاريخ . أحس العرب في كل مكان أن الصدام يخصهم بقدر ما يخص دول المواجهة ، وإذا لم تكن النتائج المتولدة عن هذا الشعور قد ظهرت بشكل

كاف، فقد توضح حتى الآن المحور الذي يمكن أن يجذب العرب جميعاً وهو تحرير الأرض ، وما يتطلبه التحرير من التحام في الدم بين العرب جميعاً .

تصدى العرب الآن للكفاح ضد الصهيونية التي هي جزء خطر من الامبريالية العالمية لأنها تمثل الجزء الاستيطاني . صراع العرب صراع حول وجودهم ، واستبسال في الدفاع عن أرضهم وأنفسهم ، فهو بذلك دفاع مشروع وحيوي وحاسم . وهناك نقطة ربما لم تكن تثير أي قلق بالنسبة الى العالم ، وهي مقدار النفوذ والسيطرة الذي تتمتع به الصهيونية في العالم . فقد ثبت بنتيجة وقائع الحرب كم استطاعت أن تضلل من الشعوب في العالم ، بحيث إن هذه الشعوب استطاعت ان تدرك وبالتدريج في الأيام الأولى للحرب ، وكان هذا الشعور يتعمق ، كم أن اسرائيل مدعية ومتبجحة ومشوهة للوقائع . ونحن نقول إنها لم تستطع أن تضلل الناس فقط ، بل تعدى ذلك الى عدد من العرب الذين تساءلوا عن قدرتهم على مجابهة العدو الصهيوني .

كما أثبتت الصهيونية من ناحية أخرى أن لها نفوذاً في بعض الدوائر الامبريالية بحيث تستطيع أن تجر العالم الى مواقع خطرة جداً ، مثل ذلك تأثيرها الاستثنائي على الولايات المتحدة الامريكية .

نعتقد أن العالم سيدرس هذه الظاهرة ويتمعنها بعناية في المستقبل القريب ، بالنظر – كما قلنا – الى عوامل التأثير الحاسمة التي تمارسها الصهيونية لدى احدى القوتين الأعظم في العالم . ونحن نعتقد أن البشرية سوف تتنبه الى مثل هذا الخطر ، وتحاول بشكل عام وحاسم التنبه والحذر واحتواء مثل هذا النفوذ .

لقد كان العرب يعرفون ، وهم يعرفون الآن بشكل حسي وملموس، من هم أصدقاؤهم في العالم ومن هم أعداؤهم : أنا أعني بالدرجة الأولى الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية وجميع الشعوب والدول المحبة للسلام في العالم . إن إيمان العرب باستراتيجية الصداقة مع الاتحاد السوفيتي أصبح إيماناً مصيرياً امتزج بالدماء العربية التي تبذل في سبيل التحرير . ولقد أثبت موقف الاتحاد السوفياتي أن كل ما كان يشاع عن الوفاق الدولي على حساب الشعوب انما كان محاولة لتضليل الشعوب المناضلة في سبيل حريتها وتقدمها ؛ بل ان صدام الشرق الأوسط عزز وسيعزز هذه الحقيقة : وهي أن الدول الاشتراكية تنطلق من مبدأ أساسي لا تحيد عنه هو دعم جميع حركات التحرير الوطني في العالم في نضالها لتصفية جميع أشكال الاستغلال والقهر القومي الماثلة حتى الآن . ان ذلك لا يزيد

الاتحاد السوفيتي في الواقع شرفاً ـ فهو ليس بحاجة اليه ـ لكنه سيعمق ويوطد ايمان الشعوب المناضلة بأنها تستطيع دائماً أن تستمر في النضال وتجد في الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية سنداً وعوناً ودعماً لها في هذا النضال .

وبمعنى آخر فان النتائج الأولية المستخلصة من النضال في الشرق الأوسط سوف يعزز القدرة الكفاحية لدى جميع الشعوب المناضلة على وجه الأرض .

ومهما كانت نتائج هذا الصدام فان آفاقاً جديدة ستخلق في الجو العربي وفي الجو الدولي أيضاً .

أما على المستوى العربي فان نهوض حركة التحرر الوطني بعد انحسارها عقب هزيمة حزيران ، نأمل له أن يحتوي معطيات الهزيمة والنصر معاً ، وأن يولد منها صيغاً مرحلية جديدة للعمل العربي المشترك . وعلى أية حال ، فان من السابق لأوانه التكهن بمثل هذه الآفاق . ولكن الثقة بأن مرحلة السقوط قد انتهت هو الحصيلة المباشرة لهذا الصدام . وعلى المناضلين في جميع أقطار الوطن العربي أن يستخلصوا الوقائع والمعطيات الجديدة ، وأن يطرحوا صيغ العمل الملائمة لمرحلة ما بعد السقوط .

★ ★ ★

من أجل الحق والعدالة والسلام

أديب اللجمي

لم تكف ست سنوات ونيف من الانتظار والصبر المرير فرضهما العرب على أنفسهم بين عدوان حزيران ١٩٦٧ وتشرين الأول ١٩٧٣ ، لم تكف هذه السنوات المديدة لتقنع اسرائيل بأن عليها أن تنسحب ،طوعاً ، من الأراضي العربية التي احتلتها إثر عدوانها ، وبأن عليها بوصفها عضواً في المنظمات الدولية أن تحترم وتنفذ ما تطالبها به هذه المنظمات .

ولم تكف السنوات الست التي انصرمت على عدوان اسرائيل في سنة ١٩٦٧ ليفيد منها حكام اسرائيل والذين من ورائهم في الوصول الى النتيجة الحتمية التي لا بد لكل إنسان جدي من أن يصل اليها ، وهي أنه ما من شعب في الدنيا، في الحاضر مثلما في الماضي ، يمكن أن يقبل بأن تغتصب ارضه . ويعتدى عليه ، دون أن يعمل جاداً على استعادة ما اغتصبه الغاصبون ، هذه الحقيقة ،على بساطتها، بالرغم من كونها هي التي تجلت طوال القرن العشرين فيما يسمى بحركات وثورات

التحور ، لم تكن بالنسبة لحكام اسرائيل من الجلاء ، أو لم يشاؤوا هم أن ينظروا اليها بعين الصدق، بحيث تفرض عليهم ان يتصرفوا وفقها ، وأن يلتزموا بواقعها، ويعيدوا للعرب الأراضي التي احتلوها في عدوانهم الاخير . وظل الشعب العربي، وهو ينتظر بصبر مرير ، طوال السنوات الست الماضية ، يطالب في كل يوم ، وبمختلف الأشكال والصيغ والأساليب أن تعاد اليه أرضه ، ولكن المعتدين ظلوا ، بقصد وتصميم ، مغلقين آذانهم عن سماع صوت الحق .

وكان لا بد ، إزاء ذلك ، من أن نسلّم نحن العرب بمقولة « ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة » ، وأن نضعها موضع التنفيذ ، خاصة بعد أن استنفدنا كل الوسائل السلمية لاستعادة حقوقنا ، وبعد أن تأكد لنا وللعالم كله (كما أشارت مختلف التقارير التي نشرت في الأيام الأخيرة) أن اسرائيل تتأهب لشن عدوان جديد علينا باسم « الحرب الوقائية » . ولم يكن طبيعياً ولا معقولاً أن نستمر في الانتظار حتى تعود اسرائيل لتنقض علينا وتسوقنا الى مذبحة جديدة كما فعلت في سنة ١٩٦٧ ، وهي تصرخ في الوقت ذاته وتملأ الدنيا ضجيجاً واستعداء بأننا نريد أن نبيدها .

ذلك أن المشكلة التي كانت وما تزال مطروحة على اسرائيل هي بالضبط نقيض البديهية التي يسلّم العالم بها ، وهي أن اسرائيل بخلاف العالم كله ، لا تريد السلام ، ولا تحرص عليه ، بل هي على حد تعبير الكاتب الفرنسي هيلل ، تعتبر السلام ، لا الحرب ، خطراً عليها . ومن الواضح أن هذه هي القمة في النزعة العدوانية وفي إرادة تهديد الأمن والسلام العالميين وتقويضها . مرة أخرى تريد اسرائيل أن تقدم الدليل على أن الاعتداء أصل ، وأن السلام إضافة أو ملحق .

بيد أنه لا يكفي أبداً تفسير النزعة العدوانية الاسرائيلية بمجرد ردها الى مشاعر الامتلاء الذاتي لدى حكام اسرائيل والمسؤولين عن مصيرها ، أو إلى

مشاعر الغطرسة والاستعلاء والزهو بحصيلة عدوان ١٩٦٧ . حقاً إن هذه ظاهرات واقعية تجلت بألف شكل وشكل لدى اسرائيـــل طوال السنوات الأخيرة ، ويمكن تلخيصها كلها بصيغة « جنون العظمة » الذي ذاع وانتشر لدى الاسرائيليين وبلغ حداً من الشدة والحدة بحيث أفقدهم ، أو كاد ، القدرة على فهم الواقع المحلي والانساني . ان هذه النزعة العدوانية ، إضافة الى عواملها السيكولوجية ، قد اغتذت بصورة خاصة من عوامل خارجيـــة ، من « تحريض » خارجي على العدوان ، تجلى معاً بصورة مباشرة وغير مباشرة . فما من أحد في الدنيا يجهل أن الولايات المتحدة الامريكية تؤجج بكل السبل والوسائل سلوك العدوان عند اسرائيل ، فهي تغرقها بالسلاح ، بل تعطيها منه أكثر بكثير مما تطلبه هي ؛ وهي تدفعها في كل مناسبة الى اتخاذ المواقف السلبية والرافضة لأي قرار تتخذه الأمم المتحدة بهدف احلال سلام في الشرق الاوسط يقوم على الحق والعدل ، بل هي تدفعها الى أن تتحدى المنظمة الدولية وتتحدى المشاعر الانسانية ، وتستهتر بالرأي العام العالمي ، وتستفز الشعب العربي ، وتتصرف في كل ذلك تصرف المتكبر المتغطرس . ان فعل الولايات المتحدة في إذكاء النزعة العدوانية الاسرائيلية هو فعل « مباشر » ، ولكن حكومات أوربا الغربية عامة قد أسهمت بصورة غير مباشرة ، وفي بعض الأحيان بصورة مباشرة ، في الموضوع ذاته .

ذلك ان السكوت عن نصرة الحق بل والتغاضي عن سلوك المعتدي يشجع هذا على المضي في عدوانه . فمنذ عام ١٩٥٦ ، وربما قبل العدوان الثلاثي الذي وقع على مصر ، كان موقف أوربا الغربية بالاجمال موقفاً سلبياً من قضية الشعب العربي ، وفي الوقت ذاته كان موقفاً مناصراً لاسرائيل . والغريب في الأمر ان حكام أوربا الغربية فرضوا على شعوبهم تقنين المحروقات والمواد البترولية أثناء العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ وقبلوا بتحديات اسرائيل واستفزازاتها دون أن يتخذوا موقفاً ولو شفهياً أو

شكلياً يشجب أعمال اسرائيل العدوانية الصارخة. فلما حدث عدوان ١٩٦٧ بلغ دعم حكومات أوربا الغربية (باستثناء بعضها) لاسرائيل حداً جعل الرأي العام في أوربا يعتبر المعتدي بريئاً والمعتدى عليه جانياً .

بَدَوْنا في نظر الناس الاوروبيين أننا نحن الذين نحـاول الاعتداء على اسرائيل ، وعبئت أجهزة الاعلام الاوروبية ضدنا ، مثلما عبئت للاشادة « ببطولات » اسرائيل . وما كان لذلك كله أن يحدث لولا التوجيه المركز ضدنا من قبل حكام أوروبا الغربية . ومن الراجح ان هـذا الموقف قد تبدل بعد سنة ١٩٦٩ ، حين اخذت أوروبا الغربية تفتح اعينها على واقع اصرار اسرائيل على العدوان والاغتصاب واحتلال الاراضي العربية ورفض أي مسعى لحل سلمي ، بل ورفض قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الصادر في سنة ١٩٦٧ . اقول تبدل موقف اوروبا نسبياً من حيث انها لم تعد تؤيد اسرائيل في موقفها ، ولكن الامور لم تتعد هـذا المستوى في تقديري ، اي ان اوروبا الغربية لم تتمكن حتى الآن من اتخاذ مواقف حازمة تتجلى : في ادانة مكشوفة لاسرائيل واستمرار عدوانها — في تأييد مكشوف لحقوق الشعب العربي — في ضغط حقيقي على اسرائيل والولايات المتحدة لحملها على احترام ابسط قواعد الحق والعدالة .

وظلت فضيلة اوروبا في تأييدها للعرب فضيلة سلبية ، وكان باستطاعتها ان تتحول الى فضيلة ايجابيـة ، لا من أجل الانتصار للعرب ، بل من اجل الانتصار للحق ذاته . وبتعبير آخر ، يمكن القول ان التحريض المباشر وغير المباشر الذي تلقاه اسرائيل لاذكاء نزعاتها العدوانية انما ينطلق من مفاهيم ضيقة وخاطئة جداً ، أسميها مفاهيم « حماية مصالح الغرب » .

ان حكام الغرب بمجموعهم مازالوا يعيشون على فكرة حماية مصالح بلادهم ، دون أن يتعمقوا لحظة واحدة في التفكير أن حماية المصالح الخاصة تتناقض جوهرياً

وحماية السلام ، بل صيانة الحق . ان تعبير « المصالح الخاصة » فيه من البلاغة ما يكفي للدلالة على روح الأنانية وروح الانتهازية والطفيلية التي ما زال يعيش عليها أكثر حكام الغرب وقادته . ليس مطلوباً اليوم حماية المصالح الخاصة لهذا البلد أو ذاك قبل ان تعمل الانسانية كلها على حماية السلام العالمي . وليس ممكناً أبداً حماية هذا السلام دون إقامته على أسس الحق والعدالة . وبالتالي فإن إقرار السلام العالمي يؤدي حكماً الى صيانة المصالح الخاصة لجميع الفرقاء . أما التضحية بالسلام والحق والعدل في سبيل الإبقاء على هذه المصالح فهو بالضبط تغذية للنزعة العدوانية الشريرة التي تتحكم برؤوس قادة اسرائيل وبرؤوس جميع اولئك الذين يدفعون اسرائيل الى المغامرة والى العبث بالسلام ، والى الفتك بالأبرياء ومواصلة الاعتداء على الشعب العربي صاحب الحق الشرعي في ارضه .

ان العرب وهم يحملون اليوم السلاح ليدفعوا عن انفسهم واولادهم الموت والذل ، إنما يفعلون ذلك لا لمجرد حماية ارضهم وابنائهم من احتلال اسرائيلي جديد ، بل يفعلون ذلك في الوقت ذاته لحماية السلام من استمرار العدوان عليه ، ولصيانة الحق من عبث العابثين به . من هنا كانت معركتنا اليوم ، نحن العرب ، معركة من أجل الحق والعدالة والسلام . ومن هنا وجب على جميع حكومات العالم وشعوبه ان تدعمنا في موقفنا بكل ما لديها من وسائل وان تعمل جاهدة معنا ، حتى تبلغ النجاح في إيقاف العدوان الاسرائيلي ، وإقرار السلام الحق . بذلك وحده يتاح للانسانية أن تتطلع الى مستقبل ينعم فيه الانسان بالطمأنينة ، وتنعم فيه الشعوب بالتعاون والتعاضد لخير البشر أجمعين .

المعجزة التي تحققت

ثقة استعيدت ولن تستلب أبداً

د. نجاح العطار

تشكل الحرب العادلة التي تخوضها أمتنا العربية ببسالة نادرة منعطفاً أساسياً في تاريخنا القومي ، فقد أبرزت الوجه النضالي البطولي للعرب في كل أقطارهم ، سواء على جبهات القتال حيث تضرب قواتنا المسلحة أمثلة رائعة للشجاعة والكفاءة العالية ، أو

وراء خطوط المواجهـة ، حيث تتجلى وحدة الصف والارادة والتصميم ، وتتفجر البطولات ارثاً من الأمجاد الانسانية والحضارية التي كانت منذ كنا على وجه الزمن حملة الرسالة وآية الحق ، عملا لها ، ودفاعاً عنها وايماناً بأنها الأعلى والأمكث في الأرض .

وفي بوتقة هـذا النضال العظيم تتكشف الأصالة العربيـة المأثورة ، وتتحرر الارادة التي كانت مغلولة ، ويلتقي الأحرار في مسيرة واحدة ، يحدوها نداء واحد ، وراء هدف واحد .

لقد ضفرت المعـارك الدائرة السواعد والقلوب ، وأزالت الفوارق ، وحطمت الحدود ، وغدت الأرض العربية على امتداد رقعتها ساحة للمناضلين العرب المؤمنين ، توحد بينهم جبهة المواجهة والدم الطاهر الذي يسفك على التربة الطاهرة .

وهكذا تحققت الوحدة العربية التي كانت حلماً ،وامتزجت بالدم ، وتوثقت أخوة النسب بأخوة السلاح ، منذ أن زحفت قواتنـا المسلحة الباسلة الى معارك الشرف ، بعزم كالحديد ، وايمان راسخ ، واجتمع المواطنون على شعار واحد ، تنبض به قلوبهم جميعاً : القتال حتى النصر ، الاستبسال مها كانت التضحية ، فالحياة ليست أغلى أو أعز من الأرض السليبة ، والحق المبا ، والأمم لا تصنع مجدها ومستقبلها بغير الكفاح الشاق الدؤوب لاجلها .

ولئن كنا في غير زمن الاعاجيب ، فان بعض الاحداث تصنع أعجوبتها ، لانها، في الدور العظيم الذي يكون لهـا ، تفعل فعل الاعجوبة ذاتها ، تجعل ما كان في الظن معجزة ، واقعاً محققاً ومدهشاً في الشكل الذي تحقق فيه ، لانه من صنع الانسان ، من معجزة هذا الذي هو سيد المعجزات جميعاً .

وقد تطوى صفحات في التاريخ ، وقد تمحي صور من ذاكرة الحياة ، وتستلب مكاسب كثيرة من الأيدي ،غير ان أحـداً لن يستطيع ، وبأي شكل ، ان يسلبنا هذا الكسب الذي صار لنا ، هذه المعجزة التي حققها انساننا العربي ، هذه الثقة التي استعادها في أيام بعد ان حملت عـلى اضعافها أعوام ، وهذه الجدارة القتالية التي شابتها الشكوك طويلاً ، وعمل الاعداء على ان تشويها طويلاً ، فاذا الشكوك بدد لأنها كانت طلاء والجوهر لا يحجبه الطلاء الا بمقدار ما تحجب غاشية عابرة شمساً ساطعة .

العالم ، وكل شبر يتحرر من أرضنا ، وكل نصر نحرزه ، وكل جرح يرعف ، هو دعم أكيد للكفاح الانساني على دروب التحرير ، يزيد في ميزان القوى المناضلة ، وفي ردع العدوان الآثم ، ويؤكد دور العرب في مناهضة قوى الشر ، والاسهام في أداء رسالتهم الكبيرة ، المؤمنة أبداً بالانسان وحريته وكرامته وسيادته على أرضه .

ان تأييد أحرار العالم لنا ينطوي على قيمته الحقيقية المستمدة من قيمة كفاحنا لأجل القضية العادلة لكل الأحرار وكل الشعوب ، وليس عجيباً اذن أن يكون لانتصارنا على العدوان هذا الصدى ، وأن يكون لحربنا التحريرية هذا التأييد ، وأن تتبدل نظرة المجتمع الدولي الى العرب ، وينهض المنتصرون للحق في كافة انحاء العالم للتعبير عن تعاطفهم معنا ومساندتهم لحربنا المشروعة التي دفعنا الى خوضها بعد أن استنزفنا كثيراً من جهدنا وأعصابنا في المناقشات عبر الأمم المتحدة والمحافل الدولية ، والمصابرة على التعنت ، ومحاولة جعل العدو يرضخ للحق والعدالة بغير حرب أثبتت الأيام أنه لم يكن يعجزنا خوضها ولم نكن لنجبن عنها ولكننا كنا ننتظر ألا نضطر اليها .

ومهما تتصاعد المعارك أو تطل ، فالحق أعلى وأطول . ان صبرنا على الحرب لا حد له ، ما دمنا أصحاب حق نطلبه بها بعد أن يئسنا من طلبه بغيرها ، وليزدد العدو جنوناً وطيشاً فنحن اشد منه على المدى ثباتاً وايماناً ، ما دمنا قد وطنا انفسنا على القتال ، وعلى تحمل تبعات القتال ، وكما أن ثقتنا لا تحد بجبهاتنا على خطوط المواجهة ، فانها ثقة لا تحد بجبهاتنا المنيعة وراءها ، وبطاقاتنا الهائلة على مواجهة الصعاب ، والصمود للشدائد ، وتنظيم الحياة بكافة وجوهها تنظيماً تقتضيه ظروف الحرب ، وقد بدأنا بذلك ، وأحسناه ، وقدمنا الدليل على أننا نطوره ونتقنه أكثر فأكثر .

وبعد . . .

لن نقول لابناء أمتنا اتحدوا ، فقد تحققت هذه الوحدة على أرض الواقع من المحيط الى الخليج .

ولن نقول لهم قاتلوا واستبسلوا ، فقد جاوزوا باستبسالهم حدود الظن في القتال والبسالة .

ولن نقول لهم نحن من ورائكم وفداء لكم ، فهم يعدون ذلك ، لانهم رجالنا وفلذات أكبادنا .

ليتحدث الزند بدل الكلمات ، فالسيف أصدق أنباء ، وسيف الحق أصدق السيوف .

وليتحدث الدم الذي يرسم بنور الشهادة المعطاءة تاريخنا المجيد .

وتحية للأشاوس من قواتنا الضاربة في المعارك .

وتحية للبواسل من أبطالنا المرابطين وراء الخطوط وفي كل الساحات .

وغار النصر إكليلاهم ، وخلوداً لامتهم .

* * *

عبدالوهاب البياتي

القربان

الى بابلو نيرودا

(١)

يسلخ جلد الشاة بعد ذبحها ، لكن جلد ذلك المنتظر ـ الانسان ، قبل ذبحه ، يسلخ في المنازل الأرضية ـ المحاضر السرية ـ الملاجيء ـ المحاكم ـ المصايف ـ المسالخ ـ الشوارع العارية ـ السجون. يشوى في جحيم الكلمات ـ اللغة ـ القوالب الجاهزة ـ القاموس ، يستعير من أوراقه الأجنحة ـ السماء . كان الشعراء يطبخون الموت والطيور في رؤوسهم ، وكنت في الجبال أصطادلك الفراشة ـ الوعل ـ الغزال ـ القمر . المنجمون ازدحموا في مدن الطفولة .البحر على السواحل ـ الممالك ـ الأبواب : هل غيّر وهو صامت : لغته وصوته ؟ والطائر المنحوت في وجهك : هل مزق في الحلم قناع العاشق ؟ الحلاج كان بقميص الدم مشبوحاً على القاموس في عيونه : مدينة أصابها الطاعون . ركعتان في العشق . تعالي . حامل القربان ألقى وردة في النهر . قاتلت مع الاسكندر الاكبر في فارس ، لكني مع المراكب ـ الطيور أبحرت الى زماننا هذا : معي شهادة التطعيم والبطاقة الشخصية . الأنهار كانت ترتدي اكفانها . رأيت « نيرودا » مع الهنود في مذابح « الأنديز » في مطارح القارة حيث الجوع والانجيل والمنشور في الشوارع العارية ـ المسالخ ـ السجون حيث المدفع ـ الدبابة ـ البيان في الاذاعة ـ

الجريدة الصفراء ينهي دورة الفصول ، يلوي عنق الوردة . قاتلت مع الاغريق في مجاهل الشرق وقعت ، وأنا امارس السحر ، أسيراً ، فتعلمت من الأنهار : كيف احمل النار الى زماننا هذا ، واصطاد لك الفراشة ـ الوعل ـ الغزال ـ القمر . المنجمون ازدحموا في مدن الطفولة . الحلاج كان بقميص الدم مصلوباً ، وكان قائد « الزنج » على الفرات ينهي لعبة الخليفة الأبله ، لكن ملوك المال والبترول في « الأنديز » ، حيث الجوع والأنجيل والمنشور ، كانوا يقتلون باسم عجل الذهب ـ الطغاة في كل العصور . حامل القربان ألقى وردة في النهر . قال :

اشتعلي أيتها الأنهار في القارة باسم الفقراء . حامل القربان ، قال : اشتعلي أيتها القارات .

(٢)

لجوهر الحب الذي يكمن في العذاب والابداع لسيدي الشاعر ،لأقول، وهو يرحل : الوداع .

(٣)

اميركا الشعوب والقصيدة ـ العاشقة ـ القربان !

جئناك بالخبز وبالمنشور والسلاح .

(٤)

ماذا أضاف الدم للقاموس ؟ ركعتان في العشق .

رأيت البحر في طفولة الشاعر يستحم في غدائر العاشقة ـ القصيدة ـ القربان...

كان الفقراء ينزفون الدمع في شوارع المدينة العارية . الحلاج قال ساخراً للقاتل المأجور : هل سترفع السوط بوجه الكلمات ـ الجبل ـ القاموس ؟ مولاتي ستبكي ،

عندما يهزمني الخليفة الابله في هذا السباق القذر المجنون في دائرة الضوء . رأيت الشمس في عيونه يصطادها العبيد والمؤرخون : خدم الملوك في مزابل الشرق . رأيت : الدم في شوارع القارة مكتوباً به الانجيل والمنشور ، مطبوعاً به جبين « نيرودا » على طوابع البريد والابواب . كان الفقراء يذرفون الدمع في شوارع المدينة العارية ـ القضبة ـ المحكمة ـ التاريخ . كان الخدم ـ الثعالب ـ السادة في العواصم الكبرى وفي مصانع السلاح والبنوك يغرقون شعباً كادحاً بالدم . كان الجنرال ـ القاتل المأجور وهو خائف ، يذيع ، من دبابة بيانه الاول . ر كعتان في العشق . تعالي . حامل القربان ألقى وردة في النهر . لا أقبل أن اهزم في الحب ولا أقبل أن أساوم الانهار . قاتلت مع الاسكندر الاكبر في فارس ، لكني مع المراكب ـ الطيور أبحرت الى زماننا هذا . وفي العواصم الكبرى : رأيت : الشعراء يطبخون الموت والطيور في رؤوسهم ، وكنت في الجبال أصطاد لك الفراشة ـ الوعل ـ الغزال ـ القمر ـ المنجمون ازدحموا في مدن الطفولة . الاسكندر الاكبر باح لي بسر الوردة الزرقاء . كان « الخضر » في الحاشية الكريـــة . المؤرخون حذفوا اسماء قتلانا . أضافوا بعض اسماء لصوص الخيل . قال خدم الملوك : هل تبيع هذي الوردة الزرقاء ؟ لكني مع المراكب ـ الطيور أبحرت . تعالي . شفتي بملح ميلادك أملحت . رأيت الشمس في عيونهـــا يطفئها : العبيد والمخنثون ، ورأيت الدم في شوارع القـارة . « نيرودا » على خريطة التكوين يستقزيء : أقمار براكين الهنود الحمر غابات من النعاس ، ليل البحر يستلقي على أسرة العمال في مناجم النحاس . كان الجنرال ـ القاتل المأجور ، وهو خائف ، يذيع من دبابة بيانه الاول . ر كعتان في العشق . تعالي . حامل القربان ألقى وردة في النهر . قال : اشتعلي أيتها الانهار في القارة باسم الفقراء . حامل القربان قال : اشتعلي أيتها القارات .

بغداد

أضــواء
على بعض مقومات التصنيع

برهان داغستاني

لا جدال في أن عالم النصف الثـاني من القرن العشرين يبدو لنا ونحن نواجه الربع الاخير منه بانـه منقسم الى قسمين : القسم الاول وهو شمال الكرة الارضيـة ، هو الشعوب المتقدمة نتيجة لتطور الصناعـة فيها ، فنظرة واحدة على خارطة العالم ترينا هذا الحزام الصناعي الهائل الممتد من اليابان فالاتحاد السوفياتي فالقـارة الاوربية ثم الولايات المتحدة الامريكية وكنـدا . ذلك الحزام الذي يلف العالم هو القسم الذي يصنع وينتج كل مايلزم للقسم الثاني وهو جنوب الكرة الارضية شاملاً حوالي ٧٥ بالمئة من

سكان الارض التي تسمى بالشعوب النامية . لقد سقطت التسمية المعروفة بالشرق والغرب واصبحت الشمال والجنوب ، اذ أننا شاهدنا خلال السنوات العشر الماضية تقارباً صناعياً هائلا بين الشرق والغرب ، غايته الاساسية هي الاسراع بالتطور واللحاق بركب الثورة الصناعية الثانية وهي ثورة مابعد العقل الالكتروني (الكومبيوتر) ، واصبحت دول العالم الثاني المسماة خطأ العالم الثالث من الدول التي تستهلك المنتجات المصنعة في دول العالم الاول ، دول شمال الكرة الارضية على حد سواء . ان وضع التفهم والتفاهم الذي بدأ يأخذ ابعاده بين الشرق والغرب يدعونا الى أن ندرك أمراً اساسياً واحداً لامفر منه : ان الاعتماد على تطوير قدراتنا الذاتية قولا وفعلا ، رقماً وحقيقة وليس خطابة ومقالات ، هو السبيل الوحيد لنا ونحن نرى العمالقة الصناعية في العالم تتقارب وتتفاهم وتلهث في البحث عن اسباب استنزاف شعوب العالم الثاني غير المصنع ، وذلك تحت كافة الشعارات وبكل الحجج .

لم أقصد مما قلت أن أقدم بحثاً مفصلا حول هذا الموضوع فهو جدير بأن يكون مواضيع لاطروحات عديدة يقوم طلاب دراساتنا العليا في الجامعات والمعاهد العليا ، بها كجزء من جعل مؤسسات التعليم العالي في قطرنا مؤسسات ذات فائدة كاملة أي ليس فقط منح الشهادات من الليسانس ذات الفروع المختلفة ذات المعلومات المعروفة دون البحث والتجديد . ولعله من المناسب أن أذكر مايلي : دخلت منذ عدة شهور الى مكتبة احدى الجامعات البريطانية الصغيرة والمؤلفة – أي المكتبة – من ستة طوابق تخصص كل طابق في كتب موضوع معين فوجدت في قسم التاريخ مجموعة خاصة بالشرق الأوسط ، وكأي عربي في بلد أجنبي تناولت بعضاً منها ظناً مني أنها ككتب التاريخ العادية . ولشد مادهشت حين وجدت ان الكتب كلها حديثة وما هي إلا أطروحات دكتوراة حول كل بلد من بلدان الشرق الأوسط ، بعضها تم في معهد الدراسات السياسية التابع لجامعة كولومبيا والآخر لجامعة لندن والآخر لبعض الجامعات الالمانية . ومرة أخرى . تحدثت عن هذا الموضوع وليس هو قصدي حسب عنوان هذا البحث الصغير ، وحتى لاأسرح مرة أخرى عن صميم موضوعي هنا فسأدخل فوراً فيه :

لقد أدركت الثورة في قطرنا أن تحرير الارادة الوطنية مرتبط ارتباطاً عضوياً بتوفر الوسائل الحقيقية التي تساعد على استقلال هذه الارادة ؛ أي ببناء القاعدة الاقتصادية السليمة والمتكاملة . ويتأكد ذلك اذا راجعنا حجم التوظيفات المالية التي وضعت من أجل المشاريع الداخلة في قطاعي الصناعة والنفط فقط والتي كانت (٢٦٠) مليون ليرة سورية خلال الخطة الخمسية الأولى

ارتفعت إلى (١٠١٠) مليون ليرة سورية خلال الخطة الخمسية الثانية ثم الى (٢٢٤٠) مليون ليرة سورية خلال الخطة الخمسية الثالثة. ولقد اتيحت لي العديد من الفرص للتعرف على الكثير من مشاريعنا، خرجت منها بمجموعة ملاحظات جعلتني أشعر بأن علينا استكمال مقومات العمل الصناعي. فالأمر ليس بمجرد شراء الآلة أو اقامة البناء وتأمين الجهاز بل هو ببساطة الاستخدام التام والأمثل لآلات المصانع التي نشتريها ولسوف آتي على ذكر بعض هذه المقومات مع ملاحظة أن ترتيبها لايعكس أهميتها :

١ ــ مواصفات المهن :

تنص مبادىء الادارة الاولية، وكافة النظم الصناعية في دول شمال الكرة الارضية المتقدمة على قاعدة منطقية أساسية وهي : وجود مواصفات عمل لكل انسان يوكل اليه القيام بهذا العمل. وتشمل مواصفات المهنة على المعلومات الاساسية التالية :

آ ــ اسم العمل

ب ــ المؤهلات المطلوبة للعمل:

علمية

تدريبية

طريقة الارتقاء والترفيع

حـ ــ وصف كامل لنوعية العمل

د ــ الرئيس المباشر

هـ ــ طبيعة العمل

وهذه المواصفات متوفرة لكل أنواع المهن والاعمال التي يقوم بها أي فرد من الافراد، وفي أي موقع من مواقع المسؤولية، مديراً عاماً، مديراً فنياً، مهندساً، عاملاً ماهراً أو غيره.

ولم تقم عندنا مثل هذه المحاولة الضرورية بعد سوى في بعض المؤسسات التابعة لاتحاد الصناعات الهندسية والكيميائية التابع لوزارة الصناعة، ولم يكن ذلك ليحدث لولا مبادرة فردية نشيطة، بدلاً من ان يكون قاعدة أساسية لكل عمل ولكل مصنع. ولقد يسأل سائل، من سيقوم بهذا العمل الضخم والكبير؟، واستطيع الرد مباشرة بان أقول بانه مركز تطوير الادارة والانتاجية أو ما أحدثته وزارة الصناعة من مؤسسات مماثلة، فاذا اطلعنا على حجم الاموال التي صرفت على هذه المؤسسة في ميزانية وزارة الصناعة وفي برامج معونة الأمم المتحدة لوجدنا بان المردود لا يعادل ما صرف على هذه المؤسسة وتجنباً للاحراج في الارقام، يمكن لأي مهتم بذلك العودة الى نشرات الخطط الخمسية الصادرة من هيئة تخطيط الدولة ومن الموازنات السنوية لوزارة المالية. ولكن من سيطلب ؟ ومن سيحاسب ؟

٣ ـ اعداد دليل المشروع الصناعي :

عند اقامة اي مشروع من المشاريع ، مهما كان صغيراً أو كبيراً ، لا بد من توجيه عدد من الأسئلة الأساسية التي ينبغي الاجابة عنها بصورة كاملة، حتى يعرف بالضبط موقع هذا المشروع في خطة التنمية . ولا بد من التنويه هنا بان المشاريع الصناعية تنقسم الى قسمين :

الأول : مشاريع تمليها ضرورة نهضة القطر ، لا بد من اقامتها بغض النظر عن الربحية الاقتصادية المباشرة لها ، مثل الصناعات الهندسية الثقيلة كالمخارط — ووسائل الانتاج — والجرارات والمحركات .

الثاني : صناعات متوسطة وتحويلية لا بد من ان تكون ذات ربحية اقتصادية . وفي كلا الحالين هناك مجموعة أسئلة كاملة من أجل الاجابة على المعلومات اللازمة لاقامة أي مشروع وهو ما يسمى دليل المشروع الصناعي .

لقد تقدمت الى هيئة تخطيط الدولة مئات الدراسات ، الا أن أحداً في تلك الهيئة لم يكلف نفسه عناء استقراء هذه الدراسات حول اقامة المصانع ليخلص منها الى ضرورة توفر مجموعة معلومات اساسية لكل مشروع . تحتوي مثلاً على :

— عدد العاملين اللازم : اداريون ، حملة شهادات ، فنيون ، عمال مهرة ، عمال نصف مهرة ، عمال عاديون .

— مقدار الطاقة اللازمة : كهربائية بترولية .

— دراسة تسويق المنتجات وتأمين أسواق داخلية وخارجية لها .

ومعلومات اخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا . ان مثل هذا الدليل يقع في نحو ثلاثين صفحة ، وان الالتزام بنموذج منه في وزاراتنا الفنية يوفر الكثير من التصرفات المزاجية ، ويضع المسؤوليات كاملة وواضحة منذ البداية ، بحيث لاتبقى عملية المتابعة مرتبطة بانسان او بآخر او بوجود وزير او غيابه .

ولا بد لي من أن اذكر باني تقدمت للجنة الاقتصادية ابان فترة عمل قضيتها في خدمة رئاسة مجلس الوزراء بمثل هذا المشروع كاملاً ولقي موافقة كاملة ، الا أني لا اعلم اليوم فيما اذا اصبح احدى الكتب التي تطويها هيئة تخطيط الدولة نظراً لما يلقيه عليها من اعباء او يلقيه على غيرها ، ترى هل تعلمنا تلك الهيئة بالنتيجة ؟.

٣ — سياسة التعليم الفني والتدريب المهني

ان نظرة بسيطة وسريعة تكفي للتعرف على الفوضى الموجودة في هذا المجال . فعلى

سبيل المثال لا الحصر : يبلغ عدد المدارس والمعاهد المتوسطة ومراكز التدريب المهني لهذا النوع من التعليم والتدريب اكثر من / ٢٥ / وحدة في القطر ، لا رابط بينها ، لا ناظم لها ، ذات قوانين ولوائح متضاربة، ذات مناهج عجيبة الشأن . ولقد ضمت هذه المدارس والمعاهد والمراكز كافة وبحسب المجموعة الاحصائية حوالي /٢٠/ الف طالب فقط . ويمكنني اعطاء صورة بسيطة عن التضارب الموجود :

— عدلت مناهج دراسة الثانويات الصناعية التابعة لوزارة التربية بحيث أصبحت ذات صبغة عملية تهدف الى تخريج العامل الفني التخصصي ، الا أن التسمية بقيت ذاتها أي ثانوية صناعية يهدف دخول الجامعة والمعاهد فقط وهذا عكس هدف المناهج الموضوعة وعكس الهدف من برامج التصنيع في القطر.

— لم تدرب مراكز التدريب المهني (واحد بدمشق والآخر بحلب) وهي ذات نفس هدف الثانوية الصناعية ، حتى عام ١٩٧٢ سوى (٢٢٠٠) شخصاً منذ انشائها ، وهي تابعة لوزارة الصناعة . على الرغم من أن ماتلقته من معونة هيئة الامم فقط يبلغ (٩) مليون ليرة سورية عدا عما خصص لها في موازنات الدولة السنوية والحسية ، ولا يوجد أي رابط بين هذه المراكز والثانويات الصناعية بعكس مايتوقع وينبغي أن يكون نظراً لتماثل عملها.

ولقد ذكر لي السيد الممثل المقيم لبرنامج التنمية الصناعية التابع لهيئة الامم بدمشق بعد أن زار مركز دمشق بأنه كان يتوقع أن يرى العمل مستمراً على ثلاث ورديات بحيث لاتكاد تتوقف آلة عن التدريب ، بدلاً من أن يعلم من أنها تعمل بضع ساعات في اليوم الواحد خلال ساعات الدوام الرسمي ولعدد قليل من أيام السنة .

— يتم تعيين خريجي بعض المدارس بعد دراسة مدة سنة واحدة بعد الشهادة الاعدادية برواتب أعلى ممن يدرس سنتين بعد الشهادة الثانوية .

إن النقد من أجل مجرد النقد أو ابراز العيوب هو منطق سيء وخاطيء ، وما أريده هنا هو أن أشير الى أمرين :

آ — ان الوضع القائم يشكل أعباء مادية كبيرة نتيجة تعدد المصاريف لنفس الغاية وضآلة المردود نتيجة عدم التنسيق والربط ، أي تبديد الموارد المالية .

ب — تبقى الاحتياجات الحقيقية غير ملباة في قطاعات الصناعة المختلفة . فهل يعقل أن يكون أكثر من نصف عمالنا من الاميين ؟

لايوجد في قطرنا هيئة تقوم فعلياً بالاشراف على التعليم الفني والتدريب المهني ، فلماذا نشتري نفس الاجهزة لعدد من المدارس

والمراكز والمعاهد بأثمان باهظة وتستخدم كلاً منها جزءاً يسيراً من الزمن ؟ لماذا يكون العام الدراسي عندنا من أقصر الاعوام الدراسية في العالم . مثلاً بلغت ايام العام الدراسي ٧٠ـ ١٩٧١ في كلية الهندسة بجامعة دمشق /١٠٤/ يوم فقط بينما هي /٢٢٠/ يوم في الاتحاد السوفييتي و /١٨٠/ يوم في فرنسا و/٢٨٦/ يوم في الولايات المتحدة بعد أن أصبح الفصل الصيفي مستمراً في التدريس .

لا بد من ان نرى عملاً مستمراً في الليل والنهار ، في الصيف والشتاء في :

مراكز التدريب المهني ، الثانويات الصناعية ، المعاهد المتوسطة ، المعاهد العليا ، الجامعات ، وفي المصانع نفسها أي التدريب داخل المصنع. وذلك من اجل رفع المستوى الفني للعاملين ، واستخدام امكانيات هذه المرافق كل ايام السنة بدلاً من مظهر البذخ والهدر والترف الذي نراه هذا .

٤ ـ الاستقرار الوظيفي :

ان عدم الاستقرار الوظيفي داء عضال تشكو منه صناعة القطر في المرحلة الحاضرة ويصعب الحديث عن الاستقرار الوظيفي دون أخذ المؤثرات الاخرى التي أشرت اليها والتي سأشير اليها . فالاستقرار الوظيفي مرتبط بمواصفات المهنة ، بالتدريب ، وبالكفاءة والأهلية. إذ أن آثار عدم الاستقرار الوظيفي سيئة وسلبية على الصناعة . فالآلة لا تعمل الا بالمنطق والحساب . واذا لم تكن هذه صفات من يسيرها فانها ستعكس ذلك مباشرة سواء من الاداريين أو من الفنيين .

٥ ـ توجيه الطلاب منذ المرحلة الاعدادية نحو التعليم الفني والتدريب المهني :

لا بد من اعادة النظر في سلم الحوافز المادية بغية تشجيع الطلاب التوجه نحو التعليم الفني والمهارات الفنية بحيث يعطى العمل المكانة المادية الصحيحة. فهل يعقل أن يكون ٥٠٪ من العمال أميين ؟. وهل يعقل أن يكون عدد طلاب الثانويات الزراعية في القطر في العام الدراسي ٧١ ـ ١٩٧٢ (٩٠٠) فقط بينما بلغ عدد طلاب كليات الزراعة في القطر (٥٠٠٠) ؟. أين هو هرم القوى العاملة ؟ ولماذا يتجه الجميع نحو الشهادات الجامعية ثم الوظائف ؟ ماذا سيحصل لتوظيفات ملايين الليرات في المصانع من جراء ذلك ؟. لا بد من تعديل رواتب ومراتب الوظائف الفنية ـ عامل عادي ، عامل نصف ماهر ، عامل ماهر ، مشرف، مدرب ، مهندس تطبيقي ، مهندس تصميم ، مهندس اداري ، بحيث يكون الشكل فعلاً هرمياً .

٦ ـ المكتبة العربية الفنية والادارية :

تعاني المكتبة العربية الفنية والادارية من

فقر كبير في المراجع والمصادر مما يتنجعنه عدم وصول المعارف الى الفئات الفنية والصناعية المختلفة. وللمواطنين عموماً، وذلك بقصد رفع المستوى العام للمعرفة . فاذا اضفنا لذلك قلة المعرفة باللغات الاجنبية لوجدنا انفسنا امام مشكلة من اهم المشاكل التي حرصت كل دول شمال الكرة الارضية الصناعية على حلها، هذا اذا أضفنا لذلك غلاء اسعار الكتب الاجنبية . ولقد انطلقت الدول الصناعية من مبدأين :

آ ـ يجب ان تتوفر الكتب والمراجع للمواطنين وباكبر قدر ممكن .

ب ـ يجب ان تكون الاسعار معتدلة بحيث تتمكن كافة الفئات من الحصول عليها بسهولة ويسر .

ولقد أصبح أحد مؤشرات مقدار رقي وتطور الامم ، عدد الكتب المطبوعة سنوياً لكل فرد من أفراد تلك الامة أو الشعب . ويجب أن اذكر بالأسف بأننا أميل للثرثرة منا للقراءة ، وكثير من متعلمينا يفضل ان يمضي ساعات مسائه ضائعة سدى مع أقرانه بدلا من رفقة كتاب . وإنه ليحز في النفس أن ندرس في التاريخ أن أمتنا التي ترجمت وهضمت ثم تمثلت وطورت علوم ومعارف كل من سبقها من الأمم والحضارات اصبحت اليوم وبدليل ثقافة ومعرفة الفرد والمواطن العادي في هذا الوضع السيء . ونحن في القطر لدينا فرصة ذهبية ألا وهي وجود هذا العدد الكبير من المؤهلين في مختلف أنواع المعارف من الذين درسوا في مختلف بلدان العالم الشمالي الصناعي المتقدم . ونحن لا نستفيد منهم في الترجمة على الاطلاق ، اللهم ما عدا الجهد المحدود الذي تقوم به الجامعات ووزارة التعليم العالي ووزارة الثقافة مجتمعين ، لماذا لا تقوم في القطر هيئة ترجمة تترجم آلاف الكتب بواسطة عقود خاصة ، بعد أن تعد لها كافة الوزارات والمؤسسات قوائم بما يلزمها من كتب مترجمة ؟

٧ـ برامج تدريب المهندسين بعد التخرج:

يسود الاعتقاد ـ جهلا ـ بأن الحصول على الشهادة هو نهاية الطريق في اكتساب المعرفة ، إلا أنها في الواقع البداية، والبذرة، فاذا لم تتعهد بالمعلومات ، بالقراءة ، بالكتب، بالمسؤولية فانها تتعرض للذبول والتلاشي مع الزمن . كثير من مصانعنا مليئة بل ومتخومة بالمهندسين بسبب غياب الطبقة الفنية المتوسطة مما جعل المهندس عاملا فنياً كثيراً ما يتندر العامل بعدم مهارته اليدوية وهو محق في ذلك .

لماذا لا تقيم كليات الهندسة في القطر دورات تنشيطية تشارك فيها المصانع وتكون لها حوافز مادية ، وهل ما نريده هو الشكل والاسم فقط ؟ أم أن ما نريده هو المضمون والمحتوى ؟ . ان كافة دول نصف الكرة الارضية الشمالي الصناعية تعطي فترة تدريب

تختلف مدتها من سنة الى سنتين بعد التخرج وفق برنامج واضح المعالم والتفاصيل . فما الذي فعلته نقابة المهندسين من أجل ذلك سوى بعض الدورات (حول الأقمار الصناعية وبنشاط ومبادرة أحد الزملاء فقط) ، ثم هل فعلت الوزارات الفنية كوزارة الصناعة والنفط والكهرباء والثروة المعدنية أم أن المسؤولين فيها غارقون في شلال الأعمال اليومية ؟

٨- ربط التعليم العالي الهندسي بالصناعة :

يتم اعداد كافة أعضاء الهيئة التدريسية الهندسية في الجامعات والمعاهد العليا بشكل أكاديمي بحت ، لا يمت للصناعة بصلة ولا للواقع القطر . والطريق الروتيني المعروف هو : البكالوريا ـ ٥ سنوات بكالوريوس أو ماجستير حسب بلد التخرج ـ ٢ سنة للماجستير ـ ٣ سنوات للدكتوراه . كل هذا بعيداً عن المصنع والواقع العملي وخصوصاً في القطر . لهذا نرى اليوم وبالواقع العجز الكامل للكليات الهندسية في القطر (ميكانيك وكهرباء) أن تنتج ولو مشروعاً واحداً له قابلية التنفيذ أو له ارتباط بواقع القطر ، والأدهى من هذا أنه قلما يعرف عضو الهيئة التدريسية شيئاً عن صناعة القطر ومصانعه . فكيف نربط التعليم العالي الهندسي بواقع القطر ؟. لقد ذكرت الترجمة كأحد النشاطات أما النشاطات الأخرى فهي إشراك أعضاء الهيئة التدريسية في المسؤوليات الصناعية ، كأن ينتقل المدرس للعمل في المصنع لمدة سنة واحدة مثلاً ، وبذلك يتعرف المدرس المهندس على صناعة القطر وينقل لطلابه صورة حقيقية عنها ويطور عمله في كليته أو معهده العالي على أساسها وهكذا نبتعد عن مظهر التبذير الأكاديمي الذي نعيش فيه بحيث نكفل عمل كلياتنا على مدار السنة لا أن تكون مركزاً ومرتكزاً للعمل الحر . كما ينبغي اشراك المدرس المهندس بصفة استشارية في المصانع وبحسب الاختصاص لقاء عقود خاصة بذلك .

٩ ـ حسن الاستفادة من الخبراء :

قبل أن أتحدث بهذا الموضوع أود أن أذكر تعريف الخبير استعمله أحد المبعوثين من هيئة الأمم وببساطة ونكتة ، قال ، ان الخبير هو كل انسان يعمل خارج وطنه .

ـ نحن نستقدم الخبراء بطريقتين :

آ ـ عن طريق الامم المتحدة .

ب ـ عن طريق الاتفاقيات الثنائية.

ولا أود هنا أن أقدم دراسة مستفيضة حول هذا الموضوع رغم رغبتي بذلك وعلى الرغم من المتاعب التي تعرضت لها يوم أصررت على بيان الهدر الخفي القائم وذلك برئاسة مجلس الوزراء اثناء تكليفي باعادة النظر ببرنامج المعونة الخمسي الحالي البالغ

/ ٦٠ / مليون ليرة سورية . ولكني سأوضح ما يلي :

آ ـ تقدم لنا الامم المتحدة عن طريق منظماتها المختلفة الخبراء من هنود وباكستانيين وايرانيين وعراقيين واردنيين ولبنانيين ومن دول اوربا الشرقية اخيراً بعد ان تقتطع اجورهم كاملة واجور كافة اعمال السكرتارية اللازمة لاستقدامهم ، واجور السفر والتأمينات العائلية والصحية، تقتطع كل ذلك من معونة القطر من الامم المتحدة. وعند قيامي بالعمل عن قرب في هذا المجال وجدت بان المبلغ المقتطع عن كل خبير نطلبه من الامم المتحدة هو / ٣٠ / ثلاثون ألف دولار سنوياً أي حوالي / ١٣٠ / مئة وثلاثون ألف ليرة سورية . معنى ذلك اننا ندفع هذا المبلغ للخبير بطريقة غير مباشرة من حصتنا من الامم المتحدة ، بينما يبلغ راتب المهندس السوري الذي يجب ان يعمل مع هذا الخبير - إن وجد هذا المهندس - حوالي / ٧٢٠٠ / ليرة سورية سنوياً . وسوف أورد فيما يلي توزيع مثل هذه المعونة لاربعة مشاريع وهذا التوزيع موجود في ملفات هيئة تخطيط الدولة :

كامل المعونة ١٢٫٢٩٩٫٩٨٢ ل.س موزعة كما يلي :

١ ـ اجور خبراء ٧٫٩٨٧٫٢٤٨ ل.س أي ٦٤ ٪ من المعونة

٢ ـ تجهيزات ٢٫٨٧٩٫٠٠٠ ل.س أي ٢٤ ٪ من المعونة

٣ ـ منح تدريبية ٦٨٤٫٠٠٠ ل.س أي ٥٫٥ ٪ من المعونة

٤ ـ نفقات نثرية ٧١٨٫٠٠٠ ل.س أي ٦ ٪ من المعونة

ولا أظن أن بي حاجة للحديث وهذه الارقام بارزة ظاهرة .

ب ـ نستقدم خبراء الاتفاقيات الثنائية من الدول المختلفة ونؤمن لهم بعض المزايا والشروط وذلك كي يكونوا مرتاحين في عملهم ويؤدوه خير اداء . ترى لماذا تكون هذه الشروط لازمة للاجنبي فقط ؟ أوليس المهندس المواطن بحاجة أيضاً الى مثل هذه الشروط أو ما يقاربها حتى يقوم بعمله ؟ أم أن النظرة الشاملة قد ضاعت وسط زحمة النثريات التي تكاد تفرقنا جميعاً ؟

١٠ ـ التنسيق بين متطلبات الدفاع ومتطلبات الصناعة :

لم يحدث في تاريخ الانسانية ان قدمت الامم الضعيفة جيوشاً قوية ، ولقد ثبت دوماً ان قوة الجيوش هي من قوة اقتصاد بلدها،وان قوة الاقتصاد تعتمد اساساً على:

آ ـ الكفاءة الوطنية التي تعيش في مناخ يساعدها على النمو المطرد والاستقرار .

ب ـ الصناعة الوطنية المتطورة .

أي ببساطة الانسان والآلة ومقدار الارتباط بينها . ومن هذا المنطلق وحده لابد من التنسيق بين متطلبات الدفاع ومتطلبات التنمية، واذكر بالخصوص قانون الخدمة الالزامية واسلوب هذه الخدمة الذي لا يتماشى ابداً مع ما يحقق متطلبات التنمية السريعة والملحة ، والذي نرى آثاره السيئة في كل مؤسسة صناعية في القطر ، كما في هجرة الكفاءات احياناً بالنسبة للفئات الجامعية .

١١ ـ تأمين ظروف ومتطلبات العمل المنتج للفنيين .

الكل يعرف مقدار المتطلبات المادية المرهقة للحياة اليومية العادية . وعلينا أن ننظر بطريقة موضوعية لهذا الأمر إذا كنا نريد من الانسان ان يعطي كل جهده الذهني وفكره لعمله وان يكون منصرفاً انصرافاً تاماً للانتاج والابداع . واول ما يدخل في تقديري هنا هو مستوى الرواتب والحوافز المتدني الذي خلق جواً من اللامبالاة وعدم الاكتراث والالتزام بالعمل . ولا أقول بان هذا هو السبب الوحيد بل أحد الاسباب المهمة .

١٢ ـ تعديل نظام عمل المصانع والشركات

نلاحظ عموماً بأن كافة المعادن تظهر صلابة ومتانة ، الا أن مقدار تحملها القوة والاجهاد لا يظهر الا عند التجربة والتعرض للضغوط والقوى . كذلك ادارات وفنيو الشركات والمصانع، كلهم مشتركون بالتسمية، الا انهم لا يتمتعون بالاستقلال الكافي وبالمسؤولية التي تعرضهم لأن يضعوا مفاهيمهم موضع التطبيق بحرية ومرونة أي التجربة المكشوفة . اي بوضوح أكثر لا بد من اعطاء الثقة أولاً ثم المحاسبة بعد ذلك . وهكذا لا تكون المناصب الادارية مناصب استعراضية وموسمية ترتبط بحركات آخرها مصلحة الاستمرار في العمل وهو أهم الأمور . ان هذا أمر يفرضه حرصنا على تقدم صناعة القطر وارساء التقاليد الادارية الصناعية الثابتة فيه .

١٣ ـ التنسيق العربي :

حلم من احلامنا ، قرأنا عنه صغاراً في كتب المدارس ولم نزل الى اليوم بانتظار تحقيقه . فالتكامل العربي أمر نعرفه جيداً الا أننا لا نرى من تنفيذه بصورة جيدة الا القليل ، وسأعطي مثلاً واحداً عن ذلك: مصنع الجرارات بحلب . فلقد شاركت بأول عقد له عام ١٩٦٨ وباستلام وثائقه الفنية في باريس وتورينو . وأثناء كل العمل الذي تم لسنوات بعد ذلك ، لم يتم أي تنسيق مع أي من الأقطار العربية علماً بأن لدى العراق براءة صنع لجرار تشيكوسلوفاكي ولمصر براءة صنع لجرار يوغسلافي هو بالأصل جرار

فوردسون امريكي من النموذج القديم ، ولدى المغرب براءة صنع لجرار فرنسي ، ولدى الجزائر عرض لجرار فيات الايطالي ولقد علمنا بذلك عند زيارة مصنع فيات بايطاليا ، ولدى تركيا براءة صنع جرار ماسي فرغسون الكندي . ولدى ايران براءة صنع جرار انكليزي ، ومع هذا لم يتم الاتصال بدولة واحدة من هذه الدول المجاورة لنا الا بعد تشكيل لجنة الاقلاع من قبل السيد رئيس الجمهورية ، ترى لماذا كانت وزارة النفط نائمة كل هذه السنوات ومن بعدها وزارة الصناعة ؟ وهل من الضروري ان يشرف السيد رئيس الجمهورية على كل صغيرة وكبيرة في القطر حتى تنطلق ؟ نفس الشيء تقريبا حصل لمصنع السماد الآزوتي ولولا اهتمام السيد الرئيس الشخصي لكنا لا نزال نستورد السماد من لبنان الذي بنى منذ فترة طويلة مصنعاً لنفس النوع من السماد .

١٤ ـ الدليل الصناعي

على بساطة هذا الأمر الا انه مفقود . والمقصود بذلك وجود كتاب (مثل دليل الهاتف) عن كل محافظة وعن القطر يشتمل على اسماء المصانع والشركات الموجودة مع لمحة بسيطة عن كل منها فاذا ذهبنا مثلاً الى مدينة حلب من يستطيع أن يعرفنا عن عدد وانواع المصانع الموجودة فيها مهما صغرت أو كبرت . أم اننا سنعتمد مرة أخرى على الرواية والسمع ؟

١٥ ـ المكتبة المركزية الفنية

لو قمنا بحساب بسيط لما تشتريه المصانع والشركات والاتحادات والجامعات والمعاهد العليا والوزارات من كتب فنية وادارية لوجدنا ما يلي :

آ ـ يجب التوسع في الشراء مع حسن التوزيع .

ب ـ يجب تجويد شراء الكتب الفنية أي زيادة الاستفادة منها ، وذلك يعني أنه يوجد أقل عدد من النسخ في المكتبات المختلفة وان تبقى النسخ قيد القراءة كل الوقت .

وهذان الامران يدعواننا الى التفكير بانشاء مكتبة مركزية فنية في كل محافظة يتيسر فيها لكل راغب الحصول على ما يريده من معلومات ، كما تزيد في اطلاعه على كثير من العلوم التي ربما لم يكن ليعرف بوجودها بالاضافة الى الدوريات والنشرات . وهذا يحقق فكرة بسيطة تقول : ليس العلم هو مقدار ما اختزنه في فكري من معلومات ، وانما أن اعرف أين أجد تلك المعرفة اللازمة.

وبعد فان خير ما اختتم به موضوعي البسيط هذا هو قول أحد نواب مجلس العموم البريطاني في احدى محاضراته المناصرة للحق العربي ، اذ قال : ان اسرائيل لاتخشى من حصولكم على أفضل أسلحة العالم وأحدث مصانع الدنيا رغم انها تتظاهر بذلك لالهائكم عن النقطة الحقيقية وهي ما تخشاه لا أنه : ما يمكنكم من حسن استخدام

آلاتكم وأسلحتكم وهو تقدمكم العلمي والعملي. اذ لا يمكن استعمال مواصفات أي جهاز بأفضل من مقدرة الانسان الذي يستعمله.

نحن لا خيار لنا فاما ان نتطور واما ان نتلاشى. ان الدراسات التحسبية المستقبلية التي تجري الآن لمعرفة صورة عالم نهاية القرن العشرين وحتى منتصف القرن الواحد والعشرين تدعو للرهبة لما سيكون عليه وضعنا فيما لو أصبحنا كأشعب نصدق كلامنا والعالم عنا لاه يتقدم ويتطور بالسرعة التي تتعاظم يوماً بعد يوم.

المراجع:

- الخطة الخمسية الثانية.
- الخطة الخمسية الثالثة.
- تقارير التعليم الفني والتدريب المهني برئاسة مجلس الوزراء.
- الموازنات المالية السنوية.
- برنامج معونة هيئة الأمم للخطة الخمسية الثالثة.
- المجموعة الاحصائية ١٩٧١.
- بحوث مؤتمر تطوير التعليم العالي والجامعي.
- التعليم المهني في الدول الغربية - برهان داغستاني.
- الاقتصاد والادارة الصناعية - برهان داغستاني.
- لماذا يهاجر المتعلمون ؟ - برهان داغستاني.
- توصيات مؤتمر تنمية اليد العاملة في العالم باشراف الامم المتحدة المنعقد في أثينا عام ١٩٦٦.
- هرم القوى العاملة اللازم لانجاح برامج التصنيع - برهان داغستاني.

التعليم التقني مستوياته وأسس تطويره

زهير كتبي

التعليم الفني كلمة تستعمل اليوم كاصطلاح يعبر عن إعداد فئة من الناس للحصول على مهارات خاصة في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة.. وهذا الاصطلاح قد يرجع تاريخه الى اكثر من قرن من الزمان. وأحدث من هذا التعبير كلمة «التقني» والعمل التقني

قديم قدم الحضارة الانسانية. واذا كان العقل البشري قد اهتدى الى الحقائق العلمية التي كشفت له مجال الكون من حوله وهيأت له اسباب الحضارة والرقي فان صانع هذه الحضارة هو الانسان العامل التقني الماهر الذي صنع وزرع وتاجر وابدع ، لذلك فان الحضارة الانسانية هي ثمرة العلم والتقنية معاً .

واذا كان التعليم التقني قديماً بمفهومه العام فقد توسعت ميادينه وتعمقت ابعاده وهو يكتسي اليوم ثوباً جديداً ويظهر في المقدمة بعد ان برز التخطيط القومي واعتمد على المفهوم التقني في كل تنمية اقتصادية .

والتعليم التقني هو الموضوع المطروح حالياً أمام التربويين في غالبية دول العالم بصفة عامة وفي الدول السائرة على طريق النمو والتطور ومن بينها الجمهورية العربية السورية بصفة خاصة .

والمشكل الذي يواجه التخطيط التربوي هو اقبال الناس على التعليم العام الاكاديمي وانصرافهم عن التعليم التقني بانواعه ونظرتهم اليه نظرة متدنية احياناً مما سبب نقصاً واضحاً في عدد المتخرجين فيه، وهذه القلة من الخريجين اذا كانت خطيرة النتائج والتأثير في الماضي فهي اليوم أشد خطورة وبخاصة في قطرنا العربي السوري الذي يعتمد حالياً خطة تنمية شاملة لثرواته وموارده. لقد ربط الاقتصاديون بين خطط التنمية وبين اعداد العناصر البشرية اللازمة لتنفيذ هذه الخطط وطالبوا التربويين بالعمل على اعداد هذا العنصر البشري الهام ... بانواعه المختلفة بدءاً من العمال التقنيين المهرة الى التقنيين الى اعلى مستويات التخصص العالي. وهنا تبرز اهمية اجهزة التعليم وبخاصة التقنية منها في تنمية الاقتصاد القومي وفي تأمين دعامته الاساسية في سبيل بناء حياة افضل .

لقد اثبتت تجارب الشعوب المختلفة في سعيها الى تطوير حياتها ان السبق لا يكون للبلاد الكثيرة العدد أو للبلاد الزاخرة بالخيرات بقدر ما يكون لتلك التي امتلكت نظماً تعليمية مرنة ومتطورة واجهزة تربوية خلاقة قادرة على تأمين متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية من الطاقات البشرية بمستوياتها المختلفة وتوجهها للنهوض بالقدرة الانتاجية للفرد في كل ميدان الى اقصى حد ممكن وتطويرها الى الافضل والاكمل وذلك في سبيل رخاء الانسان وتدعيم حقه في الحرية والعلم والعمل والحياة الكريمة .

وسنقدم فيما يلي موجزاً الخطوط العريضة لتخطيط التربوي للتعليم التقني والتوصيات الضرورية لتطويره وفق احدث النظريات العلمية ومقررات المؤتمرات العالمية التي عالجت مشاكله العامة والخاصة .

الاهداف العامة للتعليم التقني :

تنقسم الأهداف العامة للتعليم التقني الى أهداف تربوية عامة تشمل النمو الطبيعي وخصائصه الجسمية والعقلية والاجتماعية والروحية وملاءمته الحياة العملية في البيئة التي يعيش فيها بالاضافة الى ضرورة تأكيد المفاهيم القومية العربية والمبادىء الاشتراكية الصحيحة . وأهداف مهنية وتقنية تشمل اعداد القوى البشرية التي تمثل حاجة ميادين الانتاج المختلفة كما تتناول العمل على رفع مستوى الأداء لدى العاملين في هذه الميادين بالاضافة الى فهم حقوق وواجبات المهنة مع ثقافة عامة مساعدة واستخدام ذلك كله في تنمية الثروة القومية وتطويرها بالبحوث العلمية المختلفة ويمكن تلخيص جميع نقاط الارتكاز السابقة بما يلي :

يهدف التعليم التقني الى اعداد المواطن المنتج القادر على خدمة نفسه ووطنه وذلك عن طريق تزويده بالمهارات والخبرات النظرية والعملية التي تمكنه من المساهمة في تنمية الانتاج وتحسينه وتطويره بالاضافة الى توفير القوى البشرية اللازمة بمستوياتها واختصاصاتها المتعددة .

ان تحقيق الاهداف السابقة يتطلب مايلي :

أولاً : تخطيط وتنسيق وادارة التعليم التقني

اتفقت جميع مقررات وتوصيات المؤتمرات والحلقات الدراسية الداخلية والخارجية على ضرورة توحيد الاشراف على التعليم التقني بحيث تكون السلطة المهيمنة محددة تحديداً واضحاً متسمة بالاستقرار متمتعة بصلاحيات واسعة تسمح لها بحرية الحركة وبخاصة في القضايا المالية لمسايرة التطور العلمي والتقني من جهة كما تسمح لها بتنسيق العمل واستمرارية تلبية حاجة القاعدة الصناعية من جهة ثانية .

وقد اقترح لهذه السلطة صوراً متعددة منها وزارة مستقلة ومؤسسة عامة وهيئة مستقلة ومديرية عامة ... وكلها كانت تتوج بمجلس قومي استشاري على مستوى عال يختص برسم السياسة اللازمة لربط خطط التنمية بخطط التعليم ربطاً يساعد على توفير القوى العاملة المدربة وتعبئتها اللازمة لبرامج التنمية الاقتصادية الهادفة واحاطتها بسياج من الخبرة العلمية والتدريب العملي يكفل حل مشاكلها المتجددة ويعمل على تطويرها نحو مستقبل مشرق . كما يعمل على دراسة وتنسيق التشريعات المتعلقة بالتعليم التقني التي صدرت أو التي يراد استصدارها في المستقبل .

ثانياً : تنظيم مستويات مدارس ومعاهد التعليم التقني :

ان تحقيق اهداف التعليم التقني يستلزم تحديد المستويات التعليمية للمدارس والمعاهد

بما يتلاءم ومستويات العمل الأساسية في القطاعات المنتجة وكما أقرتها المؤتمرات العالمية في توصياتها المختلفة وهي كما يلي :

١ ـ مستوى التعليم للعامل الفني .

٢ ـ مستوى التعليم لمساعد المهندس او المجاز .

٣ ـ مستوى التعليم للمهندس التطبيقي والمهندس النظري او للمجاز عامة .

أما المستوى الاول فهو ينطبق على كل طالب تلقى تدريباً وتأهيلاً علمياً واسعاً لممارسة مهنة ما في مجال معين لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات بعد الدراسة الاعدادية وتمشياً مع اتجاهات التربية الحديثة طبق هذا التعليم في القطر العربي السوري في الاصلاح الأخير الذي لما يصل الى نهاية الطريق بعد وذلك على الطلاب بعد سن الخامسة عشرة حتى يكون الطالب في مستوى اللياقة البدنية والنفسية المطلوبة وعلى قدر من الثقافة والنضج بحيث يستطيع التعرف على رغباته وميوله من جهة وبحيث تتاح له فرص العمل طبقاً للقوانين المعمول بها من جهة ثانية .

أما المستوى الثاني مستوى مساعد المهندس او المجاز فهو ينطبق على كل شخص لديه معرفة علمية وفنية لا تقل مدة دراستها عن خمس سنوات بعد الدراسة الاعدادية وهي تشكل حداً وسطاً بين معلومات العامل الفني ومعلومات المهندس التطبيقي بحيث يمكن تكليفه القيام بمهمات التفتيش والصيانة وتحسين طرق التنفيذ ومراقبة الانتاج وبحيث يكون تعاونه مع المهندس يشكل جزءاً أساسياً من عمله .

أما المستوى الثالث فهو يقتضي اعداداً خاصاً في المستوى الجامعي يشمل فيما يشمل البحوث والتجهيز النهائي للعمل والتصميم والتنظيم والتخطيط والانتاج .

ويمكن ايجاز ميزات هذا التقسيم بما يلي :

آ ـ اوجد طبقة العامل الفني القادر على ممارسة المهنة وفق متطلباتها الحديثة بعد دراسة مدتها ثلاث سنوات .

ب ـ اتاح الفرصة للنخبة التي تتمتع بمواهب عملية جيدة متابعة دراستها سنتين في المعاهد المتوسطة للوصول الى مستوى مساعد المهندس او المجاز .

جـ ـ اتاح الفرصة للنخبة التي تتمتع بمواهب نظرية جيدة متابعة دراستها العملية في المعاهد العالية أو الكليات التطبيقية للوصول الى مستوى المهندس (او المجاز) التطبيقي .

وبصورة عامة راعى التقسيم المذكور القابليات والامكانات الذهنية والمهارات

العملية وتفتحها وتكاملها باتاحة الفرص لتقدمها وارتقائها بالاضافة الى ايجاد المستويات اللازمة للقطاعات الانتاجية من القوى البشرية المختلفة .

وهنا لابد لنا من الوقوف قليلا للاشارة الى موضوع على غاية من الاهمية لم يلق حتى الآن عناية صحيحة هذا الموضوع هو تصنيف المهن حسب واقعنا الاقتصادي وقطاعات الانتاج كافة بالاضافة الى تصنيف المهنة الواحدة حسب مستوياتها العملية وهو أمر بالغ الاهمية كما قلنا لأسباب متعددة أهمها اتاحة الفرصة لمخططي التعليم التقني ليجدوا فيه مرجعاً يعاونهم على وضع المناهج التي تحقق الوصول الى المستويات المنشودة من جهة وحتى تتوحد هذه المستويات فيسهل تبادل الخبرات وتعادل الشهادات الممنوحة من جهة ثانية .

ثالثاً ـ وضع الاسس العامة لمناهج وخطط تدريس التعليم التقني :

يتطلب وضع المناهج والخطط الدرسية دراسة شاملة لحاجات المجتمع وتكاملها فيه من جهة ودراسة لمستوى كل حرفة وما تتطلبه البيئة منها وتأمين حاجات التطور الاقتصادي من جهة ثانية .. وتنقسم اسس وضع المناهج الى عدة اقسام رئيسية :

آ ـ الأسس القومية وتشمل :

ـ وضع المناهج على اساس دراسة واقع القطر في مختلف النواحي الاقتصادية والطبيعية والاجتماعية والنظر الى ذلك كله ضمن اطار واحد من التكامل القطري من جهة والقومي العربي من جهة ثانياً .

ـ العناية بالتراث العربي وبالمصطلحات العربية وبالتاريخ العربي وجغرافيته وتكامل ثرواته الحيوانية والنباتية والبترولية الخ.. والخبرة البشرية فيه .

ب ـ الاسس الاقتصادية وتشمل :

ـ وضع المناهج ضمن التخطيط العام للدولة وفق متطلبات الاقتصاد القطري والقومي على هدى الاحصاءات الدقيقة لواقع قوة العمل وتزايد السكان وعدد الاجانب العاملين الخ .

ـ العناية بالمبادىء الاقتصادية التي تعتنقها الدولة وتطبيقها على جميع مشكلات الانتاج في القطر والتعاون مع بقية الاقطار العربية في استثمار الموارد وتصريفها .

جـ ـ الاسس الاجتماعية والتربوية والنفسية وتشمل :

ـ وضع المناهج على اساس قدرات الطلاب من جهة واحتياجات البيئة من جهة ثانية والتوفيق بينهما .

ـ وضع المناهج على اساس التطورات العملية العالمية واعطاء الناحية التطبيقية الانتاجية أهمية خاصة في المدرسة وخارجها.

ـ وضع المناهج على اساس تلاؤم السلوك الاجتماعي للفرد وتكيفه مع بيئته بالاضافة الى ازالة كل شعور لديه بالاستغلال والاحتكار.

ـ وضع المناهج على اساس مراعاة الفروق الفردية وذلك بتوجيههم نحو العمل المناسب من جهة ورعاية الموهوبين والمتخلفين على السواء من جهة ثانية على أن يسمح للجميع بمتابعة الدراسة والتأهيل الى الحدود التي تقف عندها امكاناته .

ـ وضع المناهج على أساس تنمية حب العمل واحترامه وذلك بالعناية بالتطبيقات الانتاجية المتفرقة في المدرسة والمعمل والمصنع.

ـ وضع المناهج على أسس تميز التقليد عن الفهم والابتكار وذلك بشرح المبادىء العلمية للعملية الانتاجية بدقائقها وتفصيلاتها الفنية .

ـ وضع المناهج على أساس العناية بالتربية الرياضية والصحية وملاءمتها للنمو عامة .

ـ وضع المناهج على أسس تعمق الفكر وتعوده على التفكير المنظم وذلك بتدريبه على استخدام مصادر الابحاث المتعددة والمراجع المختلفة في حل كل جديد من المشاكل والمصاعب التي تعترض طريق التطور والتقدم .

اما الخطط الدرسية فيجب ان تتصف بالمرونة لمسايرة التطورات العلمية الحديثة ومتطلبات الظروف المحلية ويجب الا تقل عن ٤٠ حصة اسبوعياً على ان تتضمن :

آ ـ المواد الثقافية وتشمل المواد الاجتماعية والقومية والانسانية واللغات والرياضة ويجب ان تتناقص تدريجياً خلال مدة الدراسة لتفسح المجال أمام المواد المهنية المتخصصة ويجب الا تزيد نسبتها عن ٥ ـ ١٥٪ من مجموع الساعات .

ب ـ المواد التقنية والعلمية وتشمل العلوم المساعدة والعلوم الاساسية التي تخدم المجال النوعي للتخصص المطلوب ويجب ان تتزايد خلال مدة الدراسة على حساب المواد الثقافية ويمكن ان تتراوح نسبتها من ٢٥ ـ ٤٠٪ من مجموع الساعات .

ج ـ المواد العملية التطبيقية واشغال المعامل وهي تشكل الجزء التطبيقي والأساسي من الخطة الدرسية ويجب الا تقل نسبتها عن ٤٠ ـ ٦٠٪ من مجموع الساعات .

رابعاً ـ اختيار الطلاب وتتبع الخريجين منهم :

ان اختيار الطلاب للتعليم التقني وتشجيعهم وتوجيههم لاختيار احدى المهن امر هام جداً لذلك يجب ان تؤخذ الامور التالية بعين الاعتبار :

آ ـ يجب ان توضع شروط القبول

للمدارس والمعاهد التقنية على شكل قواعد مرنة تأخذ بعين الاعتبار مقدار وحاجة البلاد من الفنيين من جهة ولا تتعارض مع حرية الانتقاء حسب الميول والامكانات من جهة ثانية .

ب – يجب ان يكون واضحاً لكل طالب ان طريق التعلم مفتوح لاعلى الدرجات العلمية لمن يملكون القدرة على التقدم والتعلم ويثبتون ذلك بالاختبارات والفحوص المختلفة .

جـ – يجب ان تشكل هيئة استشارية تقدم الخدمات التوجيهية للجميع بحيث تتيح للطالب عن قناعة اختيار الطريق الذي سيسلكه في المستقبل .

د – من المستحسن اخضاع الطلاب لفترة اختبار شخصي عند الانتساب يدرس خلالها حالة الطالب للكشف عن ميوله ومواهبه قبل ان يبت بالمهنة التي سيختص بها .

اما تتبع الخريجين ومساعدتهم وتأمين العمل لهم فهو على جانب عظيم من الاهمية لدراسة مقدار تلاؤمهم مع الوسط الانتاجي الفعلي والتعرف على آرائهم فيما تعلموه وما ينصحون من أجل زملائهم في المستقبل ويستحسن من اجل ذلك احداث دائرة خاصة للتتبع تقوم بتنظيم ندوات وحلقات لهم واخضاعهم لدراسات احصائية وتقويمية عامة .

خامسة : وضع سياسة انتاجية للمدارس والمعاهد التقنية .

انطلاقاً من ضرورة تخطيط التعليم بحيث يدعم خطط التنمية الاقتصادية بالمستويات المختلفة اللازمة من القوى البشرية من جهة وضرورة تحويل مدارسه ومعاهده التقنية الى مراكز انتاج حقيقية من جهة ثانية ليتلاءم العامل والمساعد والجهاز مع واقع الانتاج ويخفف من تكاليفه العالية من اجل ذلك كله كان لابد من وضع سياسة انتاجية لتمارينه وتدريباته العملية شريطة ألا تخل باكتساب المهارات والخبرات التقنية والتربوية المنشودة بالاضافة الى وضع تنظيم يستنفد طاقة المعامل والورش في المدارس والمعاهد التعليمية التقنية خارج اوقات الدوام الرسمي بقبول الطلبات الخارجية لصنع العدد والادوات والاجهزة واللوازم والقطع التبديلية وكذلك القيام بتأجير خدمات فنية وتقديم مشورات وارشادات متنوعة ودراسات في المجالات التي تعمل فيها .

ان تحقيق السياسة الانتاجية السابقة يستدعي عمليات تموين موحدة لهذه المدارس والمعاهد والمراكز كما يستدعي انشاء مستودعات رئيسية تموّن بموجب مناقصات داخلية وخارجية يعلن عنها عندما يصل المخزون فيها الى حد أدنى مسموح به واستناداً الى

الوقت الذي يتطلبه الشراء بالمناقصات المذكورة .

كذلك يستدعي تحقيق السياسة الانتاجية السابقة تصريف الانتاج بصورة صحيحة تعود بمردود يخفف من عبء موازنة التعليم التقني كما قلنا اذا لم يغطيها بكاملها ، ويجب ان يكون هذا التصريف وفق نظام خاص بمراكز للعرض والبيع تحدث حسب الحاجة في المحافظات المختلفة .

وختاماً ان التقدم جسر دقيق يتخطاه الرواد من البشر يوماً بعد يوم وسنة بعد اخرى ، جسر يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل في وحدة متماسكة وان نجاح الدول في تطورها يتوقف على سهولة عبورها الجسر الحياة وانتقالها من طور الى طور ، كما يتوقف هذا النجاح على ما فعلته الدول في الماضي والحاضر من اعمال مجيدة تسطر بها حروف المستقبل . واذا كانت المشكلات التقنية والاجتماعية والتطورات الحالية مدروسة بعناية على اسس علمية صحيحة امكن بسهولة النفوذ الى احداث المستقبل لان من يلقي الضوء على كل ما يتصل بالحاضر يمكنه ان يرى المستقبل بوضوح وجلاء ... وكما قيل « ما من مستحيل في هذا العالم : فان حلم الامس هو أمل اليوم وحقيقة الغد » .

حول محو الأمية

سميح عيسى

مشكلة الامية من أهم المشكلات التي تواجهها بلادنا العربية ، وقد بذلت هذه البلاد مجهودات كثيرة للقضاء عليها والتخلص منها. وبالرغم من هذه المجهودات فان نسبتها مازالت مرتفعة ولعل نقطة البدء الطبيعية في الحديث عن محو الامية هي تحديد المقصود بالأمي أو المتعلم اذ يتوقف على هذا التحديد تحديد حجم مشكلة الأمية وأبعادها والنشاط القائم من اجل القضاء عليها .. الخ

وهناك عاملان اساسيان يدخلان في تعريف الأمي او المتعلم :

العامل الاول هو العمر ، والعامل الثاني هو مفهوم التعليم ومستواه .

أما من حيث العمر فبعض الدول تعد المواطن أمياً ابتداء من سن الخامسة وبعضها يعده كذلك ابتداء من سن العاشرة .

« أما من حيث مفهوم التعليم فبعض الدول تعرف الامي بأنه المواطن الذي لايعرف القراءة والكتابة واجراء العمليات الحسابية الأربع كتابة .. وهناك بعض الدول التي تعرفه بأنه المواطن الذي لم يكمل اربع سنوات دراسية »[1] .

وحتى الذين يتفقون على تعريف التعليم بأنه معرفة القراءة والكتابة يختلفون حول تحديد درجة هذه المعرفة .. فبعضهم يكتفي بمجرد الالمام بمهارات القراءة والكتابة والحساب ومنهم من يصر على الوصول الى المستوى الذي يمكن المواطن من الاشتراك في ألوان النشاط اللغوي الذي يشترك فيه غالبية المتعلمين ..

ولقد حدد المؤتمر الاقليمي للتخطيط وتنظيم برامج محو الامية في البلاد العربية المنعقد في الاسكندرية في تشرين اول ١٩٦٤ المتعلم بأنه

« ذلك الشخص الذي تعدى سن العاشرة ووصل الى المستوى الذي يمكنه من الاشتراك اشتراكاً فعالاً في مناشط القراءة والكتابة التي يقوم بها جمهور المثقفين في المجتمع الذي يعيش فيه » .

أما قانون محو الامية رقم ٧ الصادر في ٧ / ٣ / ١٩٧٢ في القطر العربي السوري فقد عرّف الأمي بأنه « المواطن الذي تجاوز عمره الثامنة ولا يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية واجراء العمليات الحسابية الأربع كتابة. وغير منتسب الى إحدى المدارس التعليمية . . . » .

---

(١) دليل العمل في محو الأمية – مركز تنمية المجتمع في العالم العربي – سرس الليان ١٩٦٨ .

ومهما تعددت الآراء وتنوعت حول تعريف الأمي أو المتعلم .. فان تعليم الاميين ليس غاية في حد ذاته يراد منه تنوير المواطن الفرد وتزويده بما قد يعوزه من قدرة على كتابة رسالة وحفظ معاملاته واداء واجباته اليومية العادية فقط .. بل هو جزء من التأهيل الكلي للانسان (في كل موقع من مواقع الحياة) أو بمعنى آخر - الوصول بالانسان الأمي الى مستوى المواطنة المستنيرة الصالحة في المجتمع والى المستوى الوظيفي في القراءة والكتابة والحساب ومواد الثقافة العامة المتنوعة بحيث يصبح قادراً علمياً وعملياً على المشاركة الايجابية الفعالة في نشاط المجتمع - « يقرأ الصحيفة والمجلة والكتاب ويحرر الرسائل ويشترك في الندوات والحلقات والمؤتمرات ويتصل بالآخرين من قريب ومن بعيد اتصالاً واعياً نافعاً ويسهم في عمليات البناء والتحرر والتقدم بشكل جاد وفعال » ..

حجم مشكلة الأمية :

لذلك تعتبر مشكلة الامية في العالم وفي وطننا العربي - وقطرنا العربي السوري خاصة مشكلة كبيرة الحجم حيث تشمل الأغلبية العظمى من السكان ..

وتشير الاحصائيات الى أن عدد سكان العالم اليوم يبلغ حوالي ٣٦٤٠٠ مليون نسمة ويزداد هذا العدد بمعدل ٨٠٠٠ نسمة في كل ساعة أي مايعادل ٢٠٠٠٠٠ مولود في كل يوم ويصل العدد الى ٧٠ مليون في السنة ؛ واذا استمرت الزيادة بالنسبة ذاتها فان عدد السكان في العالم سوف يتضاعف في نهاية هذا القرن . وتدل الدراسات على أن هناك حوالي ٨٠٠ مليون أمي من الكبار في العالم وهم يمثلون حوالي ٤٦ في المائة من جملة سكان العالم في سن ١٥ فأكثر :

كما أن تقدير عدد الذين يرتدون الى الأمية (نتيجة لانفصالهم عن الدراسة قبل اتقان القراءة والكتابة) خلال خمس سنوات ١٥٠ مليوناً من الناشئين .

أما بالنسبة الى الوطن العربي فيبلغ عدد السكان فيه ١٠٨،٤٦٤،٠٠٠ نسمة وتتراوح نسبة الأمية بين خمسين في المائة في بعض الأقطار الى تسعين في المائة في أقطار أخرى .. وتشير الاحصائيات ايضاً الى أنها موزعة بين الذكور والاناث وان كانت نسبتها أكثر ارتفاعاً بين الاناث ، وأنها موزعة بين سكان الحضر والريف وان كانت أكثر

ارتفاعاً بين سكان الريف ، كما أنها موزعة بين فئات العمر المختلفة ، وان كانت مركزة في فئات العمر المنتجة من سن ١٥ – ٥٥ . (١)

والى جانب الأميين توجد فئة أخرى لم تبلغ من التعليم القدر الذي يؤهلها لمتابعة القراءة والكتابة والاستفادة بها في الاتصال بمصادر الثقافة والمعرفة للاسهام في بناء المجتمع من ناحية وقضاء شؤون حياتها اليومية من ناحية أخرى وهذه الفئة وان كانت أقل عدداً من الأميين ، الا انها كبيرة الحجم ، تشكل الجزء الأكبر من المتعلمين في بعض الأقطار ، فاذا كانت الأمية في تلك الاقطار حوالي ٧٠٪ فان هذه الفئة تكون حوالي ٢٤٪ من المتعلمين »(٢) .

ولما كانت هذه الفئة تضاف في الاحصاءات عامة الى المتعلمين وهي ليست منهم بل هي في أحسن التقديرات على هامشهم . فان وجودها على ما هي عليه يعتبر مشكلة تضاف الى مشكلة الامية التي تعتبر عقبة كأداء في طريق تحقيق التنمية والتطور والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي .. الخ .

« الجدول التالي رقم ١ يقدم لنا ملخصاً لموقف الأمية في بعض الاقطار العربية وقد بني هذا الملخص على اساس تقديرات مفصلة « احصاءات رسمية – دراسات عينية سكانية » في تلك الاقطار من قبل الجهات الرسمية المعنية في ميدان الدراسات والبحوث الاحصائية .

(١) الدكتور محمود رشدي خاطر ،مشكلة الامية ص ١١ – ١٧ ، مركز سرس الليان ١٩٦٢ .

(٢) مركز تنمية المجتمع في العالم العربي، حقائق ومعلومات: نحو الامية ومستقبل الثقافة ص. ص ١ – ٤ سرس الليان ١٩٦٦ .

الجدول رقم ١

« نسبة الأمية في بعض الاقطار العربية »

مسلسل	القطر	تاريخ الاحصاء	امية الاناث	امية الذكور	النسبة العامة
١	الاردن	١٩٦٢	٨٤٫٨٪	٤٩٫٩٪	٦٧٫٦٪
٢	تونس	١٩٦١	٧٣٫٩٪	٦٣٫٦٪	٦٨٫٧
٣	الجزائر	١٩٦٤	٨٥٪	٧٣٪	٨٠٪
٤	السودان	١٩٥٦	٩٦٪	٧٧٫١٪	٨٦٫٥٪
٥	العراق	١٩٥٧	٩١٫٣٪	٧٢٫٣٪	٨١٫٣٪
٦	السعودية	١٩٥٠	قدرت بين ٩٥ – ٩٦٪ ولا توجد بيانات رسمية		
٧	مصر	١٩٦٠	٨٣٫٥٪	٥٦٫٥٪	٧٠٪
٨	الكويت	١٩٦٦	٦٠٫٣٪	٤٠٫٩٪	٤٧٫١٪
٩	لبنان	١٩٥٩	–	–	١٣٫٩٪
١٠	ليبيا	١٩٦٤	٩٣٫٣٪	٥٧٫٦٪	٧٥٫٥٪
١١	المغرب	١٩٦٠	٩٨٫٦٪	٨٠٫١٪	٨٩

أما بالنسبة الى القطر العربي السوري فيبلغ عدد السكان فيه حسب تعداد عام ١٩٧٠ نحو ٦٠٤٥١ ألف نسمة منهم ٣٠١٤١ ألف نسمة ذكور و ٣٠٣١٠ ألف نسمة أناث أما نسبة الأمية بين مجموع السكان فتبلغ ٥٥٪ كما تبلغ هذه النسبة ٣٦٫٨٪ بين الذكور و ٧٣٫٧٪ بين الاناث ..

وتختلف نسبة الأمية في القطر باختلاف الجنس وفئات السن والانشطة الاقتصادية...الخ. وفيما يلي بعض الاحصاءات الرسمية التي توضح معالم حجم المشكلة ...

الجدول رقم ٢

أولاً ــ نسبة الامية حسب الجنس وفئات السن عام ١٩٧٠

فئات السن	نسبة الأمية بين الذكور	نسبة الامية بين الاناث	نسبة الأمية في الجنسين
١٠ — ١٤	١٦٫٢ ٪	٥٠٫٣ ٪	٣٢٫٣ ٪
١٥ — ١٩	٢٢٫٢	٦١٫٣	٤١٫٣
٢٠ — ٢٤	٢٤٫٧	٦٧٫٠	٤٥٫٢
٢٥ — ٢٩	٢٧٫٩	٧٤٫٠	٥١٫٩
٣٠ — ٣٤	٣٤٫٥	٨٠٫٩	٥٨٫٣
٣٥ — ٣٩	٤٤٫٤	٨٦٫٣	٦٥٫٣
٤٠ — ٤٤	٦٧٫٦	٩١٫٤	٧٨٫٧
٤٥ — ٤٩	٥١٫٠	٩٠٫١	٦٩٫٤
٥٠ — ٥٤	٥٩٫٧	٩٣٫٠	٧٥٫٦
٥٥ — ٥٩	٦٣٫٣	٩٣٫٩	٧٧٫٧
٦٠ — ٦٤	٧٣٫٣	٩٦٫٠	٨٤٫٨
٦٥ — ٦٩	٧٤٫٢	٩٦٫١	٨٥٫٢
٧٩ — ٧٤	٧٦٫٧	٩٧٫٢	٨٧٫٠
٧٥ فأكثر	٧٩٫٣	٩٨٫٢	٨٨٫٦

ويلاحظ من هذا الجدول بكل وضوح أن نسبة الأمية تنخفض كلما كانت الفئة المدروسة من عمر أصغر وهذا يعود الى الازدياد المستمر في نسبة من يقبلون في المدارس من هم في سن التعليم الالزامي .

كما يلاحظ أن نسبة الأمية بين الاناث ترتفع أكثر عن نسبة الأمية بين الذكور وهذا يعود لأسباب كثيرة من أهمها الظروف الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية للمواطن والأسرة والمجتمع بالاضافة الى بعض التقاليد والأعراف والمفاهيم البالية والى تركيز الجهود في سنوات التخلف القديمة على حرمان المرأة من كافة الحقوق (حق التعلم ــ حق الانتخاب ــ حق الترشيح الخ ..) .

كما لا يستلب قلت ؟ وأؤكد . ان ثقتنا الكبيرة التي بعثتها وقائعنا هي كسبنا، وهذه الثقة ذات اضافات ، ومن اضافاتها للآتي سيكون النصر ،ومنه سيكون الاستمرار لكل نصر ، دفاعاً عن حق ، وبناء لحق ، وانجازات للحضارة والتقدم ، والسلام العالمي القائم على العدل .

ولقد وقفت ، قبل السادس من تشرين بأيام،في حفل لمجد الكلمة ، ولتكريم مبدعها، فقلت اننا كنا شهوداً على التاريخ فصار التاريخ شاهداً علينا . وها نحن ، في معجزة هذه الأيام القليلة ، نعود شهوداً على التاريخ ، نصنعه ، نبدعه، ننسجه بعصب الكفاح ، ونعطره بدم الشهداء ، ونقدم مايطلب ، وفوق ما يطلب من قرابين التضحيات .

عدنا شهوداً على التاريخ ،لأننا في الشهادة ، لمحبها المقدس ولدنا ، كأنما ،ولادة جديدة . استعر الغضب للحق في عروقنا ، وتفجر حمماً على أعدائنا ، وتجددت الحياة ، أو تبدلت تبديلاً ، وتجذرت في الصدور ارادة القتال والتحرير ، ارادة الكرامة والرجولة ، وبدأنا نجني ثمرات هذا الاجماع الوحدوي نصراً وراء نصر ، ومواقع تسترد بعد مواقع ، والصامدون البواسل تخفق مع قلوبهم ملايين القلوب ، لهفة وحماسة ، وأملا يولد الامل ، ويلبث من التصميم تصميماً .

ان الدماء العربية الزكية التي تسقي الثرى الطاهر من وطننا هي فدية العطاء لأجل البقاء ، وان صيحات الشهادة أو النصر التي تهدر في كل أرجاء وطننا ، وتزمجر في معاركنا وأجوائنا ، وتحمل الى العالم أنباء انتصاراتنا ، سيحفظها الأثير الذي يحملها ، ويضمها الى الصيحات المماثلة التي حملها وأبلغها ودونها على ورق لا يبلى ...

واذا كانت المعارك التي جرت منذ بدء القتال قد جلبت لنا تعاطف العالم واحترامه معاً ، وانتزعت للانسان العربي الاعتراف بجدارته ، والاشادة بكفاءته ، فلأن هذا الانسان ، بالمعجزة التي صنعها ، قد حطم خرافة القوة الاسرائيلية ، وهشم اسطورة تفوقها ، ولسوف تقنع المعارك الدائرة والقادمة ، العالم كله ، بأن الأمة العربية قادرة بعزمها وتصميمها وارادتها الفولاذية على صنع مآثر وبطولات جديدة وفيرة لها ولجميع الشعوب على السواء .

لهذا فان هذه المعارك القتالية المظفرة تتجاوز معناها القومي الى المعنى الانساني وتضع العرب في مكانهم الطليعي من كفاح حركات التحرر الباسلة التي تخوضها شعوب

الجدول رقم ٣

توزيع الاميين حسب النشاط الاقتصادي والمحافظة والجنس

المحافظة والجنس		النشاط الاقتصادي							
		الزراعة	الصناعة	التشييد والبناء	التجارة	النقل و المواصلات	الخدمات	متعطلون	المجموع
مدينة دمشق	ذكور	٣٥٧١	١٠٧٣٤	٤١٥٠	٨٠٦٢	٢٠١٩	٦٤٩٣	١٢٨٦	٣٦٣١٥
	أناث	١٣٥	١٠٧٧	٣	٨٤	٦	٢٤٩٦	١٨٣	٣٩٨٤
	مجموع	٣٧٠٦	١١٨١١	٤١٥٣	٨١٤٦	٢٠٢٥	٨٩٨٩	١٤٦٦	٤٠٢٩٩
محافظة دمشق	ذكور	٢٧٠٠٠	٥٥٦١	٤٥٦٧	٣٢٠٥	١١٢٠	٢٧٩٠	١٥٤٥	٤٦٦٨٨
	أناث	٢٠٦٠	٧٤٤	١٥	٤٩	٣	٤٣٣	٢٤٧	٣٥٥١
	مجموع	٢٩٠٦٠	٦٣٠٥	٥٤٨٢	٣٢٥٤	١١٢٣	٣٣٢٣	١٧٩٢	٥٠٢٣٩
طرطوس	ذكور	١٣٣٠١	٧٠٢	١٧٨٦	٨٨٣	١٠٦٧	٦٧١	٤٨٩	١٨٨٩٩
	أناث	٦٦٢٩	٦٧٠	٢١	١٤٦	١	٤٣٣	٤٨٦	٨٣٧٦
	مجموع	١٩٩٣٠	١٣٧٢	١٨٠٧	١٠٢٩	١٠٦٨	١٠٩٤	٩٧٥	٢٧٢٧٥
اللاذقية	ذكور	١٨٥٣٦	٢٥٥٩	٢١٨٧	٢٦٣٩	٢٢٤٤	١٨٩٠	٦٥٤	٣٠٧٠٩
	أناث	٩٩٤٢	٢٥٥٤	٢٩	٨٩	١٠	٥٥٢	٤٤٥	١٣٦٢١
	مجموع	٢٨٤٧٨	٥١١٣	٢٢١٦	٢٧٢٨	٢٢٥٤	٢٤٤٢	١٠٩٩	٤٤٣٣٠
السويداء	ذكور	٦٩٠٥	١٩٢	١٣٧٢	٢٣٢	٥٢	٢٤٦	١٩٧	٩١٩٦
	أناث	١٠٧٢	٢٠٢	—	٤	١	٨٦	٣١	١٣٩٦
	مجموع	٧٩٧٧	٣٩٤	١٣٧٢	٢٣٦	٥٣	٣٣٢	٢٢٨	١٠٥٩٢
درعا	ذكور	١٢٦٧٣	٥٦٦	١٨٩٧	٧٤٢	١٦٧	١٨٥٨	٤٨٣	١٨٣٨٦
	أناث	١٧٥٧	١١١	٢٨	١٠	—	٤٢	٦٦	٢٠١٤
	مجموع	١٤٤٣٠	٦٧٧	١٩٢٥	٧٥٢	١٦٧	١٩٠٠	٥٤٩	٢٠٤٠٠
الحسكة	ذكور	٥٩٤٨٠	٢٦١٣	٣٤٦٢	٢٤٦٩	٨٦٠	٢٧٢٦	٦٤٧٢	٧٩٠٨٢
	أناث	٦٨٧٥	٣١٨	٤٣	٦٦	—	٣٠٢	٦٤١	٨٢٤٥
	مجموع	٦٦٣٥٥	٢٩٣١	٣٥٠٥	٣٥٣٥	٨٦٠	٣٠٢٨	٧١١٣	٨٧٣٢٧
القنيطرة	ذكور	١٧٦٣	٢١	٣٢٥	٥٣	٤	٣٠	١٣١	٢٣٢٧
	أناث	٤٢	١١	١	١	—	١	—	٥٦
	مجموع	١٨٠٥	٣٢	٣٢٦	٥٤	٤	٣١	١٣١	٢٣٨٣

تابع الجدول رقم (٣)

المحافظة والجنس		الزراعة	الصناعة	التشييد والبناء	التجارة	النقل و المواصلات	الخدمات	متعطلون	المجموع
		النشاط الاقتصادي							
حمص	ذكور	٢٠٥٠٣	٣٦١٠	٤٩٨٢	٢٨٦٤	١٥٣٠	٢٤٠٦	١٠٢٠	٣٦٩١٥
	اناث	٩٩٣٧	١٤٧٠	٧٧	٩١	١	٥٣٧	٥٤٣	١٢٦٥٦
	مجموع	٣٠٤٤٠	٥٠٨٠	٥٠٥٩	٢٩٥٥	١٥٣١	٢٩٤٣	١٥٦٣	٤٩٥٧١
ادلب	ذكور	٣٠١٢٠	٣٣٣٤	٣٩٠١	٢٨٢٨	٨٠٠	١٨٣٥	٩٣١	٤٣٧٤٩
	اناث	٥٩٨٥	١٤٠٠	١٧	٣٤	—	١٦٩	٩٩	٧٧٠٤
	مجموع	٣٦١٠٥	٤٧٣٤	٣٩١٨	٢٨٦٢	٨٠٠	٢٠٠٤	١٠٣٠	٥١٤٥٣
دير الزور	ذكور	٣٢٦٣٢	١٠٣٣	١٥٣٩	١٥٥٧	٩٤١	١٥١١	١٠٠٩	٤٠٢٢٢
	اناث	٥١٩٤	٢٧٥	١٨	٥٣	١	٩٤	٧٤	٥٧٠٩
	مجموع	٣٧٨٣٦	١٣٠٨	١٥٥٧	١٦١٠	٩٤٢	١٦٠٥	١٠٨٣	٤٥٩٣١
حلب	ذكور	٨٩٤٢٧	٢٥٠٩٦	١٠١٠٩	١٥٨٤٧	٥٢٠٧	١١٩٠٩	٥٧١٤	١٦٣٣٠٩
	اناث	٢١٥٣٣	٣٥٠٧	٧٨	٢٦٦	١	١٦٧٣	٥٩٢	٢٧٦٥٠
	مجموع	١١٠٩٦٠	٢٨٦٠٣	١٠١٨٧	١٦١١٣	٥٢٠٨	١٣٥٨٢	٦٣٠٦	١٩٠٩٥٩
الرقة	ذكور	٣٥٦١٧	٧٧٦	٣٦٠٠	١٦٠٩	٥١٨	١٠٩٨	٧٢٣	٤٣٩٤١
	اناث	١١٢٤٨	٢٤٦	١٣	١٥	—	٤٤	١٠٨	١١٦٧٤
	مجموع	٤٦٨٦٥	١٠٢٢	٣٦١٣	١٦٢٤	٥١٨	١١٤٣	٨٣١	٥٥٦١٥
حماه	ذكور	٣٤١٤٥	٢٨١٥	٢٤١١	٢٣١١	٧٤٠	١٩٢٤	٧٥٢	٤٥٠٩٨
	اناث	٢٠٠٥١	٧٣٦	٩١	٥٣	٢	٢٨٤	٢٢٦	٣١٤٤٣
	مجموع	٥٤١٩٦	٣٥٥١	٢٥٠٢	٢٣٦٤	٧٤٢	٣٢٠٨	٩٧٨	٦٦٥٤١
المجموع العام		٤٨٨١٣٣	٧٢٩٣٣	٤٧٦٢٢	٤٧٣٦٢	١٧٢٩٥	٤٤٥٠٢٣	٢٥١٤٧	٧٤٢٩١٥

ملاحظة : ان البيانات المذكورة أعلاه معتمدة من المكتب المركزي للاحصاء بدمشق وعلى ضوء نتائج التعداد العام للسكان الذي نفذ خلال عام ١٩٧٠ .

ويلاحظ في الجدول رقم ٣ ومن الاحصاءات الرسمية المتوافرة التالي :

آ - ان عدد الأميين في كل محافظة من المحافظات المذكورة يشكل نسبة عالية في بعض القطاعات (كالقطاع الزراعي والقطاع الصناعي) عن بقية القطاعات الأخرى..

ب - ارتفاع نسبة الأمية في بعض المحافظات حسب النشاط الاقتصادي والجنس فتبلغ أحياناً : ٧٢٪ .

ج - ارتفاع نسبة الأمية حسب الجنس في بعض القطاعات حيث تبلغ أحياناً بين الاناث في بعض المحافظات وفي القطاع الزراعي حوالي ٩٨،٠٩٪ .

وخلاصة القول ان مشكلة الأمية في وطننا العربي عامة وفي قطرنا العربي السوري خاصة هي مشكلة الأغلبية العظمى من السكان وانها منتشرة بين جميع فئات العمر من الجنسين ريفاً وحضراً ...

علاقة الأمية بالمشكلات الأخرى (الاقتصادية - الاجتماعية ... الخ) :

ومشكلة الأمية ليست مشكلة كبيرة فحسب بل هي أيضاً مشكلة معقدة ترتبط بكثير من المشكلات التي يعانيها وطننا العربي وقطرنا العربي السوري تؤثر فيها وتتأثر بها ..

فالأمية عبودية الفكر وحرمان الفرد والمجتمع من أبسط الحقوق وعقبة كأداء في طريق تحقيق التنمية والتطور والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي... لماذا ؟. لأن الأمية ترتبط ارتباطاً حقيقياً بالتنمية ، وفي هذا المجال يتفق علماء الاقتصاد والاجتماع بأن عملية التنمية ترتكز على التفاعل القائم بين القوى البشرية والخصائص الثقافية والموارد الطبيعية السائدة والمتوافرة في كل مجتمع .

ومعنى التنمية الحقيقي هو تغيير وتبديل أنماط الحياة (وهي متعددة ومتشعبة) الى أنماط جديدة ، ونمط الحياة هو مفهوم نسبي متصل بالنظم الاجتماعية والاقتصادية بما فيها من القيم السائدة - وتختلف أنماط الحياة من مجتمع لآخر وتصبح أهداف التنمية مرتبطة بمفاهيم النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

وان من أهم مقومات أية دولة هي المقومات البشرية وان الهدف السامي هو تطور الفرد وتطوير العمل المنتج وتوافر الجماهير المستنيرة . والتطور والتنمية البشرية كما

المفتاح لأنواع أخرى من مجالات التنمية وان العنصر الأساسي للتنمية البشرية هو التعلم بمختلف انواعه ومستوياته .

ويسير التطور العلمي والتكنولوجي بسرعة فائقة لدرجة أنه أصبح من الضروري ايجاد أساليب جديدة ومناهج متطورة في حقل التعليم والتدريب الأكاديمي والمهني والفني ولامجال في المجتمعات الآخذة بالنمو للاكتفاء بالمستويات المحدودة من التعليم – خاصة بعد أن أدركت تلك المجتمعات (وعلى ضوء تجارب الدول المتقدمة)أن نقص المال لم يعد هو العائق الوحيد لتقدمها وظهر هنالك عائق أهم وأخطر وهو نقص رأس المال البشري المؤهل والمتعلم بل مشكلة الأمية بضخامتها وأبعادها الكاملة التي تمتد جذورها الى معالم حياة المجتمع المتطلع نحو تحقيق أهدافه الكبرى في كافة المجالات...

– فمشاريع التطوير الصناعي والزراعي ومشاريع التطوير الاقتصادي جملة تندمج كلياً في الحقيقة مع مشاريع تطوير المؤسسات الاجتماعية .. انها مشاريع لاتفصل بينها حدود .. مشاريع متكاملة لابد من أن تسير معاً حتى يكتب لها النجاح فتنعش الاقتصاد بما فيه من صناعة وتجارة وسياحة وتنعش الانسان فتوقظ ما أغفى في كوامن نفسه وتبعث نشاطه الحي للاسهام في بناء المجتمع وتطوره وتقدمه . اذن فمشكلة الأمية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمشكلات الاقتصادية ، اذ دلت الأبحاث التي أجريت في كثير من الدول على أن انخفاض نسبة التعليم في بلد من البلاد يصاحبه انخفاض في الدخل القومي ..

لذا فان نسبة مستوى الدخل القومي تتناسب طردياً مع نسبة التعلم ففي الدول التي يزيد فيها الدخل القومي الفردي على مايعادل ٥٠٠ دولار تبلغ فيه نسبة المتعلمين الى ٩٠٪ على حين أن الدخل القومي الفردي السنوي في دولة تبلغ فيه نسبة المتعلمين فقط ٤٠٪ يعادل ١٢١ دولار وذلك ناتج عن عدم الاستفادة من الموارد المادية والبشرية ...

« وتدل هذه البحوث أيضاً على أن انخفاض نسبة الأمية في دولة ما يصاحبه توزيع متقارب للدخل بين السكان هذا اذا أخذنا الدخل القومي مقياسا للحالة الاقتصادية، أما اذا أخذنا انتشار الصناعة مقياساً لتلك الحالة فان الدراسة المقارنة للدول المختلفة في الوقت الحاضر تدل على أن نسبة التعليم تكون مرتفعة في الدول التي وصلت الى درجة

كبيرة في التصنيع ، وأنها تكون منخفضة في الدول التي تسودها الزراعةوالرعي»(١)

كذلك يدل التتبع التاريخي للدول التي بلغت شأواً كبيراً في الصناعة على أن انتشار الأمية يتناسب تناسباً طردياً مع انتشار الزراعة وعكسياً مع انتشارالصناعة ونمو المدن . . فاذا أخذنا الطرف الآخر من العلاقة فاننا نجد أن التخلف الاقتصادي وقلة الانتاج يؤديان الى تقليل الأموال التي تنفق على التعليم كما ينتج عنها انصراف الناس الى السعي لتحصيل لقمة العيش فلايجدون الوقت الفائض للتعلم . .

وايضاً ترتبط الأمية بالمشكلة الصحية . .

فالنظرة البسيطة الى توزيع نسب الأمية ونسب الوفيات في أنحاء العالم تدل على أن المناطق التي تنتشر فيها الأمية هي المناطق التي ترتفع فيها نسبة الوفيات ، وأن المناطق التي تنخفض فيها نسبة الأمية هي المناطق التي تنخفض فيها نسبةالوفيات.

والأمية مرتبطة أيضاً بمشكلة تزايد السكان . .

فيدل البحث الاحصائي على أن المناطق التي تنخفض فيها نسبة التعليم ويهبط المستوى الصحي والاقتصادي تكون نسبة المواليد فيها مرتفعة نسبياً .. وان المناطق التي ترتفع فيها نسبة التعليم ويرتفع المستوى الصحي والاقتصادي تكون نسبةالمواليد فيها منخفضة نسبياً ، كذلك كشف البحث عن أن هذه الظاهرة موجودة أيضاً في المجتمع الواحد ...

وربما بالملاحظة العادية واليومية يتأكد لنا حقيقة ذلك ...

كذلك ترتبط الأمية بمشكلة أخرى على درجة من الأهمية خاصة في وطننا العربي وهي مشكلة البدو الرحل فهناك جزء كبير من الوطن صحراء أو مراع يسكنها البدو الرحل .. وهؤلاء البدو لايكاد يخلو منهم قطر عربي وهم في ارتحالهم لايقتصرون على الانتقال من مكان الى آخر داخل القطر الواحد يرحلون من قطر الى قطر .. لذا فمشكلتهم بكل جوانبها تضاف الى مشكلة الامية وأبعادها . .

من كل ذلك بدت مشكلة الأمية مشكلة معقدة وتجلت كأكبر عائق لكل أنواع

---

(١) ـ مركز تنمية المجتمع في العالم العربي « وكيل العمل في محو الأمية » سرس الليان ١٩٦٨ .

التقدم وبدا محوها لاكشرط من شروط المواطنة الصالحة ولا كحق من حقوق الانسان فحسب بل كأحد عوامل التنمية المختلفة التي تسهم في الانتاج القومي البعيد المدى وفي التقدم الاجتماعي والسياسي .

– فاذا ما أدركنا اليوم وعلى ضوء الاحصاءات المذكورة سابقاً أن أكثر من نصف سكان مجتمعنا العربي عامة وقطرنا العربي السوري خاصة أميون يجهلون القراءة والكتابة ويفقدون وسائل الاتصال بالوسط الذي يعيشون فيه.ولو تبينا ما يؤدي اليه ذلك من خطورة لعلمنا أن مجتمعنا العربي بل وقطرنا العربي السوري لن يتمكن من تحديد واقعه وتحقيق أهدافه وتطلعاته الكاملة الا بوضعه خارج مدار الأمية ..

اذ أنه ليس مقبولاً بأي شكل من الاشكال في عصر التقدم التكنولوجي الهائل وفي عصر هبوط الانسان على سطح القمر أن يكون هنالك ٥٥٪ من مجموع سكان القطر العربي السوري أميون يفقدون وسائل الاتصال والمعرفة ..

ولكي نبين أهمية محو الامية في قطرنا العربي السوري (وفي هذه المرحلة بالذات) لابد من ذكر الحقائق التالية :

أهمية القضاء على الأمية في القطر العربي السوري :

يمر قطرنا العربي السوري بفترة تحول كبير في اقتصادياته وذلك من خلال تبنيه النظام الاشتراكي الذي يوفر للمواطن الحياة الحرة الكريمة ويرفع من سويته المعيشية ويحقق له المساواة مع الآخرين في كل الحقوق وفي سبيل تحقيق ذلك عمد القطر الى الأخذ بالاساليب والطرق الحديثة في القطاع الزراعي كما وجه عناية الى القطاع الصناعي وتتمثل في دعم وتطوير الصناعات القائمة فيه واستحداث صناعات جديدة ...

والهدف الرئيسي من كل مشاريع التنمية الاقتصادية هو زيادة الانتاج كماً ونوعاً، وزيادة الانتاج (كما ذكرنا آنفاً) لا يمكن ان تحدث في أي قطاع من القطاعات الا اذا كانت القوى البشرية القائمة على الانتاج قوى متعلمه – فتجارب الأمم الأخرى دلت بصورة قاطعة على ان العامل الأمي سواء كان عاملاً زراعياً أم صناعياً لا يمكن تحسين انتاجه الا الى حد ضئيل وان زيادة الانتاج ذات علاقة موجبة مع زيادة التعليم - .

ففي الاتحاد السوفييتي مثلاً ظهر نتيجة الدراسات والبحوث التي أجريت لتقويم تأثير التعليم على الانتاج – أن التعليم البسيط الذي حصل عليه العامل في سنة

واحدة الى جانب التدريب زاد من الناتجية عنه بنسبة ٣٠٪ في حين لم ترتفع الناتجية ومهارة العامل الامي الذي اكتفى بالتدريب دون التعلم الا بحوالي ١٦٪ .

من هنا نجد أن محو الامية وتعليم الكبار في قطرنا العربي السوري وسيلة فعالة في التنمية الاقتصادية سواء التنمية الزراعية أم الصناعية وذلك أن العمل في مجال الزراعة أم الصناعة يتطلب معرفة وفهماً لطبيعة الآلات وطرق استخدامها وصيانتها. الخ ومهارات القراءة والكتابة والحساب مهارات ضرورية للمواطن في أي موقع من مواقع العمل في الحياة .

وبطبيعة الحال لايمكن أن تتحقق التنمية الاقتصادية وتحقق أهدافها الكاملة الا اذا كانت هناك تنمية اجتماعية كاملة ... لماذا ؟!

لاشك أن الانسان هو رأس مال الحياة .. ومكانة الامي الاجتماعية في مجتمعنا المتطور آخذة في التضاؤل تدريجياً أمام المتعلم ..

ومما لاشك فيه ايضاً أن جميع عمليات التنمية الاجتماعية هي عمليات تغير حضاري ، فهي الى جانب كونها وسائل مادية وتكنولوجية ولكنها موضوع انساني في الدرجة الاولى . ذلك أن الانسان هو غايتها وهو وسيلتها الاولى كذلك وهذا يشكل قوتها وضعفها على السواء لانها لاتخضع لكافة الظروف التي يتم فيها التغير والنتائج المترتبة عليه .

وان ارتباط محو الامية في أي مجتمع يرتكز على عدة عوامل ومؤثرات منها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ففي المجتمعات التي تكون فيها نسبة الامية عالية نجد أن سلوك الافراد مرتبط بالتقاليد وتكون آفاق تفكيرهم محدودة في اطار الجماعات التي ينتمون اليها ويكون التقدم والتطور بطيئاً مما يؤدي بالتالي الى مقاومة التغير بشدة خاصة وان برامج التنمية تتضمن احداث تغييرات ليس في نطاق العمل فحسب بل في مضمون الحياة الاسرية والاجتماعية والاقتصادية .

ولقد اثبتت الدراسات أن الفرد الذي يعيش في المجتمع المتحضر يصل اليه قدر من المعلومات يزيد مائة مرة عن الشخص في المجتمع الآخذ في النمو وبالتالي فانه يكون أكثر تفاعلاً من الامي في برامج التنمية كما أن هناك ارتباطاً طردياً بين الامية من ناحية وبين دخل الفرد وتقبل المعلومات والاشتراك في تحمل المسؤولية والوعي السياسي .

وكلنا يعلم أن مجتمعنا وخاصة في المدن قد أصبح مجتمعاً يعتمد اعتماداً كبيراً

على الرموز المكتوبة سواء أكانت كلمات أم أرقاماً (يتجلى هذا في أسماء الشوارع وأرقام البيوت الخ .. كما يتجلى وهو الأهم في المطبوعات الكثيرة المتنوعـــة التي تستخدمها المؤسسات والدوائر الرسمية وغير الرسمية في أداء وظائفها أو في الاتصال مع الناس ـ ولن تستطيع هذه المؤسسات أن تنجز أعمالها بكفاءة ويسر اذا كان من يتعـــاملون معها غير قادرين على القراءة والكتابة كما أن هؤلاء الأميين لن يستطيعوا حل مشاكلهم ومصالحهم في تلك المؤسسات في سهولة ودون خسارة الا إذا أتقنوا هاتين المهارتين .

ـ هذا وان قطرنا العربي السوري قد حدثت فيه تغيرات كثيرة وسريعة (ويتطلع الى تحقيق أهداف وآمال كبيرة) نتج بعضها عن التغيير في أساليب الانتاج وطرق معيشة السكان وبعضها عن تغيير النظم والأوضاع القديمة وبعضها عن المؤثرات الثقافية الخارجية وتتناول هذه التغييرات بطبيعة الحال مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية بين الناس وليس أدل على ذلك من ملاحظة التغيرات التي تطرأ على المؤسسات الاجتماعية العامة (مثل الاسرة المدرسة ـ النقابة ـ المنظمة ـ الدولة .. الخ) .

ولا يمكن بحال من الأحوال الارتقاء والتقدم والسمو في العلاقـــات والتغيرات الاجتماعية وفي المؤسسات الاجتماعية المتنوعة الا بالقضاء على الأمية وكل قرائنها « الجهل والفقر والمرض والتخلف والتمسك في القيم والاتجاهات والعادات والمعايير والتقاليد القديمة التي تحول دون مواكبة التقدم والتطور الحضاري .. » .

ولمحو الأمية أيضاً دور آخر يتصل بالناحية الثقافية فمن الأمور التي لايخطئهـا نظر من يتأمل واقع الأمة العربية (التجزئة ـ التخلف ـ التناقضات الكبيرة والحواجز المصطنعة بين الأقطار ـ والمؤامرات التي تنظم وتنفـذ بين الحين والآخر لاحتـلال الأراضي واذلال شعب وحرمانه من العيش تحت الشمس لتحقيق ارادته ووجوده في الحيـاة) .

ولهذا ليس غريباً أن نجد الانقسام الثقافي على صعيد الأمة من ناحية وعلى صعيد القطر من ناحية أخرى والذي يتمثل في وجود فئة قليلة متعلمة بجانب أغلبية ساحقـة توصف بأنها أمية وتصف أمية ـ ولعل هذا الانقسام الثقافي قد رافقه (بل هذا هو الواقع) انقسام في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والصحية والسياسية الخ .

وان وحدة الامة العربية وتأصيل الديموقراطية وقيام المواطنين بمسؤولياتهم في

مجالات الحياة المتنوعة تحتاج الى سد الفجوات القائمة بين المتعلمين وغير المتعلمين للوصول بأبناء الشعب الواحد الى التفكير الموضوعي الجاد وتحقيق أهدافه ولا يمكن أن يتحقق هذا الا اذا جعلنا تعليم الكبار ومحو أميتهم في المرتبة الاولى في سياستنا التعليمية حتى يتم اللقاء بين أبناء الشعب الواحد وحتى تتوحد أفكارهم ومشاعرهم وأهدافهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

استناداً لكافة الحقائق المذكورة آنفاً وعلى ضوء تجارب السنوات الماضية للجهات الرسمية وغير الرسمية في القطر في مجال محو الامية .

ومن أجل تحقيق مهمة محو الامية خلال فترة زمنية محدودة بعد فشل خطط محو الامية السابقة وقصور برامجها وأساليبها القديمة عن تحقيق الهدف .

ومن خلال النظرة الموضوعية الهادفة لمشكلة الامية وخطورتها صدر أخيراً (في قطرنا العربي السوري) قانون محو الامية الجديد رقم ٧ بتاريخ ١٩٧٢/٣/٧ ــ القانون الذي يعتبر من أهم تشريعات محو الأمية في الوطن العربي والذي نظم عمليات محو الامية في القطر بأسلوب علمي جديد وتجاوز من خلال مواده أكثر الصعوبات التي حالت في الماضي دون القضاء على الأمية .

ولعل اهم ما تضمنه القانون رقم ٧ التالي :

١ ــ ان تعليم الكبار ومحو الامية مسؤولية قومية الهدف منه تعليم المواطنين الأميين . ورفع مستواهم ثقافياً واجتماعياً ومهنياً تلتزم بتنفيذه جميع الجهات الرسمية وغير الرسمية .

٢ ــ النص بأنه تحقيقاً لمبدأ محو الأمية خلال فترة محددة (٦ سنوات) ولكي لا يظهر أميون جدد تلتزم وزارة التربية بتأمين جميع الاطفال الذين هم في سن التعليم الابتدائي كل سنة .. (وهذا سيساهم في سد أخطر منابع الأمية ..) .

٣ ــ اعتماد العمل الطوعي المجاني في تعليم الأميين ، على أن هذا لا يمنع من منح المبرزين والناشطين في عمليات تعليم الأميين مكافآت نقدية وعينية ومزايا متنوعة .

٤ ــ جميع المواطنين الاميين الذين تتراوح أعمارهم بين سن الثامنة والخامسة والاربعين وغير المقيدين في أية مدرسة ولم يصلوا في تعليمهم (عند العمل في القانون) الى

مستوى نهاية الصف الرابع الابتدائي ملزمون بالتحرر من الأمية .

٥ ــ الزام كافة المتعلمين ممن تجاوزوا سن الثامنة عشرة بالاسهام في حملة محو الامية .

٦ ــ تشكيل مجلس أعلى لمحو الامية (برئاسة السيد رئيس مجلس الوزراء وعضوية السادة الوزراء المعنيين بالاضافة الى رؤساء المنظمات الرسمية والشعبية) ، مهمته رسم السياسة العامة ووضع الخطط المرحلية والفرعية اللازمة لتحقيق محو الامية في القطر بالاضافة الى تشكيل الاجهزة الفنية والادارية واستصدار القرارات اللازمة لمحو الامية .

٧ ــ النص على تنفيذ بعض العقوبات بحق كل من يمتنع عن تنفيذ المهمة المحددة في عمليات محو الامية سواء بالنسبة للمتعلم أو الامي ...

والخلاصة ... أن مشكلة الامية في قطرنا العربي السوري تعتبر من المشكلات الخطيرة .. وأصبح القضاء عليها مطلباً أساسياً وهدفاً كبيراً من أجل التقدم والنمو ومن أجل القضاء على التخلف وأبعاده الكاملة (الفقر والجهل والمرض) ..

كولردج

وسن الطفولة

بقلم : وليم ولش
ترجمة : عدنان بغجاتي

جرت العادة على أن ننظر للقرن العشرين على أنه العصر الذي وجد فيه الأطفال عصرهم . يمكن أن نشير في هذا الصدد الى الدراسات المحكمة التي خص بها الاطفال والى الدرجة التي تكيفت فيها ترتيبات الحياة كيما توافق هواهم . وما أكثر مانميل الى المقابلة مابين قرننا هذا ،

بما فيه من معرفة واسعة بالأطفال وتوق لانصافهم ، وبين القرن التاسع عشر الذي كانت فيه العلاقة بين الراشد والطفل علاقة رسمية بشكل جلي ، علاقة قاسية وغير متفهمة . لذلك فما يثير الدهشة ان نجد إنه اذا كان هناك من أمر برز فيه الادباء الكبار ، من الانكليز والامريكيين ، في القرن التاسع عشر أقرانهم من معاصرينا فان هذا الأمر هو الملكة التي بها أدركوا حياة الطفل وخاطبوها . فوردزورث وكولردج وديكنز (في روائعه) ومارك توين وهنري جيمس يبدون وقد وهبوا ملكة الحدس بتجربة الطفولة والتعبير عنها بالالفاظ ، مقابل أننا لانفعل سوى ان نمنح الأطفال عواطفطبية ولكن سطحية وان نصر على جمع المعلومات عنهم . وانه لواضح أنه ليس في القرن العشرين من كاتب كبير (اذا عددنا هنري جيمس آخر عظماء الروائين في القرن التاسع عشر) كتب بقوة واقناع عن عالم الطفولة . باستثناء د . ه لورنس الذي دون غيره وهب العبقرية والميل لتناول موضوع كهذا . الى جانب استثناء صغير آخر هو وولتر دولامار .

عظمة القرن التاسع عشر في هذا المجال تزداد روعة حينما نتذكر ماوجهه بعض النقاد المعاصرين لمربي ذلك القرن من نقد ، وهو أنهم وضعوا نظرية القرن الثامن عشر موضع التطبيق وعاملوا الطفل على أنه راشد مصغر . وما من شك في أنه قد سادت القرن التاسع عشر عادة فكرية موروثة من حركة التنوير الفلسفية ، والتي بسببها لم يكن الشاب جون ستيوارت مل المفكر الصغير (كاليبان)(١) كما يبدو لنا ، بل كان أقرب الى المثال أو الغاية التي لم يستطع الاطفال العاديون بلوغها بنسب مختلفة . ذلك المثل العقلاني قد صوحب ، ولا غرابة ، بحساسية مرضية طلعت علينا ، عند العديد من الكتاب الأقل شأناً وفي الكثير من أعمال ديكنز ، بقيمة غير واقعية تثير السقم من أطفال القصص المرهفي الشعور ؛ تلك المجموعة المفزعة من الأقزام التي نراها عادة ممثلة لفكرة القرن التاسع عشر عن الأطفال . نحن بطبيعة الحال لن نقع في خطأ النظر الى الطفل على أنه راشد مصغر ، بل نميل كل الميل الى الرأي بأنه كائن مختلف كل الاختلاف . غير أنه ، مهما كانت نظرة القرن التاسع عشر الى الاطفال متحيزة ، فقد افترضت وجود طبيعة مشتركة بين الطفل والراشد ؛ الأمر الذي نكاد نفقده نتيجة تأكيدنا على استقلالية الطفولة . وقد مكن ذلك الاشتراك في الانسانية الخيال في القرن التاسع عشر وهو في عليائه من الدنو من حقيقة الطفولة

(١) من شخصيات شكسبير في مسرحية العاصفة .

المنغلقة علينا بسبب اصرارنا المتشنج على أن فجوة الاختلاف بين الراشد والطفل شديدة الاتساع . غير أننا مفصولون عن الطفولة بعقبة أكثر عمراً . فالطفل يتقبل الكون المذهل ، يندهش به لكنه لاييئس منه ، انه يفترض أنه لابد من جواب عن كل سؤال . وأصعب شيء عليه هو الافصاح عن السؤال . عالم الطفل لايقلقه الشك ، « وحدسنا العميق بأننا وحدة لاتنفصم مع الطفولة » الذي هو شرط الادراك الخيالي لها ، ممكن فقط في عالم فيه الكثير من اليقين والقليل من الارتياب . الا أننا نعيش في عالم ديكارتي غريب تحت وطأة سلطة الشك ، ونحن لانتكلم لغة الاطفال ونعجز عن فهمها .

قد يعجب البعض من ورود اسم كولردج في سياق كلامنا . صحيح أنه لم يخص الأطفال بعمل كبير ولا حتى بجزء من عمل ، ألا أنه في رسائله وقصائده وفي كتاباته عن التربية وتعليقاته الغزيرة على بعض الموضوعات ، وفي اعجب الامكنة ، (ملاحظاته عن جيرمي تيلر مثلا) يكشف عن حس لطيف وواثق ، عالم بأدق دقائق الطفولة لم يبزه احد فيه حتى ورد زورث أو ديكنز او مارك توين . لا شك في أن هذا الحس غالباً مايكون عند كولردج اكثر اتساعاً بالدقة والخصوصية مما هو عند وردزورث ، والعيب الرئيسي الذي هاجم كولردج بسببه مقطعاً من قصيدة ايماءات الخلود هو عموميتها وقابلية نعوتها للتبادل ، وجوها الزاخر بالمعاني الكبيرة غير المحددة . طبعاً ليس كديكنز من لديه تلك اللمسة الرشيقة والبارعة في انتقاء الخصائص الدقيقة التنظيم ، ومع ذلك يبقى في معظم أعماله تباين مابين وحدة الموضوع ودرجة الشعور . فالتفاصيل دائماً مرسومة بدقة متناهية مرئية باصفى عين ، اما المشاعر فغالباً مايعكر صفاءها رثاء غير واع للنفس واندماج غير مقبول . في فقرات من رسائله الى پول يتحدث كولردج عن طفولته ، وهذا موضوع صالح دائماً للوقوع في شرك العاطفية ، إلا أنه نجا نجاة تامة من علة اطلاق العنان للنفس المتسم به ديكنز وذلك بسبب من استخفافه الساخر من ذاته . لا بد من القول أننا لانتعمد اصدار حكم اخلاقي لصالح كولردج على حساب ديكنز — أوليس هذا هدفنا الرئيسي — فكلنا يعترف بما لديكنز من قلب كريم وغضب اصيل وارادة قوية ، وكلنا يعرف ماقصد اليه إليوت في قوله : ان كولردج واحد ممن ادركتهم حرفة الانسان المنهار (ونحن طبعاً لدينا الاستعداد لتقبل الرأي القائل بأن حرفة الانسان المنهار خير احياناً من حرفة الانسان الناجح) . اذا كان كولردج اكثر من ديكنز فذلك في الضرب الآخر من الاخلاقية التي يدعوها وايت هيد « أخلاقية العقل » . فكولولردج كان صاحب عقل أكثر تمرداً واسلوب الطف في التفكير

والحساسية والتعبير . ديكنز عبقري همجي وكولردج عبقري متمدن . والعقل المتمدن يفهم ويستجيب ويقوم ضمن اطار من القبول والوثوق بينما يرزح العقل غير المتمدن تحت عبء خلق كل شيء بلا معين . ولذا لنتاجه موسوم بالنفي بدل الاثبات بالعنف بدل القوة ، بالاختلال بدل الترابط . ان رؤية كولردج للطفولة الطفل لأنها اكثر رشداً ورواية ديكنز على الرغم من قوتها الفذة وخصوصيتها أقل نضجاً لأنها نتاج عقل بدائي ، والعقل البدائي يخون نفسه بالاقحام الخاطىء للذات والنقص في الوعي وفي ادراك الاهداف والعجز عن تثبيت موجوداته ضمن عالم راشد . ولا تشوب رائعة مارك توين أية شائبة من هذه الشوائب . « هكلبري ن » أقل مسيحية في تناولها من أية رواية لديكنز واكثر رصانة وتجانساً في التنفيذ . العقل الذي حمل بها والعالم الذي تمثله يمت كل منهما الى الآخر باخلاص وصدق فالاول كولته الحضارة الشعبية الاصيلة والآخر يجسدها . والحضارة الشعبية « العابقة بشذى التربة المحلية » هي شيء مختلف جداً عن الحضارة التي يغلب عليها الطراز الرسمي والادبي والفلسفي والتي جنبت كولردج الانحراف الروحي وعدم النضج في الشعور . إلا أنها تؤدي الغرض ذاته بالتأثير نفسه وبتنظيم اعظم . وما في رواية هكلبري ن من باطنية التجربة واقتدار الرؤية واحتواء لقاعدة الطفولة الاخلاقية ليجعلها (م - ع اشياء أخرى) مصدراً مهماً للحكة التربوية . واذا ماقرر أحد في النهاية أن كولردج مصدر أهم فهذا ليس بسبب قصور في الحضارة المصورة في الرواية على الارجح بسبب الحضارة الكامنة في فكر كولروج الأقل تقيداً بسياق واحد للزمان والمكان بالرغم من بعض السخافات الكنسية المعاصرة له — والغريب أنها قليلة — مثل قصيدته الملحمية في تمجيد نظام (بل) الارشادي . كذلك لا بسبب أن الانسان يطالب ببصيرة اكثر نفاذاً في حياة الطفل من بصيرة مارك توين (وهل هذا ممكن؟) بل بسبب عبقرية كولردج في التعميم الحاذق الواضح والمتغير .

ما يميز كولروج في ميادين فكرية عديدة هو قدرته على جمع القوى المتناقضة عادة واستحضارها معاً . فهو يوحد ، كما يفعل قلائل آخرون، ما بين القوة الشاعرية لاعادة صياغة التجربة بكل ملاءتها وتفردها وبين القوة الفلسفية للتأمل الخلاق ، وهذا في حين هو متعلق دائماً بمنشأ الادراك ، هو مصدر لضوء جديد وعون على ادراك أكثر قدرة على الرؤية . ان إدراكه متميز بحساسيته واستجابته الراعشة ، وقادر على التفريق ما بين أرهف المرهفات . وما من تجربة من تجارب كولردج ، مهما بلغت حيويتها ، كانت معزولة ، إذ هي تجاهد من أجل الاتصال. وما من تجربة اكتملت إلا بعد أن تكون قد استجمعت كل بغيتها من التماسك والانسجام،

وهكذا اتسمت اعماله بقوة العمل المتميز وحدوده ، الى جانب الانسياب والحركة اللتين يتميز بها العمل الجاهدلبلوغ التناسق . وعنايته في أن يسبغ على التجربة كلاً من ظل وجودها الدقيق والقانون العام الوثيق الصلة بهذا الوجود، يمكن أن تلحظ في تعليقه المدهش عن نفس الطفل .

« شيئان يمكن أن نتعلمها من صغار الأطفال ما بين الثالثة والسادسة من العمر :
١ - واحدة من الخصائص : أن تجاوز الذات هو إحدى غرائز طبيعتنا البشرية .
مثال : الصورة أو دائرة الصور المركبة .. التي تمثل دائماً أشخاصنا ولكنها لدى العقول الضعيفة التفكير محيرة ومتحدة بها ...
٢ - ألا أجيز لأي شكل أن يتلبسني فيغتصب ذاتي . »

بهذه الكلمات يصف كولردج ما هو على، على حد تعبيره ، خاصة مميزة عامة للبشر ، إلا أنها ترى بوضوح أشد عند الطفل . فهي من جهة بحث دؤوب للتحرر من قيدالصورة الواحدة للذات ، ومن جهة اخرى قلق من أجل المحافظة على حرمة الذات الاخرى ومن كان على تماس بالأطفال . وجد في تلك الملاحظة تعبيراً نافذاً عما يمكن أن يحسه . وبهذا التفريق ما بين ممثل الذات والذات الحقيقية ، بين الصورة وبين مبدأ الفردية يحقق كولردج نجاحاً في تسكين التوتر القائم بين حدى عبارته ويوفق بينهما في حكم خال من التناقض . ومن الجدير بالملاحظة أنه يشرح قصده بعبارة « شيئان يمكن أن نتعلمها » مغزى هذا الدرس يمكن ان يتوصل اليه كل راشد وخاصة كل معلم . لأن النضج الزائد عن الحد يعني وقوعاً في أسر قبول احمق ومذعن لذات تمثيلية محدودة ، وإنكار أو اغفال الذات الحقيقية . إلا أن الراشد الناضج - وهو ما يجب أن يكونه كل معلم - هو الذي يحس في الآخرين تحت صورة الذات التمثيلية الحركات الخفية لذات أعمق هي التي أحس بها من قبل في نفسه ، يترك للصورة حرية واسعة في الخيال ويحمل لها تعاطفاً في المشاعر ومهارة في العمل ويكن الاجلال للذات الحقيقية . يقول كولردج :

« احترم فردية زميلك . ذاك دين الروح العذبة . »

وفي حديث عن مقاومة الطفل لتطفل الشكل الغريب يحدث كولردج مفهوماً تقبله، على غرار أفضل المفكرين في القرن التاسع عشر، على أنه جزء من بنية معنى الطفولة، وقد فقدقيمته اليوم . هذا المفهوم هو حول براءة الطفولة . لم يؤكدكولردج هذا المفهوم بعبارات صريحة إلا نادراً ، فقد كان يميل الى الحديث عنه مستخدماً التضمين والصورة - وربما كان ذلك أقوى أثراً - والتلوين ، وبلغة تعبر عن خشية طروب . وقد سخر

من هذه الفكرة في الماضي رجال الدين الطهرانيون الذين لم يكن الطفل عندهم الا ذراعاً للشيطان ، وقد تلاهم في السخرية منها في وقت متأخر اولئك السلوكيون الذين كان الطفل عندهم حيواناً . واذا ما حدث ووصف الطفل بالبراءة فذلك يكون فقط حين يقصد بها الاطمئنان اللا انساني في السلوك والرضى بالعمل . وقد ذكر كولردج معاصريه من الطهرانيين أن يسوع قد بارك الاطفال لا من أجل أن يجعل منهم ابرياء بل لانهم كذلك فعلا . وربما وافق على قول (سوثي) بأن عقل الطفل أكثر شبهاً بعقل الراشد منه بعقل الحيوان البدائي . انه أقل شبهاً بعقل الحيوان ما دام يتوافق مع بيئة وشكل في السلوك مختلفين كل الاختلاف عما للحيوان الذي يعيش طليقاً معتمداً على نفسه » وفضلا عما تقدم وبتعبير آخر ، لعله من الملاحظ أنه من الحزن ولكنه واقع ، أن كثيرين لم يكونوا بشراً حقاً الا حين كانوا أطفالاً ولن يعودوا ابداً احراراً في تخيلاتهم أو غير خاضعين للشهوة .

ولكنه تأثير فرويد ذلك الذي صبغ العقل الحديث صباغة كاملة حتى وجد ذلك العقل نفسه عاجزاً حتى عن استخدام عبارة « براءة الاطفال » بغير ارتباك . حاول فرويد ان يضع تاريخاً طبيعياً للخطيئة الجنسية مقتفياً اثرها على دروب ملتوية عائداً الى البدايات الغامضة . وكان من شأن نظريته حول العاطفة الطفلية ، والتي لاقت رواجاً في صيغتها الأولية ، ان مزقت مفهوم البراءة . وبهذا الفعل تحطم نوع من التمييز بدونه يستحيل البدء بتكوين فهم مناسب لحالة الطفولة (من الطيف أن نستذكر ملاحظة لكولردج في رسالة لبول عن السنين الثلاث الأولى من طفولته ، يقول كولردج : هنا علي ان أنتهي لأن السنين المتبقية قد تعاونت على تكوين عقلي الخاص ؛ ويبدو أنه ليس في السنين الثلاث الأولى ماله علاقة به » ولعل كولردج كان مخطئاً في هذا الحكم ، ولكن يشك في أنه خطأ أمام ذلك النوع من الغلط الذي يمكن ان يكتشفه فرويدي فيه) إذ ماهو المقصود ببراءة الاطفال؟ طبعاً المقصود اكثر من مجرد غياب الشعور الجنسي ووجود البراءة ليس باطلا اذا كان مثل ذلك الغياب مرفوضاً . البراءة ايجابية ومعقدة والتفكير بها على أنها تتعلق بالمشاعر الجنسية بالضرورة يعني الاخفاق في طرد شيء لاعلاقة له بالموضوع أساساً . البراءة أمر يتعلق بالميل والحكم والفعل . إنها في آن واحد درجة حساسية وأسلوب استبصار . انها تتضمن صفاء ، لما يصبح رضوخاً للفساد المألوف في عالم الراشدين ، وتفرداً في العقل لم يلطخ بنفاق التقييم التقليدي ، وعفوية لم تتدرب على الاستجابة البليدة ، وفضيلة الحدة والاستقامة الضارية . استقامة البراءة يوضحها إليوت على نحو ملائم كل

الملاءمة في مقالته عن شخصية بليك الشاعرية .

« الغرابة .. مجرد استقامة خاصة ، بل إنها في عالم ما اهول ان تكون فيه مستقيماً ، مرعبة بشكل عجيب ، انها استقامة يتآمر عليها العالم بأمره لأنها كئيبة ... كان عارياً ورأى الانسان عاريا ، ومن قلب صفاته هو ... توجه إلى كل شيء بعقل لاتغشيه الآراء الشائعة . لم تلح عليه أية امارة من امارات الشخص المتذوق . هذا ما يجعله مرعباً » .

براءة الأطفال تعلن عن نفسها بوضوح في ألعابهم . وألعاب الاطفال كما يقول رايسمان « غالباً ما تكون ملأى بالهول والرعب ولكنها في احسن احوالها » وهذا كولردج يتخذ تجاه خيرها البين موقف رجل متدين حين يستحضر بقوة الشاعر الكيفية الخاصة للبهجة التي تبلغ من ذلك الحيز ، مشاعر جذل ، مخلصة كل الاخلاص لما تنبع هي منه ، غير مشوبة بتبجيل ما هو خارجي أو دخيل . كتب عن طفليه وهما يلعبان : « هارتلي روح ترقص على نفس كشجرة الحور – وما الهواء الذي يستنشقه سائح سئم شاحب الوجه لطفلي غير غاز يبعث على الضحك دائماً . » « أنظر الى هارتلي الاثير لدي – يتحرك ، يعيش ، يجد دائماً الحوافز في داخله وفي خارجه .. ينظر الى الغيوم والجبال والى الكائنات الحية على الارض فيثب ويتهلل » « هارتلي ودروثت يركضان على الخضرة معاً في الريح العاصفة المجنونة ، وشعرهما يطفو ويتطاير ، كأنهما نموذج مصغر للاشجار المائجة التي يلعبان نشوانين تحتها مغمورين بالبهجة . هارتلي يدور حول نفسه فرحاً ويدور دروثت عكسه نصف راغب في الانطلاق ونصف مدفوع بقوة الروح – يندفع الى خلف فيجاهد ليتقدم صائحاً بترنيمة الفرح . » ان فرح الطفل فرح كامل يبعث في النفس البهجة لانه المصاحب لتلك التحركات الاولية للخيال الذي به يكتشف الطفل انسانيته ويعطيها ابعادها ويجد حريته ويستزيد منها . « والاستمرار في حمل مشاعر الطفولة داخل قوى الرجولة .. هو شيمة العبقري وهو امتيازه » . وتلك شيمة كانت لكولردج و [قصيدة الكآبة] تشهد بما فيها من أسى على انتقال « روح الخيال المتجسدة » وما فيها جفاف حزين على غياب الفرح بالعمق والقوة اللذين أحس بهما حضوره .

من الضروري أو لعله من الحكمة أن نؤكد ، على ضوء سمعة كولردج ، أنه لم تكن نظرته الى طبيعة الطفولة نظرة جمالية مغرقة . فهو لم يكن من تابعي روسو واذا كان وردزورثياً فان ذلك كان بشكل ضيق وصارم . فقد كان يجد الاتجاه ، الذي يرى في الطفولة موضوعاً

جديراً بالاعجاب بسبب بعض الصفات القدسية أو الصوفية ، أمراً كريهاً وغير مفهوم .

يتساءل موجهاً نقده الى ذلك النوع من التفكير غير الارضي الماذي في [قصيدة ايماءات الخلود] :

« بأي معنى يكون الطفل في تلك السن فيلسوفاً ؟ بأي معنى يقرأ العمق الخالد ؟ بأي معنى يعلن انه مصاحب دائماً بالملأ الأعلى او ملهم جداً الى حد انه استحق لقب النبي العظيم والعراف المبارك ؟ أبالتأمل ؟ ام بالحدس الواعي ؟ ام بأية صيغة او شكل للوعي ؟ يمكن ان تصبح هذه اخباراً ، لكن كتلك التي تفترض مسبقاً تجلياً مباشراً للراوي الملهم وتتطلب معجزات لاثبات إلهامه . ان الاطفال في هذه السن لا يقدمون لنا اية معلومات كهذه عن انفسهم ، ومتى حدث ان وردتا نهر النسيان فكان ان تتجذ لك النسيان المطلق لحالة أشبه بحالة الله ؟ ثمة كثيرون منا ممن لا يزالون يمتلكون ذاكرة ضعيفة او قوية فلنعد بأنفسنا الى سن السادسة ، من المحزن الا يبقى على السطح طافياً غير اعواد من القش تافهة في حين تغوص الكنوز ، على شاكلة كنوز غولكوندا والمكسيك التي لم تكن الا عيدان قش ، في خليج مجهول لبحر مجهول » .

وكولردج لم يتبين الحدود العقلية والخلقية للطفولة فقط بل أشار أيضاً الى مكامنها :

« تأمل حالة عقل الطفل البسيطة وهو يسمع او يصغي الى قصة جاك ونبتة الفاصولياء . كيف يمكن ان تكون لو انه لم يفهمها بوجه ما ؟ بلى ان الطفل ليفهم كل جزء من اجزائها ـ آ و ب و ج وليس آ ب ج = س . انه يفهمها كما نفهم نحن احلامنا حين نحلم ، كل شكل وحادثة او مجموعة اشكال وحوادث على حدة ـ غير واعين ، ومن ثم غير غاضبين لغياب صلة الوصل المنطقية فيما بينها أو لسخافة انتقالاتها » .

واقعية ملاحظته تضيف نقطة جديدة الى وصاياه حول التربية العقلية . فما دام عدم نضج الفكر لدى الطفل قائماً على تقدير القليل فقط من العلاقات البسيطة وعلى تمكنه من بعض الانتقالات الخام في التعبير فعلى تربية العقل ان تهدف كما يؤكد كولردج الى تنقية حسن العلاقة وجعل قوة « الروابط الصالحة » اكثر مهارة . كما عليها ان تحاول

إدراك ذلك ببطء وبحكمة « لأن القدرة على المقارنة والحكم لا تكون فعالة في تلك السن، ولا يجوز أن نذكيها بعنف ، كما تفعل غالباً بعض الأساليب التربوية، وهي مخطئة في ذلك، والتي لا تقود إلا لأحكام أنانية ، ومبادىء فضيلة الدائن والمدين والى حس مغرور بالجدارة » . كما توحي هذه الكلمات أنه كان على بينة من الحدود الأخلاقية لبراءة الطفولة قدر قناعته بها ، ذلك شيء تؤيده مراجعة لنفسه حين كان طفلاً .

« كنت شكساً ومفرطاً في العاطفة ولما كنت كسلاناً وغير قادر على الانهماك بعمل ما فقد احتقرني الأولاد وكرهوني، ولأنني كنت أحسن القراءة والتهجئة وذا ذاكرة وفهم مدعومين في الغالب بنضج غير طبيعي فقد حظيت على ثناء السيدات العجائز واعجابهن . وهكذا أصبحت مفتوناً بنفسي وازدريت معظم الأولاد الذين كانوا في مثل سني ، وقبل أن أبلغ الثامنة من العمر اصبحت شخصية واضحت الحساسية والتخيل والغرور والكسل وازدراء كل ما يتعارض مع دائرة فهمي ، حتى في ذلك الوقت ، جلية بارزة » .

هـذه الملاحظات تدوي بصوت حقيقي رنان ، وتقنع لأنها ليست غير تدوين مباشر لمعرفة أصيلة بالنفس . لا شك في أن هذه المنات الاخلاقية التي عرضت أمامنا بغير ما رحمة تخص الطفل كولردج الا أنها ليست عيوب الموهوبين فقط بل هي عيوب جميع الاطفال ذوي الميول الايجابية . فالطفل أناني معجب بذاته وغالباً ما يكون ظالماً ومتعجرفاً . ولا يجوز الافتراض أن كولردج يفرض على الطفولة مقاييس الراشدين البعيدة عنها كل البعد . فالمقولات الاخلاقية التي أشار اليها كولردج في رسالته تفتقر عند الأطفال الى الوضوح والملاءة والتركيب الأمور المتوافرة عند الشخص المتطور . الا أنها هي نفسها من حيث المبدأ . وعالم الطفل عالم أخلاقي. وحري بأفعاله أن يطلق عليها اسم تصرفات لا سلوك . عالم الطفولة الاخلاقي كما يراه كولردج هو « صيغة تتشكل » لا « شكل يحدث » لأن المقولات الأخلاقية لا يمكن أن يطبقها الراشدون على الأطفال دونما دقة أو رقة ، وبما أن الراشدين في الغالب متخبطون واعتباطيون وغير أكفاء فقد وقع بعض التربويين المحدثين بخطأ أفحش بطمسهم النظام الأخلاقي لدى الطفل واعتبارهم اياه كائناً لا أخلاقياً . ولكن قبل أن يستوفي الطفل تعريف الطفل فانه يستوفي تعريف الكائن الانساني ، وكما يقول كولردج، «لا يزال أعظم تعريف للانسانية أن لنا ضميراً

لا يستطيع تركيب آلي أو اتحاد كيمياوي مؤلف من رغبة وذاكرة وفهم فقط أن يخلقه». ويؤكد على أن « الأطفال ليسوا بعيدين عن أن يكونوا نساء أو رجالاً كما جرى تصورهم عادة . ان قدرتهم على التعبير عن معانيهم أضعف من الرجال إلا أن رأيهم في العدالة هو نفسه تقريباً رأي الرجال. وليس من التطرف في شيء أن نؤكد بالدليل أن الأطفال انما يقاسون من أولئك الذين يخفقون في معاملتهم كبشر أكثر من مقاساتهم ممن يخفقون في معاملتهم كأطفال . « يجب ألا يغرب عن البال أبداً أن كل كائن انساني يحمل في نفسه ذلك الشيء الراسخ الذي يمت الى الجنس البشري بكامله كما يحمل التكيف الخاص بذلك الشيء والذي يجعل منه انساناً متفرداً » .

ان انتظام ورود كلمتي أخلاقي وعقلاني لا يعزى الى العادة ولا الى الصدفة ، فهو مقصود وذو دلالة . والواحد منهما برأي كولردج مصدر للآخر .. وعلى النقيض من الرأي المقبول في زمنه والذي يزعم أن الأخلاق نتيجة ذكاء متطور فان كولردج يعد الأخلاقي حافزاً للعقلاني . «جميع الحقائق التأملية تبدأ بمسلمة ، حتى حقائق الهندسة. جميعها تفترض فعلاً للارادة ؛ لأن مصدر العقلاني كامن في الوجود الأخلاقي ». المعرفة مسبوقة بالاختيار، والحياة الأخلاقية تقوم على قرار يبعثه الايمان. وهذه الحقيقة تمثلها حياة الطفل . يسأل كولردج :

« هل لك أطفال ، وهل عشت بين الأطفال ، أفلا تعلم أنهم في كل شيء في الطعام وفي الدواء وفي كل ما يفعلونه أو يحجمون عنه يجب أن يؤمنوا كيما يكون لايمانهم سبب ؟ ... الايمان والمعرفة ليسا أمرين متباينين ، كلاهما الشيء ذاته في مراحل مختلفة من نموه . »

ان تقبل الطفل لسلطة المعلم تتوافق مع مدى ايمانه . والسلطة كلمة تقابل بالشك وتدفع باحتقار في البحوث التربوية الدارجة المقاومة عملياً كل ما هو قائم أو خارجي . غير أنه لا يمكن تجنب هذه الكلمة لأن السلطة تدخل في صلب العلاقة ما بين المعلم والمتعلم. السلطة التربوية ليست أبداً قوة قهرية ، ولا هي شيء يمكن أن يمنح كشهادة أو يخلع كرداء . انها كفاءة من يمكن أن يستشار ويؤتمن ؛ وهذه لا تتحقق الا بالعمل والصبر ونكران الذات . سلطة المعلم هذه يترسخ جانب منها بتسليم التلميذ بإخلاصه والجانب الآخر بما يدعو اليه المعلم من قيم . وفي أيامنا هذه يلقى الجانب الأول من هذه الفرضية بعض العناية أما الجانب الآخر ، في عصر جمعي قائل بالمساواة ، لا يثير الا القليل من الانتباه الجاد . وورطة الحضارة الحديثة أنها مهددة بالاقتراب شيئاً فشيئاً من حجية التعلم لابسة لبوس القيمة ، التي دعاها كولردج

« جمهرة المعرفة » – أي جعلها جماهيرية – واذا كان على عاتق المعلم يقع واجب الحديث عن الحصافة العقلية والصحة الروحية في كل الأزمنة ، فانه في زمننا هذا واجب أكثر الحاحاً لأن المعلم واحد من قليل ممن لا يزال لديهم القدرة على الاسماع . وان حضارة لا تحظى فيها القيم بحماية المعلم لهي حضارة ملعونة . صحيح أن ندرة من المعلمين تتلقى بترحيب الأسباب البسيطة التقدمية لسلبية دفاع تيلول صديق كولردج عن القيم ، غير أن الكثيرين منهم من خلال عدم التركيز واللامبالاة والشك فانما يفعلون ذلك وهم معه على قدم المساواة في عدم التأثير وفي بلوغ النتائج التي بلغها نفسها.

« كان تيلول يرى أنه من الجور أن نغرس في عقل الطفل أياً من الآراء قبل أن يبلغ سن الرشد ويصبح قادراً على الاختيار . أريته حديقتي وقلت له إنها مشتلي الزراعي .

« و كيف ذلك ؟ » قال « إنها مغطاة بالأعشاب ! » فأجبته :

« آه ! ذلك أنها لما تبلغ سن الرشد والاختيار . الأعشاب التي ترى أخذت حريتها في النمو . وقد رأيت أنه من الجور أن أكره التربة على انبات الورود والفريز » .

وتنشئة فيها « إكراه على انبات الورود » التي تتوقف عليها انسانية الفرد ومستوى الحضارة ، تستوجب اللجوء لجوءاً تاماً إلى الخيال ، تلك القدرة التي بواسطتها يثبت الطفل نفسه متحرراً من الحاضر ويتخلص بها من قبضة العاجل . وفي عمل الخيال يطلق الطفل نفسه فما هو جزئي ومحطم « من الكون ككتلة أجزاء صغيرة » ويبدإ بالتفكير بوحدة اكبر وكل أشمل ويصبح مفهوم الزمان أكثر اتساعاً ومفهوم المكان أكثر تعقيداً . ويسترخي ضغط الآنية ويشحن الواقعي بالممكن ، وتبدو تيارات الفعل واضحة وتحدد نفسها للاختيار . المصدر ينفصل عن الحصيلة وتتسع المسافة ما بين الفعل وبين نتيجة الفعل ، وهكذا يتأسس مركز للنسبة ويبدأ مفهوم المسؤولية الحمل الطويل الشاق . يحدد كولردج دور الخيال في المحاضرة الحادية عشرة بقوله :

في تربية الأطفال يجب أن يغرس الحب اولاً ومن الحب تتولد الطاعة . ثم يجب ان يمنح العقل القوة والنبض ، وتبدو للعيان غايات الكائن الأخلاقي . لأن هذا الموضوع متأثر تأثراً واضحاً بأعمال الخيال ؛ – ذلك انها تخرج العقل من حدود الذات وتبين له امكانات الخير

والعظمة في الشخصية الانسانية ... في خيال الانسان توجد جميع بذور التقدم العلمي والأدبي ؛ فقد كانت الكيمياء من قبل سيمياء، ومن التنجيم انبثق علم الفلك. حين كانت هذه العلوم في المهد فتح الخيال لها باباً ونضد المواد التي حققت بها القدرات الاستدلالية نجاحاً حين بلغت مرحلة اعلى من النضج . الخيال هو احدى خصائص الانسان المميزة له ككائن تقدمي ؛ واعود اكرر انه يجب ان يحرص على ارشاده كوسيلة لاغنى عنها واداة للاصلاح والتهذيب المستمرين .»

الخيال ، كما سنرى ، ذو شأن كواسطة تربوية اعظم من ذلك الاهتمام الهزيل الذي يوليه إياه بعض المربين المحدثين . فاعمال الخيال في رأيهم هو تهذيب الحس الجمالي . وهذا ، في مدنية تخلط ما بين الفنان وبين محب الجمال ولا تميز ما بين معاناة الأول وبساطته وبين وتأنق الآخر وعبثه ، يعني إضافة تزيينية لا قيمة لها الى قدرات انسانية أكثر أهمية بكثير . غير أن الخيال ليس زينة للروح أو مجرد صقل لها وفقاً للمواصفات النموذجية . «إن قوانين الخيال هي نفسها قوانين قدرات النماء والعطاء ». وحياة الطفل قبل المدرسة نشيطة بفعل طاقات الخيال الدافعة والتي « تحمل العقل خارج حدود الذات »، وواجب المدرسة أن تهيء للمتعلم أعمالاً للخيال بهذا المستوى (والعلم ايضاً انجاز قام على أساس من الخيال) تبين « امكانات الخير والعظمة في الشخصية الانسانية » . وما نلحظه من برودة في معظم التعليم وتأثيره خال من الروح الانسانية في تدريس العلوم انما يتأتيان من حصر الخيال في دائرة الفعالية الجمالية الضيقة. الا ان الخيال هو الهواء الذي تتنفس فيه المعرفة الجديدة كما أنه الملح الذي تحفظ به المعرفة القديمة . وقد قيل : « إن المعرفة لاتبقى أكثر مما يبقى السمك » .

القوى العاملة على الخفض من قيمة الفعالية الخيالية على وجه العموم قد نشطت في عالم التربية بتأثير حركة الروائز الموضوعية. فالرائز – من يقوم بالروز – الذي تتولى افتراضاته ومعاييره واهدافه مقاليد التربية كاملة ، يفكر بالطفولة على انها مرحلة من مراحل عملية التطور من التفكير الكيفي الخيالي إلى التفكير المتوازن المطالب بالدليل والمنظم ذهنياً . وقد يبدو هذا لأول وهلة كذلك الوصف الذي أعطاه كولردج نفسه – الطفولة هي انتقال من الحياة في الجزئيات الحسية الى الحياة في الفكرة . لكن أوجه الخلاف تكشف عن نفسها حينما نأخذ بعين الاعتبار نقاط البداية والنهاية التي تتم فيما بينها عملية انتقال الطفولة . المعقولية ، هدف الطفولة كما يدرسها الرائز ، تصور

محدود بشكل محزن . هذه المعقولية تتبدى في روائز الذكاء طوراً في الحضيض تحت قدم البديهة، التي من أبرز خصائصها المواءمة مع نموذج مقبول ، وتارة في الذروة تبدو ذكاء محضاً كالذي يعرفه كولردج بـ « عبقرية من أجل التدرعية». لكن المعقولية لدى كولردج تعقيد أكثر ، وانعكاس أعمق ، وحكم ألطف وتقدير للغايات ، ومبادىء ظهرت وطبقت، وقدرة على تأليف نظم للادراك أجد وأشمل.

والاختلاف مـا بين كولردج والرائز يحتد الى درجة التنافر الفاضح عندما تقابل ما بين مفهوميهما لا عن طبيعة تفكير الطفل المبكر، بل عن قيمة النظر فيها . كلاهما واحد حين يصفانها بالهيولية والحسية ويصفان نتاجها بأنه استبدادي حتماً ومتناقض لحسن الحظ بينما هما على طرفي نقيض في تقدير أهميتها. يحكم الرائز على تفكير الطفـل بأنه بقية أثر لعقلية بدائية لابد انها نمت نمواً فائقاً ؛ أو هيولي يجب ان يحقق عليها المنطق نصراً مؤزراً . أما عند كولردج فيؤدي تفكير الطفل واجباً رئيسياً . انه السابقة الضرورية للذكاء العاقل ، كسبق الشعر للنثر في تاريخ الأدب . انـه الفوضى التي يجب أن ينبعث منها النظام ، أو كما يقول عـن تطور اللغة « هيولى تشحذ نفسها في المواءمة » . ان غزارة تفكير الطفل ليست غزارة عشب في أرض ليقطع، بل هي اسراف بدايات الحياة اللامبالي. ويصف كولردج في الفقرة التالية تلك الخاصة ويقيمها :

« في طفولة الأفراد (يمكن أن يقتفي شيء مشابه لذلك في تاريـخ المجتمعات) تكتسب المعارف الأولى بشكل عشوائي . – (الخطة الدرسية) ليست مؤلفة من جملة موضوعات وضعت كيما يلاحظها التلاميذ بل من الدوافع والميول الملائمـة لأعمارهم وحدود فهمهم ، من فعالية انتباههم المتقطعة وغير الثابتة ، من التقلب النـسبي أو التطور المبكر لواحد أو أكثر من الاستعدادات قبل غيره . هذا هو الهذيان السعيد والحمى الصحية للكائن الطبيعي والأخلاقي والعقلاني – هبة الطبيعة الالهية اللطيفة للاطفال . وبأفضل ما يمكن أن تعنيه الكلمات ؛ إنه نشوة عقل الحيـاة الانسانية وجذل قلبها ! وما من شك في أن لذلك منهجاً الا انه منهج الطبيعة التي تختزن في العقل جميع المواد كيما تستخدمها عنـد الحاجة . الاختزان عشوائي خف ويبدو بلا هدف في حين تغذي الطبيعة الهيولى الزاهية المفوفة للحقائق والأشكال وآلاف التجارب المؤلفة .

وأصل ما يكمن خلف الذاكرة خفيـاً كالحيـاة نفسها والذي يتخلل جزءاً من حياتنا بسرعة أكبر من أن يلحق بها وعينا الغريزي وخلف قدرة الاختيار صمام الأمان !.. قلنا عشوائي وبلا تخطيط في الظاهر . الا أن الطبيعة تستطيع بما يبدو مشوشاً فقط

أن تحقق غرضها دونما انتهاك لحرمة حرية الروح الفطرية بل ومن غير اعاقة أو ابطال أو تغطية لقدرات الابتكار والتجريب المؤتلفة القادرة على الحكم » .

اذا كانت آراء كولردج وآراء الرائز تتصادمان في هذه المسألة فذلك ليس لأن دقة الفطنة النفسية والتي ألح عليها في نقده الادبي قد خذلته حين أجال عينيه في عالم الطفولة . على العكس . فسواء أخذ علم النفس على أنه المعرفة البدهية الودودة لتكوين صراعات شخصيات انسانية معينة يعرضها كاتب روائي أو مسرحي ، أم أخذ على أنه ملاحظة العالم وتصنيفه لما هو سوي في السلوك الانساني ، فان لكولردج كامل الحق في أن يعد بلا نظير في كل من هذين الامرين . قد تكون الادلة قد وردت بما فيه الكفاية حتى في مجرى مناقشتنا هذه لتأكيد – ما تدلل عليه أية صفحة من كتاب كولردج – صحة ما اشتهر به كعالم نفس أدبي فائق الذكاء . غير أن تعدد مزاياه كعالم نفس بسطت ظلها ايضاً على النهج العلمي . فقد سلط على الآخرين رقابة دقيقة ودائمة واستبطن ذاته متابعاً ادق الدقائق فيها دون أحكام مسبقة ، ودونما استعانة بأي من الاجهزة العجيبة الحديثة المستعملة في الدراسات النفسية فقد توصل قبلها الى نتائج هامة لعديد من أبحاثها الدقيقة والشائكة . في هذه الملاحظات حول الحساب مثلا . يستأثر كولردج بواحدة من أهم الفكر التي جاءت بها مقالة (بياغت) عن تطور مفهوم العدد : « لا شيء في عقل الطفل مؤلف من كسور . وجدوله الترقيمي فيثاغوري بحت . فالاعداد منفردة أو مجتمعة وحدات واعداد صحيحة وتتم عملية الوعي الحسابية بصعوبة وبطء لذلك كان الجمع والمقابلة لها معنى واحد من حيث النتيجة » . ومرة أخرى في (المحاضرات الفلسفية) نعثر على أحد أقواله الكثيرة كما تقول كاثلين كوبورن يتنبأ فيها بفرويد بشكل مدهش : « التربية الاولى التي نتلقاها من امهاتنا ، انما نتلقاها عن طريق اللمس ; ونجعل هذه العملية التربوية – ان أردنا التعبير عن ذلك بوضوح – ليس الا امتداداً للوعد باللمس ، ان الحس نفسه حس الرؤية نفسه مكتسب فقط من التذكر الدائم للمس » . تبدأ فاعلية الطفل الحسية بتعرف مباشر ودقيق للاشياء (بما فيها نفسه) وتصبح ، مع نمو البصر وازدياد حدته ، وقدرته على التمييز ، والرؤية البعيدة التفصيلية ، نوعاً من المعرفة أشد احكاماً واكثر كمالاً .

إن رؤية اشكال الاشياء تحل محل الشعور بمادتها كنوع مهيمن من التجربة . الا ان في المعرفة المستمدة من البصر وضوحاً مضللاً يصرف عن العقل التأمل ، وكمالاً مقنعاً يخدع العقل بيقين سلبي متصلب . وفي رأي كولردج أن الغاية الرئيسية من

التربية هي انقاذ الطفــل من « استبداد العين » وتلك نتيجة يجب الوصول اليها عن طريق غرس وعي أكبر لدى الطفــل في استخدام الكلمات . ويكتب كولردج عن الطفل المدرب كثيراً يمكن أن يستفاد منها كمثال لعالم النفس المختص بالوراثة وتحذير له في آن واحد :

سيكون نفسه في مأمن من الفكرة المضللة التي تقول بأن غير المتصور هو أيضاً غير مفهوم . وتحرير العقل من استبداد العين هو الخطوة الاولى لتحريره من تأثيرات الحواس والمشاعر والعواطف وتداخلاتها بصورة عامة . وهكذا ، من المفيد جداً أن تستنهض القدرة على التجريد وتتقوى وتعود وان قدرة التجريد هذه هي التي تميز بشكل رئيسي الفهم الانساني عن فهم الحيوانات الراقية – وعلى المستويات المختلفة الـتي تبلغها هذه القدرة يقوم تفوق انسان على انسان آخر .

ان اتجاه تفكير كولردج المغاير كل المغايرة للرأي المعاصر هو أكثر أهمية مما يحويه قوله من معان واضحة . فبينما يتسم الرأي المعاصر بالتراجعية والتركيز على ظروف الأصل نجد كولردج مستقبلياً وولوعاً بامكانات اكتساب المعارف . انه ينظر الى الأمـام أكثر من الخلف ، الى الخاتمة أكثر من السبب المؤثر . والانحراف المعاصر ، الذي تسلل الى الفكر التربوي بتأثير علوم أكثر تقليدية ، قد تأكد بتمثل دراسة التربية للعلوم الاجتماعية تمثلا عاماً . وقد قاد افتتان علماء الاجتماع بتعداد الأسباب، بصورة خاصة ، المربين الى الاهتمام اهتماماً أكثر مما يجب بتحليل الدوافع وأقل مما يجب بطبيعة الحوافز . غير ان فكرة الحافز الواعي جزء هام أساسي من مفهوم التربية . والتربية ، كما يتجلى من الخبرة، يمكن أن تعرف بأنها تحويل الدوافع الضرورية المضطربة المتبخرة الى حوافز حرة متروية ثابتة . والافتراض بأن الدوافع هي التي تصنع الانسان – الذي يعتمد عليه علماء الاجتماع وتابعوهم من التربويين – مناقض تماماً لما يراه كولردج . فقد كتب :

وليست الدوافع هي التي تتحكم بالانسان بل الانسان هو الذي يصنع الدوافع ؛ وهذه الدوافع ولاشك مختلفة ومتغيرة كالحرباء لذلك كان من الصعب بقدار ماهو مسألة حياد مقارن لحسن الحظ ، ان اقرر اي دافع انساني لهذا الفعل او ذاك . والحكيم لابد ان يتساءل ماهي اهداف الانسان بوجه عام – في اي شيء يرغب عـــادة ؟ »

انه لمن واجب المعلم دائماً أن يصوغ تساؤل تلامذته هذا على هيئة سؤال غير

مباشر، ولا بد أن يكون هدفه أن يستثيرهم ليجعلوه من تلقاء أنفسهم سؤالاً مباشراً ، فهم لن يستطيعوا بلوغ مفهوم كاف لانسانيتهم التي هي في وقت واحد واعية ومسؤولة حتى يفعلوا ذلك، لأن مناقشة الحوافز على اساس معيار القيم هي شرط المران على المسؤولية. والصعوبة المادية التي يواجهها المربي في عمله لتزداد حدة في زمن يزداد فيه ظروف الحياة ضمن كتلة اجتماعية في تحديد مساحة مسؤولية الفرد يوماً عن يوم ، وحينما يكون تأثير النظريات الموقوفة على تمييع فكرة المسؤولية قادراً على قصر الشخص الانساني على نقطة عقيمة في مركز دائرة محصورة . عالم الاجتماع ينزع المسؤولية عن الفرد ويحولها الى المجتمع والمحلل النفسي يدفع بها الى ما تحت الوعي في أعماق ليس لها قرار .

والمسؤولية بالنسبة لكثيرين من المفكرين المعاصرين لا تعدو كونها حيلة عملية ، أو وهماً فاعلاً أو خطأً تنظيمياً . لكن التربية ليست الا من أجل الوعي والمسؤولية، وهي منذورة لتنقية الوعي وادراك المسؤولية ، وهدفها الدائم هو تعزيز الوعي بالمسؤولية . وما لم يفكر المربون بمهنتهم على هذا النحو فلن يمكنهم أن يأملوا في تحقيق نجاح في واجبات مهنتهم والتزاماتهم تجاه المثل المتحضرة . وخاصة تعزيز قدرة تلامذتهم على الصمود في وجه ضراوة محيط همجي . إن أعمال كولردج وخاصة كتاباته عن الطفولة لتمدنا بنظرية مبنية على الطبيعة على الانسانية ومؤيدة بالتاريخ عن مقاومة الانسان لطغيان الخرافية .

مقابلة مع

د. عبد الكريم أحمد

عن التيارات التي تتجاذب الثورة القوميّة الاشتراكيّة

في اواسط شهر آب (اغسطس) زار دمشق الدكتور عبد الكريم احمد واقام بعضاً من الوقت يستجم في مصايفها . وقد دارت بيننا وبين المفكر العربي مساجلات حول قضايا الوحدة والاشتراكية ، ولم ندهش للتماثل بين افكارنا حول هذه القضايا ، فقد

عرفنا المفكر الدكتور عبد الكريم احمد عبر ابحاثه القوميـــة المستفيضة في مجلة « الكاتب » ، وكتبه الكثيرة ، ومن ابرزها :

« القومية والمذاهب السياسية » ١٩٦٤
« اسس التنظيم السياسي » ١٩٦٨
« دراسات في تاريخ النظرية السياسية » ١٩٧١
« دراسات في النظرية السياسية الحديثة » ١٩٧٣
من مطبوعات معهد الدراسات العربية
« بحوث في الاشتراكية » ١٩٧٢
« وسيصدر في نهاية هذا العام
« قضايا الفكر الناصري » .

ـ هناك الآن نوع من الاجتراء على الفكر القومي بصفة عامة ، وهو امر لم يكن ممكناً بمثل هذه الحدة قبل هزيمة حزيران .

ـ ان التغيرات التي حدثت في أعقاب حزيران ١٩٦٧ أوسع نطاقاً وأبعد مدى من أن نجعل ظاهرة الاجتراء على الفكر القومي محوراً لها ـ وإن كنت أوافق على ملاحظتكم من أن هناك اجتراء على الفكر القومي في هذا الوقت. فأنا أعتقد أن هذه الظاهرة هي جزء من ظـاهرة أوسع هي مالحق بوطننا من تفكك فكري وثقافي ومعنوي بشكل عام . والملاحظ أن هذا الاجتراء يحدث على يد أشخاص ذوي ميول واتجاهات معينة ندرك جميعاً أن ما تحتويه ضمائرهم من نفور من القومية العربية ، بل وربما كراهية لهـا ، كان دفيناً في نفوسهم قبـل ١٩٦٧ وليس جديداً عليها . وهذا أمر طبيعي . فلابـد أن مسيرة شاملة كالمسيرة العربية ، بما تنطوي عليه من عناصر اجتماعية وحضارية ، لابد أن تثير الحفيظة في نفوس الكثيرين ، ولابد أن تترك النجاحات التي حققتها هذه المسيرة في الخمسينات والنصف الأول من الستينات أثرها في اؤلئك الذين تتعارض القوميـة العربية مـع مصالحهم أو مـع أهوائهم ، ولذلك فأنا ، وان كنت لا أدعو إلى اغفال أثر مثل هـذا الاجتراء وتجاهله ، الا أني

لا أقيم له ذلك الوزن الكبير الذي يبدو أحياناً ان بعض المخلصين يقيمونه له . ولكن الذي أقيم له وزناً أكبر ويحز في نفسي أكثر هو أن آثار التفكك الذي نجم عن هزيمة حزيران قد أصابت المخلصين أيضاً بحيث أصبحنا نرى وهناً في العزائم ، وضيعة في التفكير وتخبطاً في التقييم وفي استقراء دلالات الأمور ، واستخلاص الآراء والأفكار منها .

فمجلتكم ذاتها – وهي منبر أعتز به وأحس بالدور الايجابي الذي تقوم به في هذه الأوقات العصيبة – قرأت فيها لكاتب شاب أحترمه ، دراسة بعنوان « غياب الفكر القومي» (١) ينعي فيها ضيعة التفكير في مشاكل القومية العربية ، وهبوط الأصوات التي كانت تتناولها بغزارة ، ويطالب بفكر موحد .

« صوت واحد لاتعلو عليه أصوات « أخرى . وهذا امر يحتاج منا الى وقفة . فالسؤال الذي تبادر إلى ذهني ، هو : هل وجود صوت واحد لاتعلو عليه أصوات أخرى في مسيرة ضخمة مثل حركة القومية العربية ، دليل صحة أم دليل مرض ؟

ان صاحب الدراسة يستعين بالتاريخ ليدعم أقواله . وقد أخذ عن التاريخ أن الوحدات القومية الكبرى لم تتحقق الا لان فكرة موجهة واحدة « عقيدة كبرى » ، « ايديولوجيا واضحة وصلبة » كانت تقف وراءها .

ولست أعرف أية وحدة كبرى تحققت بهذه الصورة بايطاليا ، وهي أنموذج من نماذج قوميات القرن التاسع عشر التي يمكن أن نصفها بأنها كبرى ، كانت فيها ثلاثة تيارات فكرية رئيسية : المحافظ ، ويمثله جيوبرتي ، والتيار الليبرالي ويمثله كافور وجماعة البعث ، والتيار الراديكالي ويمثله مازيني وحزب ايطاليا الفتاة . وصحيح أن تيار كافور هو الذي انتصر في آخر الامر وتحققت على أساسه الوحدة الايطالية ، ولكنني أعتقد اننا جميعاً كنا نتمنى أن ينتصر مازيني .

وفي الوحدة الالمانية ، وهي نموذج آخر من نماذج القوميات الكبرى في القرن التاسع عشر ، كان هناك تياران : تيار محافظ بزعامة بسمارك ، وتيار ليبرالي تجسد في برلمان فرنكفورت الذي أراد أن يمنح تاج الوحدة لملك بروسيا فرفضه . وصحيح ان الذي انتصر في نهاية المطاف هو تيار اليونكرز بزعامة بسمارك ، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن والعالم كله يتمنى لو أن برلمان فرنكفورت انتصر .

في مسيرة الامة العربية الآن وهي احدى الحركتين القوميتين الكبيرتين في القرن العشرين، توجد عدة تيارات تجمعها خطوط

(١) الاشارة هنا إلى دراسة صفوان قدسي المنشورة في العدد ١٣٧ – تموز ١٩٧٣ من «المعرفة».

رئيسية ثلاث : فهناك الرجعيون الذين ينادون بوحدة بلا مضمون ،وكلنا نعرفهم. وهناك المحافظون ، الذين ينادون بوحدة « واقعية » المضمون ، وهم معروفون أيضاً. وهناك التقدميون الذين يرون في الوحدة اطاراً لدعوة اجتماعية محدودة الابعاد تستهدف تكافؤ الفرص بين المواطنين ، وزيادة الناتج الاجتماعي الى اقصى حدوده.

— ولكن كلمة « تقدميين » صار لها معاني متعددة .

— أنا حددتها وقلت :

أولاً قوميون ثم تقدميون . أي أنهم يرون في القومية مسيرة ذات مضمون اجتماعي يستهدف تكافؤ الفرص بين المواطنين جميعاً وتذويب الفوارق بينهم

ولكل من الخطوط الرئيسية الثلاثة في الفكر القومي العربي التي تحدثنا عنها انصاره ودعاته وكتابه فاذا كانت الظروف الحالية التي تمر بها الأمة قد أدت إلى ارتفاع بعض هذه الاصوات أكثر من حقها ، وما تمثله فعلاً ، والى خفوت أصوات أخرى تستحق مساحة أوسع من صحفنا وكتاباتنا ، وإذا كنا جميعاً نتمنى ـ نحن التقدميين ـ أن تعلو هذه الاصوات الخافتة ، وتخبو بعض الأصوات المرتفعة الآمنة في ظل هذه الظروف فان ذلك لا يعني أننا وحدنا أصحاب الحق في التحدث باسم الوحدة العربية أو أن نعطي لانفسنا رخصة باسكات كل الاصوات الاخرى فلا يبقى سوى صوت واحد لا تعلو عليه الاصوات الاخرى ، هو صوتنا .

— اعتقد ان الكاتب المشار اليه أراد أن يقول انه لا يجوز باسم الديمقراطية وحرية التعبير عن الرأي ، ان نحمل على قومية جريحة ومهددة مثل القومية العربية ، وأن يسود الفكر الاقليمي الانعزالي ، وأن يكبت الصوت القومي الذي هو الصوت المعبر عن رأي الأغلبية العربية .

— أنا أوافق على أن ذلك كان فعلاً هو هدف الكاتب . وأوافق أيضاً الى حد كبير على أن استخدام شعارات الديمقراطية وحرية التعبير بين مثقفي الوطن العربي يخفي أحياناً أهدافاً غير تلك التي يعلنها الكاتب وفي رأيي أن استخدام النافرين من الحركة القومية العربية وآثارها في المجتمع العربي لهذه الشعارات بالذات في هجومهم عليها ، دليل على فقر الحجة وبلبلة الفكر . فالديمقراطية وحرية التعبير للمواطنين العرب من جوهر ايديولوجية الحركة العربية وأهم أهدافها انما أخذت على المقال هو تصور « غيبة الفكر القومي » ، فهذا لا أوافق عليه ، وكذلك الامنية التي أعرب عنها الكاتب بأن لا يكون هناك سوى صوت واحد لا يعلو عليه صوت آخر ، فهذا في رأيي ليس من الديمقراطية في شيء ، وضرره أكثر كثيراً من نفعه .

ـ هــل ترى أن هناك جديداً في الفكر العربي القومي منذ أن قامت الوحدات الكبرى حتى الآن .

عندما نستعرض الفكر القومي العربي ، منذ ساطع الحصري ومدرسته حتى الآن ، نرى أمامنا مرحلتين متمايزتين ، تقف بينهما فترة من التذبذب أو عدم وضوح الرؤية . المرحلة الأولى تمتد عبر العشرينات والثلاثينات ، الثانية استمرت طوال الاربعينات وأوائل الخمسينات ، وفترة التذبذب شغلت الاربعينات وأوائل الخمسينات ، أما المرحلة الثانية فهي التي نعيش فيها الآن . وكان الفكر في المرحلة الأولى الذي تمثله كتابات ساطع الحصري من نوع ما يمكن أن يطلق عليه اسم الحركة الوحدوية البحتة التي تطلب « الوحدة بأي ثمن » وتتهرب من كل المشاكل السياسية والاجتماعية خوفاً على جهود الوحدة من التحطيم ـ وكأن الوحدة يمكن أن تتم بمعزل عن الناس وشؤونهم . وكانت النظرية الاساسية القومية العربية في هذه الفترة هي النظرية الالمانية التي تعتبر أن هناك شروطاً موضوعية محددة ، كاللغة أو الدين أو الاصل مثلاً ، حتى إذا توفرت في إنسان أصبح مواطناً سواء أراد أم لم يرد ، أو كما قال فيشته « سنوقظه رغم أنفه » .

وفي فترة التذبذب التالية ، تبين لدعاة المسيرة انه لا حركة قومية بلا مضمون اجتماعي وسياسي ، وان الدعوة الوحدوية التي تنمو هذا النمو دعوة جوفاء يشيرها عدم ادراك حقيقة الامور أو غرض معين لا يريد صاحبه الافصاح عنه . وبدأ قادة المسيرة ومفكروها يبحثون عن مضمون لحركتهم ، وكانت فترة تخبط ، فقد انقسموا الى شيع بعضها يمكن أن نطلق عليه ليبرالية بمعنى ما ، وبعضها نستطيع أن نصفه بأنه تقدمي ، بل ان بعض هذه الشيع حاولت ان تتخذ من ايديولوجية لاقومية هي الماركسية مضموناً لحركة القومية العربية .

وظلت الامور على هذا المنوال الى أن بدأت تتضح الرؤية لبعض قادة العرب فبدأت المرحلة الثانية التي تميزت بأمرين جديدين أضيفا إلى الفكر القومي العربي . يتمثل الأول في تلك المحاولات العديدة التي بذلت لوضع مضمون تقدمي محدد الابعاد للوحدة العربية ينبثق من واقع الأمة وظروفها ، ويتلمس أفضل ما تضمنه الفكر العالمي والتجارب السابقة . والثاني هو نبذ النظرية الالمانية في القومية كلية وتبني نظرية « المشيئة » التي تعتبر عربياً من يعلن انتماءه الى الأمة العربية بارادته وحريته وليس « الاستفتاء » الذي حدث فيما يتصل بالاتحاد الثلاثي الا تعبيراً مجسداً عن هذا التحول . وبذلك صينت للمواطن العربي كرامته

واحترمت ارادته وتحققت ، نظرياً على الاقل ، حريته في الانتماء .

– اشرتم في مطلع حديثكم الى انه وجدت في فترة التذبذب والبلبلة جماعات من الشباب القومي العربي حاولت ان تتخذ من ايديولوجية لا قومية مضموناً للحركة القومية العربية. هل لكم ان توضحوا هذه النقطة ؟.

– هذا موضوع كثر فيه الحديث وتناولته اقلام كثيرة ، منها قلمي . ولذلك ما كنت أرى الافاضة فيه ، خصوصاً وان التقدميين العرب جميعاً مطالبون بالتكاتف في الوقت الحاضر والتلاقي في مواجهة الهجمات الضارية التي يتعرض لها المجتمع العربي في صميم قوميته وفي صميم حركته الاجتماعية معاً. ان ذلك اصبح واجباً على كل التقدميين العرب سواء أولئك الذين اعتنقوا الفكرة القومية أساساً وجعلوها هدفهم الأول ، أم التقدميين الذين جعلوا هدفهم الاساسي هو التغيير الاجتماعي وقبلوا القومية ، مرحلياً .

ولكن من ناحية أخرى ، ما زلت أعتقد اننا يجب ان نحدد بصورة واضحة العلاقة بين القومية والاشتراكية ، ولو كاساس للتحالف الممكن بين هذين الطريقين ، والعلاقة بين القومية والاشتراكية قصة طويلة تبدأ بمولد الاشتراكية العلمية . فمنذ اللحظة الاولى هاجم دعاة الاشتراكية العلمية القومية وقادة حركاتها في اوربا في منتصف القرن التاسع عشر . وجاء البيان الشيوعي يحمل مؤشرين واضحين لهذا الموقف . الاول هو التركيز على الصراع الطبقي واتخاذه محوراً للهدم والبنـاء الاجتماعيين ، فالصراع الطبقي في الاشتراكية الماركسية هو محرك التاريخ . ومن الجلي ان « القومية » التي تقوم على فكرة « وحدة » الأمة لا بد أن تصطدم في بعض جوانبها بذلك المركز الفريد الذي يحتله الصراع الطبقي في الماركسية .

والثاني هو دعوة العمال الى نبذ أوطانهم، فالعامل في البيان الشيوعي لا وطن له ، انه ينتمي – وينتمي فقط – الى طبقتـه ، وكل الانتماءات الأخرى زيف وضلال وعرقلة لسير التاريخ . ورغم المحاولات التي بذلها بعض كبار المفكرين من الاشتراكيين في تفسير قول ماركس « إن العامل لا وطن له » بأنه انما كان يعني ذلك في وقت لم يكن للعـامل فيه شيء في وطنه ، حتى ولا حق المشاركة في توجيهه سياسياً عن طريق الانتخابات العامة ، وانه متى توفرت للعمال حقوقهم ، يصبحون مواطنين لهم في وطنهم نصيب ، برغم هـذه المحاولات فانه من الواضح من سياق « البيان » ومن الفكر الماركسي بأكمله أن ماركس لم يعن إلا أن العامل ليس لديه بحكم سير التاريخ سوى انتماء واحد هو الانتماء الطبقي . وأن « الأمـة » مقولة عفى عليها الزمن ولم تعد تستحق من الانسان انتماء .

وكان من الطبيعي أن يتخذ ماركس هذا الموقف في ذلك الوقت . فالحركات القومية في أوربا في عهده كان يقودها بورجوازيون – والسبب في ذلك واضح ، اذ كانت الطبقة الوسطى البرجوازية هي الطبقة التي قادت التقدم البشري وأخرجت المجتمعات الأوروبية من ظلام الاقطاع الى العصر الحديث . ولما كانت «القومية» في جوهرها ظاهرة تقدمية فانها جندت قادتها من بين هذه الطبقة ، وسنراها تجندهم من فئات أخرى عندما يزول طابع التقدمية من الطبقة الوسطى ، والحركة العربية نموذج لهذا التطور . وبسبب قيادة البرجوازيين للحركات القومية الأوروبية ناصب الاشتراكيون العلميون هذه الحركات العداء ، واعتبروها برجوازية بطبيعتها ، وهو أمر يدلنا التاريخ المعاصر على أنه غير صحيح على علاته .

وهكذا اشتعلت أوروبا بذلك النضال الضخم بين دعاة الاشتراكية العلمية وقادة الحركات الوطنية ، مثل مازيني الذي قضى السنوات العشر الأخيرة من حياته يهاجم الاشتراكية في كل كتاباته وأقواله وتصرفاته.

ولكن العمال بشر والبشر في هذه المرحلة من تاريخهم ينتمون الى أوطان ، وما كانت دعوة « البيان » لتنتشر في تلك الظروف التي احتدمت فيها المشاعر القومية في أوروبا بين الجماهير . وسرعان ما تبين لقادة الحركة الاشتراكية العلمية أن هذه المشاعر قد تقوض دعوتهم . وظهر ذلك بوضوح في الحركة المجرية عندما نبذ العمال والفلاحون المجريون دعاة الاشتراكية والتفوا حول قادة حركتهم الوطنية من البرجوازيين الذين رفعوا علم التحرر من نير النمسا .

وبدأت بين بعض مفكري الاشتراكية دعوة الى محاولة التوفيق بين الحركتين . وكان زعماء الحزب الديمقراطي الاجتماعي (الماركسي) من أبرز هؤلاء الدعاة ، وحاولوا أن يجدوا التوفيق المنشود في مفهوم « القومية الثقافية » : فالانتماء القومي مثل الانتماء الديني أمر شخصي يستطيع كل انسان أن يحمله معه كمعتنق خاص به . ولكن المحاولة فشلت طبعاً . وبعد عدة محاولات أخرى كانت محاولة ستالين ، في دراساته التي كتبها تحت اشراف لينين مباشرة أثناء الحرب الكبرى الأولى ، والتي يظهر فيها فكر لينين كما عرفناه فيما بعد في « الأمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » . ونمت هذه المحاولة وتبلورت شيئاً فشيئاً في اتجاهات مختلفة محورها ضرورة قبول « القومية » مرحلياً باعتبارها جزءاً من الثورة «الديمقراطية – البرجوازية » التي لا بد من استكمالها حتى يمكن السير قدماً في بناء الاشتراكية .

وفي الأربعينات والخمسينات من هذا القرن ظهر اتجاه جديد على رأسه بعض كبار المفكرين مثل فرانز بوركناو و ا . ه . كار ، يتضمن فكرة « تشريك القومية » أو «تأميم

الاشتراكية ». فقد تأثر أصحاب هذا الاتجاه بالحركات القومية ذات المضمون الاجتماعي المحدد التي اجتاحت البلاد النامية ورأوا فيها دليلاً حاسماً على أنه ليس هناك تعارض بالضرورة بين الاشتراكية والقومية. بل إن بعضهم ذهب الى أن الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق بادىء ذي بدء الا كضمون لحركة قومية.

وفي فترة البلبلة التي تحدثت عنها بين مرحلتي الفكر القومي لم يكن الشباب الذين أرادوا أن يتخذوا من الماركسية مضموناً للحركة القومية العربية قد وعوا كل هذه الاعتبارات وقبلوا الماركسية بقضها وقضيضها وفي صورة غير متطورة كايديولوجية اجتماعية، ولم يكن ماوتسي تونغ قد خرج على العالم بعد بمفهومه عن « الديمقراطية الجديدة » التي أقلمت الصراع الطبقي بضرورة الوحدة القومية فجعلته دافعاً لها لا متناقضاً معها.

ان الأغلبية الساحقة من قادة الحركات القومية في القرن العشرين أدركوا أن القومية المعاصرة لا حياة لها دون مضمون اجتماعي محدد يستهدف اعادة حق الجماهير اليها. « مبادىء المعيشة الثلاثة » التي نادى بها صن يات صن، و « الديمقراطية الموجهة » التي نادى بها نهرو والاشتراكية الافريقية التي نادى بها نكروما، والديمقراطية الاشتراكية التعاونية التي نادى بها عبدالناصر.. كلها دليل على ذلك، ولكنها جميعاً أخذت عن ماو كيف يطوع الصراع الطبقي لتحقيق الأهداف القومية.

وفي ضوء هذه الحقائق، وفي مواجهة العدو المشترك، يستطيع التقدميون – بل يجب عليهم – أن يتكاتفوا في مواجهة العدو المشترك وتحقيق الأهداف المشتركة.

* * *

ملامح الجزائر في شعر الثورة

الدكتور صالح الخرفي

الجزائر وطن الطبيعة الساحرة ، والسهول الخضراء ، والشمس المشرقة، والجبال الشاهقة ، والأودية السحيقة ، والمنابع المتفجرة ، والسيول المتدفقة .

الجزائر . الارض الخصيبة ، ثماراً ، وكنوزاً ، والسماء الكريمة ، دفئاً وأمطاراً .

الجزائر . جامعة الحسنيين ، السواحل المتموجة ، والقفار المترامية ، ومعانقة الحضارتين ، الصحراء بملامحها العربية ، والسواحل بحضارتها الاوربية الحديثة .

الجزائر . العريقة تاريخاً وحضارة ، المتشامخة أمجاداً وبطولات .

لن تحلم ربة الشعر بأروع من هذا الوطن عروساً للالهام ، ولكن المأساة الاستعمارية خلعت على هذه المفاتن غلالة سوداء ، فاذا جئت تتلمس لتلك الملامح الرائعة انعكاساً في الشعر الحديث في الجزائر ، وجدته انعكاساً يعلوه الضباب ، ويجلله السواد . فهو صورة للغلالة السوداء ، لا للطبيعة الفاتنة . والمأساة التي أسدلت السواد ، احتفظت لها بالوجه المشرق من الوطن ، فلا غرابة أن نجد انعكاساً لهذا الاشراق في أبناء المستعمر من كتاب (مدرسة الجزائر) (١) ونفتقده في الذين يشاطرونهم الكتابة باللغة الفرنسية من أبناء الجزائر ، فبينما تطفو على كتابات اولئك ارتسامات الطبيعة الأخاذة في الوطن المشرق، ترسو في كتابات هؤلاء الأنة العميقة من المأساة الجاثمة على وطنهم . وحتى القصص التي التصقت بالجبال الشاهقة في بلاد القبائل ، وصفا للحياة فيها ، وللناس الذين ينحتون من صخورها بيوتاً ، لا تجدهـا صورة للطبيعة ، بقدر ما هي صورة للحيـاة البائسـة التعيسة (٢) . قال محمد العيد يخاطب الجزائر :

فيا لك فردوساً ، تحولت دمنة ويا وحشتا من أغرب فيك نعب[٣]

وقامت الثورة لتجدد الحنين الى التربة ، وتبعث الاعتزاز بالارض الخصيبة ، وتسترجع للفردوس المفقود ، فتغنت القصيدة بالجزائر كما لم تتغن بها من قبل ، وأفاضت في وصف مفاتنها الطبيعية . ويوم امتزجت الطبيعة الساحرة في الجزائر بالمواقف البطولية الرائعة ، ازداد الشعر افتتاناً بهذا الوطن ، حتى كدت تفتقد منظراً من الطبيعة لا تعلوه مسحة ثورية .

---

(١) ظهرت هذه المدرسة في الأربعينيات ومن بين كتابها : (فافر FAVER) و (روبليه ROBLES) و (جابرييل اوديسيو GABRIEL AUDISIO) و (كامو CAMUS) .

والدكتورة سعاد محمد خضر في كتابها (الأدب الجزائري المعاصر) تلخص نظرة هؤلاء إلى الجزائر بقولها : « كانت الجزائر بالنسبة لهم الولاية ذات الطبيعة الجميلة والشمس المشرقة ، حيث يمكن لهم أن يقضوا أوقات راحتهم ، أو اجازات أعراسهم على شاطىء البحر بين أقربائهم وأحبائهم من الاوربيين الذين يعيشون سعداء في بلد تسطع فيه الشمس دائماً » . الأدب الجزائري المعاصر . منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٩٦٧ .

(٢) نلمس ذلك مثلاً في قصص (مولود معمري) وخاصة قصته (الهضبة المنسية) .

(٣) الديوان : ص : ٢٨٨ .

وإذا كانت الثورة بعثاً للجزائر بملامحها الرائعة في الشعر الجزائري فأحرى أن تكون مولداً جديداً لها في نظر العالم ، فان الوطن الذي عرف بـ (القطعة من فرنسا) وعرّفت فرنسا له بـ (الوطن الأم) افتقدته الخارطة منذ ما يقرب من قرن ونصف كوطن له شخصيته المستقلة ، وملامحه المتميزة ، وجاءت الثورة لتحدد هذه الملامح بالدماء والدموع ، ولتؤكد ذلك الاستقلال بمواكب الشهداء ، فلا غرو أن يبعث هذا القطر ، ويزف الى أدمغة الجغرافيين . وكأن الارض تنشق عنه من جديد ، والجبال تتمخض به مولوداً بكراً .

وان الشاعر الجزائري ليقف من هذا الميلاد المشهود وقفة النخوة والاعتزاز ، فاسم الجزائر الذي كانت تتعثر فيه الاقلام ، وتتلعثم به الألسن ، أصبح ملء سمع الدنيا ، وربما تحامل (سعد الله) في شيء من التجني على الجزائر ، إذ راعته هذه الانتفاضة التاريخية من الارض السكرى بـ (أفيون) الولاء ، فتعجب للحلم كيف تحقق ، ولل (أفيون) كيف انقلب ناراً في العيون ، وللولاء المخدور كيف تصاعد ثأراً وانتقاماً ، وللأرض الوادعة الساكنة كيف صارت حمماً وشظايا . وماهي بالارض السكرى ولا الوادعة ، ولا بالأفيون ولا الولاء ، فان الجزائر لم يغف لها جفن ، ولا اطمأن لها خاطر ، ولا تخدر لها عرق منذ وطئتها أقدام المحتل . ولكنها روعة الميلاد ، وحرقة الانتظار :

كان حلماً واختياراً
كان لحناً في السنين
كان شوقاً في الصدور
أن نرى الأرض تثور
أرضنا بالذات ، أرض الوادعين
أرضنا بالذات ، أرض الكرماء
أرضنا السكرى بأفيون الولاء
كان شوقاً ، كان لحناً ، كان حلماً
أن نرى الأرض تثور
أن نرى الأفيون ناراً في العيون
غير أن الليلة الليلاء شفت عن بطولة
والنداء الحر قد هز الرجولة
والشتاء السادر المقرور قد عاد ضرام
والولاء الواقر المخدور قد عاد انتقام(١)

---

(١) (النصر للجزائر) صفحة : ٩ . دار الفنا للطباعة . القاهرة ١٩٥٦ .

و (مفدي زكرياء) يهلل للجزائر الجديدة ، للجزائر المعجزة ، ويستجلي في ملامحها قطعة قدسية، وقصيدة أزلية ، مطلعها غرة نوفمبر ، ويفتش لصدى اعماق العالم ، تحنو له الجبابر ركعا ساجدين ، يتلقون بشائر مولدها بالدماء والمدافع ، بعد جحود ونكران . و (مفدي) في تغنيه بالجزائر ، وافتتانه بها يسمو سمواً فريداً ، يتخطى الجمال الحسي في الطبيعة ، تخطيه الجلال الحسي في البطولة ، الى صور خيالية مجنحة ، واطلالات علوية رائعة لاتخطئها المبالغة أحياناً ، ولكنها مبالغة مستحبة ، تجد لها من المواقف البطولية شفيعاً ، ومن الثورة الصاعدة اذنا بالتغلغل في النفوس :

وقل الجزائر ، واصغ ان ذكر اسمها ... تجد الجبابر ساجدين وركعا
ان الجزائر في الوجود رسالة ... الشعب حررها وربك وقعا
ان الجزائر قطعة قدسية ... في الكون ، لحنها الرصاص ووقعا
وقصيدة أزلية أبياتها ... حمراء ، كان لها (نوفمبر) مطلعا
سمع الاصم رنينها ، فعنا لها ... ورأى بها الأعمى الطريق الا نصعا
ودرى الألى جهلوا الجزائر ، أنها ... قالت : أريد ، فصممت أن تلمعا
ودرى الألى جحدوا الجزائر ، أنها ... ثارت وحكمت الدما والمدفعا (١)

و (مفدي) ذو قدرة في استعمال التعبيرات الفخمة كـ (القدسية) و (الالوهية) و (الأزلية) و (المنتهى). ومعتصم بالقبة السماوية ، لايتزل عنها ، ينثر منها الأوصاف على صوره الشعرية ، ويوزع القداسة على مرابعه الغالية ، فالشاعر الذي أله الرشاش هناك يؤله الجزائر هنا ، ويرقى بحبها الى درجة العبودية له ، ووضعه الى جانب حب الله :

أرض الجزائر في افريقيا قدس ... رحابها من رحاب الخلد ، أن صدقوا
أحبها مثل حب الله ، أعبدها ... آمنت بالله ، لا كفر ، ولا نزق (٢)

والجزائر عند (سعد الله) صفحة رائعة من الخلد ، ودنيا ثرة بالرؤى اليانعة ، وانها لتستمد هذه الروعة كلها من يدين عملاقتين تتلاقيان على عنق الغاصب ، وقبضتين تشدان على أنفاسه الجائمة :

---

(١) (اللهب المقدس) صفحة : ٥٨ . المكتب التجاري . بيروت ١٩٦١ .
(٢) المرجع السابق ، صفحة : ٢٦ .

بلادي الجزائر ، اذ تجتليها   تر الخلد في صفحة رائعة
بلادي التي تطلع الشمس فيها   دماء تضيء الربا اليانعة
بلادي التي تلتقي قبضتاها   على عنق الغاصب الجائعة

والجزائر (مرتع الاشباح) عند (خمار) والاشباح هذه ليست من نسج الخيال، أو خلق الشعر ، ولكنها من وحي الغابات والادغال ، وهي لفظة أطلقتها السلطات الفرنسية على أبطال المقاومة في الجزائر ، والاشباح هذه هي التي أعطت للغابات الجزائرية وجبالها الخضراء معنى غير المعنى الرومنطيقي ، والرؤى الحالمة التي طالما تغنى بها الفرنسيون وترنحوا في ربيعها الدائم . و (مصطفى الاشرف) يحدو إلى هذا الوجه البطولي للغابات ويعود بها إلى عراقة تاريخية في الطبيعة العربية :

« ولسنا ندعو الشعراء إلى مدح طبيعة مزوقة ، ملطخة ، مخنثة ، طالما أشبعنا وصف ربيعها، وأرووانا إلى حد السأمة والتخمة ، وانما هي طبيعة (الشنفري) و (الطرماح) ذات الذئب والطير ، وطبيعة (ذي الرمة) ، و (ابن شهيد) ذات الجن والغول ، وغابات أساطيرنا الشعبية التي تكفل اليتامى وتجعلهم يأنسون الوحوش ، ويؤنسونها . والغابات معان أخرى لا تنتمي الى النشوى الرومنطقية ، بل إلى مفاهيم الحرية العاملة ، واباء الضيم ، والخفاء الايجابي ، والالتجاء الى الغاب(٢) » . ويقول (خمار) :

يا مرتع الأشباح ، يا دغل المخاوف ، يا رهيبة
يا أنت ، يا أرض الجزائر ، حدثيني يا حبيبة
هل تذكرين رؤى الربيع على روابيك الخصيبة
ثوب السنين القانيات ، رمتك في دنيا غريبة(٣)

ومع التغني بالارض ، بكل شبر منها ، ومع الاعتزاز بمرتع الاشباح ، ومع النشوة بالقطعة القدسية ، يتصاعد الاصرار على الانتماء ، وتتجسم في الذرة من التراب الوجود النابض للانسان الذي يقف عليها . ويلتصق الاخمص بالارض كلما ازداد

(١) (النصر للجزائر) صفحة : ١١ .
(٢) من مقال في (البطولة في الثورة الجزائرية). مجلة الفكر عدد ٢ نوفمبر ١٩٥٩
(٣) أوراق صفحة ١٦ . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٧ .

جنون العاصفة . وفي قصيدة « ثورة الارض » لـ « سعدالله » تتجلى مأساة الابن الذي ليس له من أمه الارض الا الكوخ تجوسه الرياح ، وينوشه فم الزمان ، الا الحصير مرتع لفلذات الاكباد ، الا الخشونة تلوك جنب الفلاح ، وقبو العفونة يأوي شبحه . ومن هذه الملامح القاتمة ينبعث الاصرار على الالتصاق بالارض ، ومن هذا الضياع عليها ، ينطلق التفاني فيها ، وفي غمرة النكران تكون الابعاد التاريخية لاصالة الارض والمنتمي اليها :

يا مالكين
هذا ترابي من قديم
أسقيه من عرقي ، وأفراحي الحبيبة
أسقيه ذكراي الكئيبة
أسقيه ألحان البطولة
هذا ترابي من قديم
يا مالكين
تفديه كل جوارحي ، ودمي الحميم
يا مترفين
انا هنا ، أبدا هنا
ذعر واعصار ونار
لا شيء يمنع سبلنا
ان قعقعت في أفقكم عزماتنا وسلاحنا
انا هنا ، أبدا هنا
نمشي على الشوك المذرب والحديد
ونشيد دنيا ، من أمانينا الحبيبة
دنيا طليقة
في أرضنا الملأى بطاقات الحصيد
سنعيش أحرارا وصيد
في ارضنا البكر الولود(١)

(١) (النصر للجزائر) صفحة ٢٥ .

ومع الاصرار الالتقائي تتصاعد المقومات الاساسية للوطن ، وتبرز الملامح المميزة له . التاريخ بذكرياته الماثلة ، الدين بعقيدته وايمانه ، القومية بأصالتها وعراقتها ، اللغة بتراثها وحضارتها . ويتغنى الشعر بعروبة الثورة . وعروبة الجزائر كما لم يتغن بها من قبل ، وتنطلق القومية انطلاقة شعرية فيها عنف الاحتباس الخانق لها طيلة الاحتلال الفرنسي ، وتطفو لفظة « العروبة » على كل بيت ، في كل قصيدة وكأن الاصرار من الطرف الآخر على أغنية « الجزائر قطعة من فرنسا » يزيد من جموح هذه اللفظة ، والحاحها على الابيات والقوافي .

وفي ظل لقاء الاخوة العرب، تنتعش النزعة القومية في أبناء الجزائر، ويعاودها الحنين الى البوح، ويزداد الحاحها على تأكيد وجودها ، وعلى الوفاء لعهودها ، فالشرق العربي حتى قبيل اعلان الثورة كان يجهل الكثير عن الجزائر ، وكانت الدعايات الفرنسية من جهة(١) ، والفراغ الذهني في الشرق العربي بالنسبة للجزائر من اخرى، يتضافران على صورة مشوهة ليست من واقع الجزائر في شيء. والملامح القومية في هذهالصورة هي الاكثر اهتزازاً ، والاشد غموضاً . وقد كان لسريان اللغة الفرنسية على الالسنة الجزائرية ، أكبر الأثر في جعل الصورة المشوهة صورة شبه واقعية ، وتأكيد الظنون المسبقة الخاطئة في تقويم عروبة الجزائر .

وبالرغم من أن الثورة كانت تبرهن مع مطلع كل شمس على طينة أصيلة في الجزائر غير هذه الطينة المفرنسة ، التي دأب المستعمر على تأكيدها ، فان هذه الثورة لم تمنع الافكار من التساؤل الحائر عن مصير العروبة في ثقافتها وحضارتها في الجزائر ، والافكار التي كانت تزداد اكباراً للثورة ، مع تصاعد مواقفها ، كان يدركها في الوقت نفسه شعور من الاشفاق ، وربما الهلع على العنصر القومي فيها ، وخاصة اذا احتكمت

(١) ليست الدعايات الفرنسية فحسب ، ولكن الواقع المر الذي كان يخضع له الجزائري في المشرق ، اذ يعتبر من الرعايا الفرنسيين ، والسفارة الفرنسية هي المسؤولة عنه ، وكانت هذه السفارات تتمتع ببعض الامتيازات خاصة في القاهرة ، ودمشق،الأمر الذي يجعل الفرد الجزائري منظوراً إليه من طرف المواطنين المشارقة كأجنبي لهامتيازات عليهم ، يتمتع بحماية السفارة حتى في مجال القضاء . وقد سجل (محمد فريد) بعض هذه المواقف المؤلمة في مذكراته . انظر (محمـد فريد ــ مذكرات وذكريات) ، صبري أبو المجد ، دار الهلال . عدد ٢٢٣ . اكتوبر ١٩٦٩ .

الى الظواهر التي تعتبر في حد ذاتها من رواسب الاستعمار. وعندما تطرح على القارىء العربي افكار جزائرية مترجمة عن لغة فرنسية ، فان السؤال البدهي الذي يترتب على ذلك ، هو : أين الافكار الجزائرية شكلا ومضموناً ؟ وأين عروبة الجزائردماً ولساناً ؟ واذا كانت عروبة الجزائر بخير، فلماذا لاتصلنا أفكارها الا بالترجمة(١) ؟ ، ان القارىء الخالي الذهن من مأساة الاستعمار في الجزائر ، ومن حقيقة الصمود العربي الجزائريلهذه المأساة لن تكون لديه القدرة على مناقشة المشكلة مناقشة تخفف من الاشفاق والهلع ، بل لديه القدرة كلها على التقوقع في الظواهر التي تصدمه وتضاعف هواجسه .

ولقد كان حتماً على الجزائري في المشرق لكي يكون جزائرياً أن يتكلم الفرنسية فاذا نطق العربية وادعى الجزائرية ، قوبل بالدهشة والاستغراب ، وأغرق في بحر من الأسئلة والاستفهام الانكاري . والشعر الجزائري الذي انطلق في المشرق عانى من هذه المأساة والشعراء أبناء الجزائر الذين قضوا أيام الثورة في الوطن العربي ، لم يعيشوا بمعزل عن هذه الغربة في بعض المواقف التي ان لم يكونوا فيها غرباء الوجه واليد ،فقد فرضت الظنون المسبقة أن يكونوا غرباء اللسان .

ولعل الثورة لم تفجر بجرد السؤال عن مصير اللغة العربية في الجزائر ، بل عن وجود الجزائر ذاتها، عن ماضيها ، عن حاضرها ، وانه من المؤلم حقاً أن يستقر هذا السؤال في كثير من الأحيانعلى قاعدة خاطئة، أو يقع على أجوبة وأفكار غير واقعية.

كتب (سعد الله) في مقدمة كتابه (محمد العيد) يقول : « وقد كان يؤلمني حقاً ما عليه المكتبة العربية من فقر في الكتب الادبية والثقافية الشاملة عن الجزائر ، حاضرها وماضيها ، وكان يعز علي حقاً كذلك أن أرى بعض الباحثين العرب يقدمون بعض من كتبوا بالفرنسيةمن الجزائريين على أنهم هم أدباء الجزائر العربية ، وقصاصوها وشعراؤها ومفكروها ، وكنت آسف حقاً أيضاً حين أرى بعض المتخصصين في الآداب

(١) في مقال بعنوان (الأديب والقومية العربية والادب الجزائري المعاصر) يقوم (ابراهيم غافر) ، « أريد ان احدثكم عن مقال كان له هدف مؤسف في الاوساط الادبية الجزائرية المعاصرة.وهو ان استاذنا وعميدنا طهحسين عاب على الكتابالجزائريين التأليف باللغة الفرنسية ، وراح الى ان يقول امام المجمع اللغوي في جلسة من جلساته الأخيرة: ان الاستعمار الفرنسي نال من الكتاب الجزائريين الى درجة انهم فقدوا قوميتهم العربية فـكان حكمه ضمن القساوة بمكان » مجلة (الفكر) التونسية عدد جالثن ١٩٥٨ .

العربية من أساتذة الجامعة والمعاهد العالية ، لايتعرضون لأدب الجزائر القديم أوالحديث ولا يستشهدون لأدبائها وشعرائها حين يدرسون قضية عربية هامة ، شملت الوطن العربي جميعاً (١) » .

ولعل (سعد الله) وهو يشير الى فقر المكتبة العربية ، قد قدم العذر للآخرين ، وخفف الألم عن نفسه وعن أبناء الجزائر من الغربة التي تطاردهم ، فان هذا الفقر في المكتبة قد تقع تبعته على أبناء الجزائر أولا . واذا احتاج اثراء المكتبة الى سنوات مضنية من الجهد والبحث،ففي الوقت متسع لترسيخ الفكرة المبدئية ، وتحويل الأنظار عن الظواهر المضللة . وفي الثورة مجال لالتماس الحجة والبرهان ، قال (مفدى) :

رسول الشرق، قل للشرق: أننا على عهد العروبة سوف نبقى
وإما بالجزائر أنكرونا سنخرق وصمة الاجماع خرقا
لقد زعموا الجزائر من فرنسا وراموا (مزجها) سفها وحمقا
سيعترف الزمان غدا ، بأنا سبقنا وثبة الاقدار سبقا
وانا في الجزائر خير شعب عروبته مدى الاجيال وثقى(٢)

ويتجاوز الشعر عروبة الجزائر الى التغني بالعروبة في وطنها الأكبر ، والتلاحم مع قضاياها وأحداثها ، وتبرهن الجزائرعن وجه آخر من عروبتها الصميمة ، وعن موقف الاخذ والعطاء فيها ، وعن العواطف المتجاوبة في المسيرة والمصير . وبالرغم من أن الجزائر الثائرة ، كان لها في الثورة ما يشغلها عما حولها ، فانها لم تدخر جهداً في أن تعيش القضايا العربية بنفس الروح التي تعيشها اليوم مستقلة ، وقد كانت قضيةفلسطين ولا تزال محك الاصالة العربية في كل قطر عربي ، واسم فلسطين والجزائر تعانقا في أكثر من موقف ، وصدّرا أكثر من قصيدة ، والجزائر لا تزال تخوض مسيرتها المجهولة . يقول (سعد الله) :

(١) (محمد العيد آل خليفة . رائد الشعر الجزائري الحديث) أبو القاسم سعد الله . دار المعارف . القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) (اللهب المقدس) صفحة ، ١٢٢ .

من فم الاطلس نشدو : (وحدة) لا تفصم
من فم الاطلس نشدو : (ثأرنا) المنتقم
من فم الاطلس نشدو : (يا فلسطين) الدم
من هنا ، من قمة مشحونة بالثائرين
سوف يمتد الفدا
لفلسطين التي تتلو الولاء
والتي لما تزل حمراء جرحاً وسلاح
الجروح الراعفة
في بلادي حيث كانت
سوف يمتد الفدا (١) .

وعاصرت الثورة في الجزائر أحداثاً عربية خطيرة في المشرق والمغرب : (استقلال تونس والمغرب) (العدوان الثلاثي) ١٩٥٦ ، وانتفاضة العراق سنة ١٩٥٨ والوحدة بين مصر وسوريا . فلم تكن هذه الأحداث الا مظهراً آخر للتجاوب العربي في تطلعاته ومطامحه ، برهنت فيه الجزائر عن وجه عربي مشرق ، وانعكست هذه الاشراقة على الشعر (٢) .

فلا غرو أن تكون سنوات الثورة الجزائرية تظاهرة عربية تاريخية ، ومرحلة حاسمة من النضال العربي ، ومظهراً رائعاً للعواطف العربية المتشابكة ، التي دأب الشعر الجزائري على التغني بها :

فحيوا في بني (بغداد) شعباً زكا في الخالدين ، وطاب عرقاً
وحيوا (مصر) موطن كل حر وحيوا في أماجدها (دمشقا)(٣)

ويلتفت (مفدى) التفاتة أخرى الى عروبة الجزائر في عينيته (اقرأ كتابك) ويستعرض صراع الشعب المرير من أجل العروبة ، وصمود هذه العروبة رغم المحن والارزاء :

---

(١) (النصر للجزائر ، صفحة ٧ .
(٢) انظر مثلاً قصائد (مفدى زكريا) : (قل يا جمال) (ذكرى العدوان الثلاثي) (اقرأ كتابك) . اللهب المقدس .
(٣) (اللهب المقدس) صفحة ١٢٢ .

واستدرجوه فدبروا ادمــاجه … فأبت عروبته له أن يبلعــا
وتعمدوا قطع الطريق ، فلم ترد … أسبابه بالشرق أن تتقطعــا
نسب بدنيا العرب زكى غرسه … ألم ، فأورق دوحـــه وتفرعـا
سبب بأوتار القلوب عروقـــه … ان رن هذا ، رن ذلك وجعا
تلك العروبة ان تثر أعصابها … وهن الزمان حيالها وتضعضعا
الضاد في الأجيال خلد مجدهـا … والجرح وحد في هواها المنزعا[1]

وقد لا يكتفي الشاعر بالفكرة العامة يرددها ، والحقيقة الصارخة يؤكدها ، والثورة الماثلة يشير اليها برهاناً على الفكرة والحقيقة ، بل هو يتلمس ملامح العروبة في طبيعة الجزائر ذاتها ، وتبرز هذه الملامح أجلى ما تكون في الصحراء التي لا تزال تحتفظ ببراءتها العربية الاصيلة ، لم يمسها سوء من الحضارة الاوروبية الطاغيـة . فالصحراء لم تزل — رغم تدفق البترول — امتداداً للحياة العربية في أعماق التاريخ ، وفي مهدها الاول في الجزيرة العربية .

الصحراء ، بخيامها ، وابلها ، بفروسيتها ، وكرمها ، بالذئاب العاوية ، بالغزلان الشاردة ، بالحادي وأشعاره الفطرية ، بالقوافل وهوادجها المتمايلة ، بالغدران الرقراقة ، والكثبان المتموجة ، بالشمس الدافئة شتاء ، اللافحة صيفاً .

الصحراء بالجمال الفطري الأخاذ ، بالمطارحات الغرامية ، والتقاليد القبليـة ، بالمروءة العربية نجدة وكرما ، صدقاً واخلاصاً . الصحراء الجزائرية لم تزل تحتفظ بهذه الملامح العربية ثابتة راسخة ، تلقاك مع أول وقفة على مشارفها ، وتتملك باصالة لا يشوبها التكلف الى طابع عربي صميم ربما لم يصادفك إلا في الكتب .

لم لا تكون هذه الملامح أقدس قيم في سبيل تحرير الارض والعودة بها الى أصالتها التاريخية ؟ :

يا من على الصحراء ســال لعابهم … كم مورد فيها ، سلوا هل أصدرا ؟
أقسمت بالرمضاء فيهــا ، بالريا … ح الهوج ، تلتعل الجديب المقفرا

(١) المرجع السابق ، صفحة : ٥٩ .

بالناقة الوجناء فيها ، لم تزل عربية الخطوات شامخة الذرا
أقسمت بالحادي ، وبالفصحى التي ناجى بها الليل الجميل المقمرا
بالخيمة السوداء بالليل الانيس بنارها ، ما انفك (طائي) القرى
أقسمت بالصحراء مهداً لانبثا ق الوحي ، نقاها (حراء) وطهرا
سنعيد ذكرى (القادسية) للنهى تهوي بكسرى ، أو تطيح بقيصرا
(ديجول) يا أكذوبة التاريخ في وطني ، ويا من المصيرتنكرا
(ديجول) فرنسة الجزائر ، غيمها وضبابها في الشاهقات تبخرا [1]

وقد تعاود الشاعر في غمرة النشوة بالانتماء للارض البطولية، نظرة رومنطيقية الى الطبيعة في الجزائر ، وقد يستنيم لنظرة حالمة في عنف المواقف الحاسمة ، فيغمره الاعتزاز بالارض المشرقة ، يتملى ملامحها الباسمة، وطبيعتها المفترة، وخيراتها المتدفقة. وكذلك كانت وقفة (مفدي) مع الصحراء ، وقفة مترنحة سكرى ، تدغدغ العواطف ، وتخدر الاحساس ، فكأن المرء في غفوة مستلقية على كثيب مشمس . و (مفدى) ابن الصحراء ، عاش فيها صباه، يتسلق كثبانها ونخيلها، ويغرف الماء بكلتا يديه ، ويداعب ذرات الرمل في الليالي المقمرة ، ويناجي حفيف الخوص في النسمات الناعمة، ويقطف الرطب في العراجين المتدلية .

ان هذه الذكريات ومثيلاتها اهتاجت بالشاعر في انتفاضة الارض من اجل حريتها واستقلالها ، وألحت عليه تذكي تطلعه الى الغد الافضل، والعود الاحمد ، واذا كانت روعة الجزائر تخلق تعلقاً جنونياً بها في المستوطنين الدخلاء ، فان التعلق يغدو ضرباً من التفاني والاستماتة في ابناء الارض الاصلاء ،

وفي صحرائنا جنات عدن بها تنساب ثروتنا انسيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنوز نطارد عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا تبر وتمر كلا الذهبين راق بها وطابا
عراجين كالمجرة مشرقات عناجها انسكبن بها انسكابا

---

(۱) (اطلس المعجزات) . صالح خرفي صفحة ، ۱۷۷ .

يدغدغ تحتها الغنام نايا ... فينطق من فم الغنم الربابا!
يدلّى في الغدير الحلو ساقا ... وبالكفين يغترف الشرابا
ويستلقي بجانبه ، يناجي ... إله العرش ، يسأله متابا
قرير العين في الفلوات ، أضحى ... يعاف الناس مذ ألف الذئابا
فما يبدي بجنته نفاقا ... ولا كذبا ، ولا خان الصحابا[1]

و (مفدى) يعرج على مواقع الذكريات في طول الجزائر وعرضها ، وينتشي بها وقد اصبحت مسرحاً للبطولات ، يطوف بها طوفان المجنون على مرابع ليلى ، ويقف بك على الاحياء البارزة في عاصمة الجزائر ، ويطيل الوقفة في (القبة) مقر سكناه ، ثم يطير بك الى (سيرتا) قسنطينة العاصمة الشرقية ، بطابعها العربي الاصيل ، ومغاناتها الطبيعية ، ورسوها على قمة ربوة ، تجعلها الوديان السحيقة المحيطة بها أشبه بالجزيرة ، ليس لها صلة بالأرض الا بالجسور المعلقة . ثم يستأنف بك الرحلة الى (وهران) بثغرها الشامخ ، ومرساها الكبير ، وبالوجه الغربي الذي ينازعها عروبتها . وفي (تلمسان) وآثارها العربية العريقة ، ومعابدها القائمة تستثير الوقفة في خشوع مهيب ، وناهيك إذا أطلت على قبر الولي الصالح (شعيب بن الحسن) . ان هذه المرابع وذكرياتها اكتست بالثورة عمقاً في الاحساس الشاعري ، وبعداً في الاصداء ، وديمومة في الحنين المتوقد :

جزائر . مهما باعد الخطب بيننا ... تباركني النجوى ، وتهفو بي الذكرى
حنيني الى (القصباء[2]) هاج مدامعي ... وشوقي الى (بلكور) أفقدني الصبرا!
وفي حي (باب الواد) ماضي صبابتي ... تركت بباب الواد من كبدي شطرا!
ويافتنة (الأبيار) والسعد باسم ... ألم تنسك الابعاد أيامنا العطرا

---

(١) (اللهب المقدس) صفحة : ٣٣ .

(٢) « القصباء » أو القصبة تقع في الحي القديم في الجزائر العاصمة ، وكانت الحصن المنيع للحركة الفدائية ابان الثورة ، وتعرضت لغارات وحشية من طرف السلطات الفرنسية . وكان أفظعها التدمير الشامل الذي لحقها سنة ١٩٥٦ . وبقية الاسماء الواردة في القصيدة أحياء معروفة بارزة في عاصمة الجزائر .

وفي (القبة) الفيحاء عش خواطري ... تركت بها – لما أحاطوا بنا – وكرا
و(مرتا[٢]) وما مرتا سوى مشرع الظبى ... ومرعى الظبا ، سلني فاني بها أدري
ويا (جبل الوحش) الضحوك ألم تزل ... كما كنت ، مخضل الجوانح ، مخضرا
ويا سكنى (وهران) بالله خبروا ... ألم تتركوا للنـــاس دونكم فخرا
ويا ساحة (الطحطاحة) اصطبغي دما ... وكوني بسفر المجد في حربنا طغرا
وقف بي على روض (الوريط[٣]) ونبعه ... ومنحدر الشلال ، استلهم النهــرا
وفي قرية (العباد) لا تسرع الخطى ... فتربتها توحي القداسة والطهــرا
وبلغ (شعيب بن الحسين) تحيتي ... (تلمسان) . لا تنسى أماجدك الغرا
مشاهد يفنى الدهر ، وهي خوالــد ... تذكرنا أيامــها الحلو والمرا [٤]

لقد اسفرت الجزائر عن وجه فاتن الروعة إبان الثورة التحريرية ، تلك الروعة التي ضرب عليها ستار حديدي طيلة أيام الاحتلال ، ولم يكن هذا الستار قائما على حدود الجزائر فحسب ، حيث انقطعت بوجهها الأصيل عن العالم الخارجي ، بل كان قائما بين أبناء الجزائر أنفسهم ، وبين وطنهم ، ولهذا لم تبرز ملامح الجزائر في الشعر الحديث بروزها في شعر الثورة ، والملامح الوصفية هي التي نعنيها هنا . فقد كان الشعر في ذروة المأساة يعتصم بالمبادىء والافكار العامة ، والدعوة الخطابية ، وربما ضاقت الحياة بالشاعر ، فهرب من بعض الطبيعة في الجزائر ، الى بعضها الآخر ، من وجهها الصاخب المتجهم في العواصم والمدن ، الى الوجه السمح الطلق في الصحراء ، وربما كانت الوقفة على البحر الممتد ، أو السفح السحيق ، أو القمة الشامخة انفلاتا بالانفاس من المدينة الخانقة . وفي الوقفة على الوادي ، أو السفح في القفار ، وبنفسية الشاعر المحروم المخنوق تتراءى لنا لقطات وصفية رائعة ، لمظاهر الطبيعة في الجزائر ، ولكنها لقطات أو

---

(٢) « مرتا » الاسم الروماني لمدينة قسنطينة ، وجبل الوحش يقع قريبا منها ، ويمتاز بظلاله الوارفة ، وبركه الجميلة .

(٣) « الوريط » شلال معروف قرب تلمسان ، وقد تغنى به ابن خميس في أكثر من قصيدة .

(٤) اللهب المقدس صفحة ٣١٤ .

وقفات تنم عن الهروب من جهة ، والالتجاء من جهة اخرى ، بينما تظل هذه الوقفات في شعر الثورة التجاء والتماء لكل شبر في الجزائر . وعنها يعني الالتجاء الى الصحراء قبل الثورة ، السأم والملل من المدينة ، فان الالتجاء الى الغاب ابان الثورة يعني التعلق بالمدينة ، والتصميم على العودة اليها عودة تزيح عنها كابوسها الخانق .

و (العيد) في قصائده: (وقفة على بحر الجزائر، (قوس قزح)، (ياليل) ، (جمال الريف) (يابحر) (١)) يعبر عن انطلاقة رثوية في وطن مكتوم الانفاس ، وانفلات شعوري في مجتمع مضطهد الافكار . فهو يستفسر الليل عن مصير الفجر ، ويستشفع البحر لأخته الارض المعانية ، ويستجدي الريف هدوءاً وسكينة افتقدهما في المدينة ، وكذلك عاش (العيد) في وقفاته الوصفية مع الطبيعة ، راهباً متعبداً يستجلي ماوراء الطبيعة ، حين عجزت الطبيعة ذاتها أن تقدم له جواباً ، وحتى في وقفته القريبة مع (جبل ابي منقوش) سنة ١٩٥٩ وهو في اقامته الجبرية في (بسكرة) ، هذه الوقفة لم تتحرر من الحيرة المتطلعة والاستفسار الدائب عن مصير الثورة، والشعب المصابر:

(أبا المنقوش) خبرني ، فاني أحب شفاه مثلك بالسؤال
متى يأتي بربك نصر شعب يقاسي كل ألوان النكال
مضت حجج له خمس شداد وموطنه بنار الحرب (٢) صالي

وكذلك (أحمد سحنون) في قصائده : (الصحراء) (البحر حسبي) ، ليلة مع البحر)(٣)) . و (احمد معاش) في قصيدته (مع الطبيعة)(٤) و (أبو شامة) في قصيدته (بين أحضان الطبيعة)(٥) .

---

(١) الديوان ، صفحة : ١٧ و ٤٣ و ٤٥ و ٥٦ و ٦٣ .
(٢) الديوان : صفحة : ٤٢٥ .
(٣) (الصحراء) : البصائر السلسلة الثانية ، عدد ١٢ / ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧ .
(البحر حسبي) البصائر السلسلة الثانية ، عدد ٥٧ /٢٢ نوفمبر ١٩٤٨ . ليلة مع البحر مجلة الشهاب ، ج ٩ م ١٣ ، نوفمبر ١٩٣٧ .
(٤) (مع الطبيعة) البصائر ، السلسلة الثانية ، عدد ٢٠٦ /٣ نوفمبر ١٩٥٢ .
(٥) (بين أحضان الطبيعة) (ياساحل المجد) البصائر س ٢ / عدد ٧٣ مارس ١٩٤٩ .

ها أنا اليوم قد وقفت أناجيـ ـك ، أيا بحر ، فاستمع لنشيدي
إنـــك اليوم مؤنس وسميري ونجيي في قفر هذا الوجود
سكنت نفسي الحزينة وارتاحت الى حسنك البديع الفريد
علها اليوم في جوارك تنسي ماتعانيه من بــلاء شديد
هل أرى فيك بلسما لجروحي او الاقي تحررا من قيودي(١)

ولكن الجزائر في سنة ١٩٥٤ بغاباتها وصحرائها ، ومدنها وريفها ، بعواصمها وقراها ، تفتحت للالتجاء الايجابي ، والاحتضان البطولي ، فاصبح حروف لايحمل معنى غير الاقدام . وناجى الشعراء الجزائر ، وتناغموا مع الاجراس اللفظية لهذا الاسم ولعل الابيات لم تحتضن بنشوة وادمان لفظة كالجزائر ، وهذه الظاهرة نجدها حتى في القصائد المكتوبة باللغة الفرنسية ، تتصدرها لفظة (الجزائر) أو تتراقص بين مقاطعها .

نجد ذلك مثلا في (ليالي الجزائر) لـ « بشير الحاج علي (٢) » و (على الارض غريبة) لـ « محمد ديب (٣) » و (الجزائر الحمراء) لـ « هنري كريما (٤) » وقصيدة (نعم جزائري) لـ « قدور محمصاجي (٥) و (الجزائر) لـ « نادية قندوز (٦) »

(١) البصائر ، السلسلة الثانية ، عدد ١٣/١٠ نوفمبر ١٩٤٧ .

(٢) بشير الحاج علي ، ولد بالجزائر العاصمة سنة ١٩٢٠ ، وقصيدته (ليالي الجزائر) في Poémes Algeriens . Espoir . et Parole .Recueillis par Denis Barrat . P . F . Paris 1963 .

(٣) (محمد ديب) ولد بتلمسان في ١٩٢٠ ، وقصيدته في المرجع السابق . وفي ديوانه (الظل الحارس) .

(٤) (هنري كريما) ولد بالجزائر سنة ١٩٣٢ ، والقصيدة في (قصائد جزائرية (صفحة ١٧٨) .

(٥) (قدور محمصاجي) ولد بسور الغزلان سنة ١٩٣٣ وقصيدته في (قصائد جزائرية) ١١٠ .

(٦) (نادية قندوز) ولدت بالجزائر سنة ١٩٣٢ والقصيدة في المرجع السابق صفحة ١٧٣ .

و (الجزائر سلم الضياء) لـ « نور الدين تيدافي » . يقول « محمد ديب » في قصيدته (على الارض غريبة) :

أيتها الارض الملتهبة السوداء
أيتها الام الأخت
طفلك لن يبقى وحيداً
مع الزمن الذي يغرس مخالبه في القلوب
أسمعي صوتي
الذي يصفر بين الاشجار
ويثير خوار الابقار
أنا الذي أتكلم . جزائري
ربما لن أكون الا كواحدة من أبسط لشائك الوادعات
لكن صوتي لن يتوقف مطلقاً
عن ترديد اسمك
عن التغني بجمال جبالك وسهولك

الجزائر ٣٠/٨/١٩٧٣

السير على الرمال المتحركة

شعر : محمد علي شمس الدين

« لأنني أعلم أنه ما من أحد في العالم ،
سوف يموت بدلاً عني ، فإنني عبثاً أدخر
خطى الموصلة إليك .
أنتِ البعيدة كطرف الصحراء
وأنا السائر إليك على الرمال المتحركة » ..

(١)

يغور الدم الساحر الأزرقُ
تغور الخطى المستحمات في الرملِ
ريحُ توجَ الخيامَ
ادخلي تحت جلدي
ولا تقفلي وجهكِ الأسمرا
فيطفو على الرمل وجهي
وأطفو . . .
رأيتُ الذي لا يُرى :
نجومي مزاجيةٌ والمدى مُغلقٌ
وأني أنا الغائبُ
العائدُ
المشرقُ
وخلفي يغور الدم الساحر الأزرقُ

ما بين سراب الماء وبين خطى قدمي
كانت كثبان الرمل رئاتٍ مذبوحه
وعلى جَنَبات الأفق عيون مفتوحه
والوجه الشاحب قنديل
علّقه الليل بأرجوحه
هو الوجه وجهي
أسميّه ناراً وأغفو
أسميّه ماءً وأغفو

غريباً أناديكِ بين الجدارين والشمس سقفٌ
وما بين جفني وجفني سماءٌ ـ سدىً ـ
رايةٌ عطّلتها الأكفُّ
وغنّيت للنيل حرفين حتى غدا طائراً واحتواني
واني هنا لا أغني

(٢)

قلتُ : أستولي عليكِ الآنَ
أسرجتُ خيولي
واقتحمتُ الداخلَ المرصودَ
لكنّ السواقي
علّمتني
أنّ في أسفل عينيكِ احتراقي
جاهزاً
مكتمل الشهوة للموت ، احتويني
أدخليني
في مدار العصب السرّي ما بين الجذورِ
فاجئي
ساحل جفنيّ بسبين
اغرسي فوق جبيني
حربةً زنجية الايقاع
سهماً وثنيا

اني أسلمتك الناموس والوجه ـ النبيّا
والتواريخ التي تحفظ عهدي
والتواريخ التي لا تحفظ العهدْ
وأسباب اغترابي
اني أسلمت رجليكِ الوصايا
فاقرئيها
حين تمشين على الأسرار رهوا .

(٣)

يا جوهرة السهل اشتعلي
دوري كالكاهن حول النارْ
إني أسلمتُ إليكِ الريح ودجّنتُ الأمطارْ
يا زنبقة الماء اشتعلي
فتَفُكّ عرى النغم المسحورْ
يتنفّس تحت غبار الموت دمي
في الرمل ، ويرتعش الطلل المهجورْ .

لبنان الجنوبي

جورج سالم

حكاية الظمأ القديم

كنت تسير معه ، الى جانبه ، تكاد تمسك بيده ، وكان يبدو لك غافلا ، شارداً ، لا تعرف فيم يفكر . وتنظر اليه ، فترى قامته السامقة ومنكبيه العريضين ، ويديه الكبيرتين الخشنتين ، وتظهر بجانبه صغيراً نحيلا ، تسيران صامتين ، تقطعان المسافات ، يشدك اليه سلك خفي ، هو مزيج من الحنان والرهبة والثقة . تسلكان هذا الدرب نفسه كل يوم ، كل صباح ، وتعودان منه اذا كان المساء ، لا تنحرفان عنه قط ، تخرجان من

المنزل في ساعة مبكرة ، وفي يمينك صرة الغداء ، والدرب طويل تقطعانه سيراً على الاقدام في صمت. تمران بأحياء عديدة يتصل كل منها بالآخر ، بعضها مسقوف وبعضها معتم ، وتجتازان أزقة ملتوية ، صاعدة حيناً ، منخفضة حيناً آخر ، مبلطة بحجارة مكسورة متخلعة ، الى أن تنتهيا الى سلسلة من الاسواق . يتمخض الواحد منها عن الآخر . لتعودا في مساء اليوم. في مساء كل يوم وتسلكا الدرب نفسه عوداً الى المنزل. هذا دأبكما منذ انتهى العام الدراسي وبدأت العطلة الصيفية ، العطلة الطويلة التي لا تنتهي .

في ذلك اليوم البعيد القريب . اشتد الحر منذ الصباح الباكر ، مع ساعات الفجر الأولى . على خلاف عادته . كنتما تقطعان الدرب نفسه . فتشعران بوطأة الحر فوقكما ، وكانت الأرض تلتهب تحت أقدامكما ، وقبل أن تبلغا منتصف الطريق كنتما تتصببان عرقاً . وأخذت خطواتكما تتباطأ عن غير ما قصد ، وفي زاوية ما من زوايا أحد المنعطفات اختلست النظر ، ولم تلبث أن توقفت مشدوهاً مسمراً في مكانك : أناس من شتى الاعمار ، رجال طاعنون في السن وصبية صغار ، فتيات يرتدين الثياب الطويلة ، ونساء يلتحفن بالملاءات وأخريات سافرات ، يحمل كل من هؤلاء سطلاً أو جرة أو خابية ، يتزاحمون بالمناكب ويعلو منهم الصياح . يتراشقون بالسباب وتصطدم آنيتهم بعضها ببعض ، وقفوا جميعاً ملتفين متحلقين حول العين ، وثمة فتاة صغيرة تحرك مقبض العين ليسيل الماء عنيداً شحيحاً متقطعاً .

- هيا بنا .

قال لك بصوته الآمر الهادىء . كان يخشى أن يصل الى عمله متأخراً . ثم أضاف بصوت جاف :

- ستنقطع المياه في هذا اليوم الملتهب .

قلت له في دهشة :

- لن يتاح لكل هؤلاء أن يملؤوا جرارهم .

كنتما قد وصلتما الى المصنع الذي يصطحبك اليه كل يوم . قال :

- جفت معظم الآبار ، أما الذين لن يتاح لهم أن يملؤوا جرارهم قبل أن ينقطع الماء ...

ثم لاذ بالصمت فلم ينه كلامه . وأدركت أنت أن أولئك سيظلون بلا ماء .

وشعرت بالجفاف يجتاز حلقك وأنفك ويتغلغل في عروقك .

البئر عميقة وأنت تسعى لتستقي منها . في كل من طرفي الحبل سطل صدىء. تشد الحبل فيشرع الفارغ بالنزول ليصعد الملآن . البئر عميقة الغور وأنت لا تفتأ تشد الحبل بالذراع اليمنى أولاً ثم بالذراع اليسرى على التوالي ، في عملية لاتنتهي. ويظل هذا دأبك زمناً لاتستطيع تحديده ، كأنما البئر متصلة بأغوار البحار ، وتشعر أن قواك على وشك أن تخونك ، يكاد الحبل يفلت من يديك ، فتمسك به بقوة وعنف وخوف . انه ان أفلت فسيعود السطل الفارغ أدراجه الى الأعلى . أنت عطشان فهل جفت البئر أيضاً ؟ وتصرخ لاهثاً في فراشك المطروح على أرض الدار :

ـ أنا عطشان .

تستيقظ أمك مع انطلاقة الكلمة الاولى ، قبل انطلاق الكلمة الاولى ، كأنها لم تكن غافية ، فتلمس جبينك الملتهب ، وتسارع لتقديم الماء اليك . وتهمس ، من بعد ، في أذن أبيك الذي كان يتململ في فراشه ويسأل وهو بين النائم والمستيقظ :

ـ ما به ؟

ـ انه يهذي ، ويبدو أن حرارته قد ارتفعت .

صورة المتخاصمين والمتخاصمات أمام العين لا تبرحك ، تتضخم في خيالك، أنت بين المتدافعين ، الأيدي تطول وتمتد فوقك ، تعلو القامات وتسمق ، وتتعثر أنت بين الاقدام ، تعثر بك الاقدام وتعود فتصيح :

ـ أنا عطشان .

تبلل أمك قطعة من القماش بالماء وتضعها على جبينك ، وتمسح قطرات العرق المنصبب بغزارة ملء وسادتك ، ومنامتك وقميصك .

طويلة أيام الصيف ورتيبة ، حرارتك تعلو وتنخفض وكذلك حرارة الجو من حولك . في الدرب الطويل نفسه ، تقتحم ذات يوم صمته ، وأنتما تسيران في الصباح ، لتخرجه من صمته :

ـ هل نحن من هذه البلاد ؟

ويجيبك على الفور :

ـ أجداد أجدادنا ولدوا وعاشوا وماتوا فيها .

– وقبل ذلك ؟

فيطرق صامتاً وهو يتمتم :

– وقبل ذلك ؟

– أقصد : من أين جاؤوا ؟

يربكه السؤال . لا . لم يطرح عليه مثله من قبل . يتمالك نفسه ، يحاول أن يسيطر على الموقف ، لايريد ان تفحمه ، أنت الفتى الصغير . يعود الى ذاكرته ، يستنجد بها . في ذاكرته يتجمع الحاضر والماضي ما كان منه قريباً أو بعيداً . يغوص في أعماق الذاكرة يستنطقها في جهد مضن شاق . تلتزم ، أثناء ذلك ، الصمت كأنما أتيت عملاً شائناً . وبعد حين تنفرج أساريره ، انك تحبه اذ يتبسم ، يسارع الى القول :

– هل تعني بالتاريخ ... أنني أحب الذين يحبون التاريخ .

ويضيف :

– الذي أعرفه ان الأسلاف القدامى لم يكونوا يسكنون هذه البلاد .

– من أين جاؤوا اذن ؟

ويقول لك كأنما يودعك سراً ، أعز سر وأثمنه :

– من الجنوب جاؤوا ، من حوران ، كانوا يقيمون هناك ثم ارتحلوا الى الشمال. كان ذلك منذ قرون بعيدة ، موغلة في البعد .

الشمس ساطعة ، ضوؤها قاس ، حاد يتكسر على التربة المتشققة المتألمةمن غيرأنين . مضت من النهار ساعات عدة ، وأزف الظهر وكرت وراءه الساعات ، والشمس ماتزال ترسل أشعتها حارة حامية كأنها لاتريد أن تجنح الى المغيب . تتحول الأرض الحمراء الى قطعة من الجمر الملتهب مفروشة ببساط من الجحيم لايستطيع أي كائن حي أن يطأها . جفت أعماق الآبار وتشققت جدرانها وبانت في عريها المخيف . القوم منطرحون أرضاً بلا حراك وأنت ممدد بينهم . ألسنتكم اليابسة وحدها تتحرك في أفواهكم بلا لعاب . وجوهكم السمر علتها مسحة من الصفرة ، يتلصص الموت عليكم ، يتسلل من بين شقوق الأرض . كان غافياً فاستيقظ يتربص بكم . القشعريرة تسري في أبدانكم . ترونه بأعينكم المفتحة حاملا منجلا ذهبياً ، فتصرخون :

– لاقمح ، لم ينبت القمح هذا العام،ولن ينبت في الموسم الآتي،فماأنت والحصاد؟

يجيبكم بضحكته الرقيقة :

— القمح ليس حصادي . حصادي أرواحكم .

— تزداد القشعريرة في أبدانكم وتجحظ منكم العيون . ينادي مناديكم في أول الغسق : آن أوان الرحيل .

وتنهضون جميعاً ، وكأنما من الأجداث تبعثون . تدرعون الليل ، تقطعون المسافات على وهن ، بقية الرمق فيكم هي التي تسير . القافلة كبيرة وأنت فيها فتى صغير تسير بجانب أبيك واخوتك ، لايستر عريك إلا قطعة من قماش ، وتلمح على مبعدة منك سيدكم ، رئيس العشيرة ، سيد القوم والقافلة ، يتحامل على نفسه في شجاعة وبأس . يشير اليكم في صمت أن حثوا الخطا قبل أن تشرق الشمس . في الطريق ضوء القمر يهديكم الى بعض الآبار الشحيحة ، يخرجها من العتمة . فتنيخون الجمال بمن عليها وتستريحون ، ثم تبلون وجوهكم وترشفون قطرات من المياه المالحة .

— الى أين نمضي يا أبت ؟

يجيبك أبوك بتؤدة وخفوت :

— الى الشمال .

— وهل نجد هناك الماء ؟

لايعرف بم يجيبك . مادام سيد العشيرة قد انطلق فلا بد أن تنطلقوا في إثره .. سهول واسعة تملؤها الأشجار . وأراض خصبة لا حدود لها تزرع قمحاً . تعطي الحبة سبع سنابل ، وهناك ستملأ المياه العالم . مياه في كل مكان . تنبجس من الارض . تسيل في الاودية ، تنحدر من قمم الجبال ، تفيض من الانهار ، تتدفق من الينابيع . تهطل من السماء ، تتساقط ندى عن اوراق الاشجار ، تسبح فوق الاعشاب ، تتساقط من الغيوم والسحب فلا ظمأ في الصيف ، ولا ظمأ في الشتاء ، ولن تلتوي سنابل القمح على نفسها فارغة بائسة محروقة عطشى .

كم يوماً سرت مع القافلة ؟ يومين ، أسبوعاً أم أسبوعين حتى أفضى بكم التطواف في ذاك الخط المستقيم الى هنا ؟ رأيت ؟ ماكذبكم سيدكم ، فالماء هنا غزير ، وسترتوون أنتم والبهائم وسنابل القمح وعيدان الشعير .

حين قرع الجرس ساد الصمت ، وبعد هنيهة دخل سيد العشيرة ، كانوا جالسين

وكنت جالساً بينهم على مقعد متآكل حفر عليه الطلاب السابقون أسماءهم ، فهببتم واقفين وأشار اليكم بالجلوس . سيد العشيرة اليوم معلمكم . لقد صار معلماً لكم في هذا الصف المتواضع ، يتطلع الى وجوهكم الصغيرة اللامعة في حنو ، انه مازال يحتفظ بقامته المديدة وصوته الهادىء . ولكنه اليوم أكثر شباباً وأناقة منذي قبل . لم تخطئه عيناك حين رأيته أول مرة في مطلع العام، انه هو بنفسه ولا يمكن أن يكون شخصاً آخر ، انك لتحبه ، وتحب الاصغاء الى درسه . تراه كبيراً تثق بما يقول ، تصدق مايقول ، وتقدر أنه يعرف الحياة بأفضل من سائر المدرسين مادام يعلمكم التاريخ . لقد لحك أوائل هذا العام ، وهو يقطع المسافة ببطء ، بين باب الصف والمنبر ، لم يكن قد تعرف أسماءهم وأشخاصهم بعد . كان أمامك كتاب وكنت منهمكاً في قراءته حين دخل . لم ترفع عينيك عن الكتاب . استرعيت انتباهه ، سألك هامساً قبل أن يبدأ الدرس وأنت جالس أمام المنبر في المقعد الامامي :

ـ هل تقرأ كتاباً في التاريخ ؟

باغتك السؤال . احتججت كمن يتنصل من خطأ :

ـ لا .

ـ اذاً فما هذا الكتاب؟

وسارعت الى الاجابة بثقة وقوة :

ـ انه كتاب أدب .

ويبتسم في حنان ، ويهز رأسه ايذاناً بالموافقة والرضى :

ـ سيان .

لم تفهم يومها معنى كلامه . لم تدرك ماذا يقصد بكلمة سيان . كيف يكون الأدب والتاريخ سيين ؟ وكان عليك أن تنفق سنوات من حياتك ، سنوات طويلة لتفهم ذلك وتتعلمه .

يومها ، أراد ان يمهد للدرس بمدخل صغير ، فراح يتحدث عن التاريخ . انك لتذكر كيف أشاد به . وقال بعض الطلاب فيما يشبه الهمس : « كل مدرس يحاول أن يظهر قيمة المادة التي يدرّسها ويعلي من شأنها . لقد ألفنا ذلك . » لم تبال بما كانوا يقولون أصغيت اليه كما لم تصغ الى أي مدرس آخر . والتقطت كلماته ، واحتفظت بها في نفسك حريصاً عليها ، ضنيناً بها . إنك لتذكر أنه قال فيما قال :

— ... لقد اهتم أجدادنا العرب بالتاريخ اهتماماً كبيراً ، وبذلوا نحوه عناية خاصة .

وراح يعدد هؤلاء المؤرخين وأعمالهم ، وكنت تتابعه بخيالك وهو ينتقل من مؤرخ الى آخر . وترى هؤلاء ، وما أكثرهم ، وهم منكبون على الكتابة سحابة النهار وقسماً من الليل ، ينتزعك من تخيلاتك صوته وهو يردد :

— ... ولست أعرف شعباً من شعوب الأرض ترك من المصنفات التاريخية ماتركه العرب ...

ترفع اصبعك ، ويصطبغ خداك بالحمرة :

— علامَ يدل ذلك . ولماذا ؟

تبدو اجابته مقتضبة غير مقنعة . أيكون يجهل الجواب ؟ محال . هل أشفق عليك ان يفجأك بالحقيقة ؟ وامتدت منذئذ تساؤلاتك .

معلمكم ، هذا اليوم ، شديد الكآبة . انه ليتحدث عن القبائل القديمة التي برح بها الجفاف وأضناها الظمأ فيممت وجهها نحو الشمال تلتمس أرضاً خصبة ومياهاً غزيرة . وهاهي تصعد نحو الشمال ، نحو الجنان التي تحدث عنها رواتكم ، صوته الكئيب يشي بالألم . بألمك أنت حين كنت تغذ السير دامي القدمين في قافلة كبيرة . ويهتف هاتف منكم :

— الى أين ؟ الى أين ؟

فيجيبه الرائد في ثقة واعتزاز :

— الى الشمال . الى الشمال .

يخرج سيد القبيلة عن صمته ليقول :

— وهناك سنقيم ملكاً ، وسنوزع القمح في أرجاء الأرض ، ولن يشعر أحد بالجوع من بعد .

الجوع ؟ ليس الجوع هو الذي أخرجكم من مضاربكم في ذلك القيظ ، بل الظمأ ، كنتم ظماء . ورأيت بأم عينك الرجال والنساء والاطفال يتساقطون كجزوع النخيل . كان الظمأ أقسى من الرياح العاتية والعواصف الرملية التي تلتهم ما يعترض سبيلها .

وفي غمضة عين وجدتم أنفسكم محاصرين . هذا ما قاله معلمكم . ولكن معلمكم هو

المقصود بالحصار . ويغيب عنك وجهه وسط العجاج . والعجاج يزحف من بعيد كجراد منتشر في الجو . وأنت المحارب محاصر . ليس أمامك أعداء فتحاربهم . لقد قطعوا عنكم الماء . فبرز العدو ، عدوكم ، من داخلكم ، من داخل أجسادكم ، يأخذ عليكم أنفاسكم ويتمدد في شرايينكم . تشعرون به يفتت مسام جسمكم، وتعجزون عن مجابهته والامساك به . والماء بعيد بعيد ، يبدو لك كأنه على الطرف الآخر من العالم ، ووراء العالم . فتلوي عنقك وتنادي وقد غدوت عاجزاً عجزاً مطلقاً عن كل مقاومة :

— أنا عطشان .

ثم تغفو . تمتد غفوتك دهوراً ولا تلبث أن تستيقظ كمن يستيقظ من حلم ، لتجد نفسك أمامه في قمة الجبل . كان معلقاً على شجرة من أشجار الزيتون . الدماء تنبجس من مواقع رؤوس الشوك في رأسه . ويداه مطبقتان على مسمارين من عنف الألم يكاد يخلعهما من مواقعهما ، كان يتلوّى أمامك . يرمح برأسه ذات اليمين وذات اليسار . لا ، لم يكن يشكو من الألم . لقد صرخ ، وسمعت أنت صوته ، رغم المسافة البعيدة التي تفصلك عنه . مسافة لا يمكن تخيلها . كان ينادي :

— أنا عطشان .

ورأيت واحداً من الجنود يسارع فيبلل قطعة من قماش ويقربها من فمه . ولم يشأ أن يشرب . لم يقدموا له الماء بل السراب . ثم رأيتهم يطعنونه فتفيض روحه من جنبه . وآنذاك تفجرت الينابيع وسحت المياه . الا أنها لم تستطع أن تطفيء ظمأه . وكان يرن في مسمعك وأنت عائد الى بيتك الصوت الظاميء ينادي :

— أنا عطشان .

وأنت ايضاً عطشان في موسم الجفاف هذا .

تنضم الى حلقة الراقصين في الحلبة . لم يكن هذا رقصاً بل دعاء ومناجاة وصلاة . كنت تصلي مع المصلين وأنت غافل عما يجري حولك . لقد تحلقتم خاشعين حول معلمكم تبتهلون . كيف اجتمع هذا الخلق كلهم في ظاهر البلدة يصرخون . يجأرون بالصراخ :

— اسق العطاش تكرما .

ويردد جمعكم في خشوع وضراعة .

— فالعقل طاش من الظمأ .

ترقصون وترقصون حتى منبلج الصباح . تعلو هاماتكم وتنخفض . وتستدير أجسامكم خفيفة رشيقة مع الايقاع الرتيب الحزين . ثم تلهثون منتشين دائرين حول

أنفسكم وقد قام معلمكم في وسط حلقتكم . وانتم حوله كالكواكب حول الشمس . وتظلون ترقصون الى ان تتلاشى خطواتكم في الظلمة كأنها آثار أقدام في رمال الصحراء . وتعم العتمة العالم .

حين نهضت تدعوهاالرقص كانت العتمة تعم ارجاء المكان . وقبل ان تبلغ مكانها كانت قد أطفأت لفافتهـا وانتصبت في مكانها . كيف قدرت انك ستتجه نحوها ؟.. وتجذبها الى صدرك بحرارة ، وتشدها اليك فلا تقاوم . بحنان تسلم رأسهـا الصغير الى صدرك . تصغي الى خفقان قلبك . والناس حولك يرقصون أزواجاً ازواجـاً لكنك لاتراهم . لقدانحسروا الى منطقةالظل من العالم فليس لهم وجود . لاوجود الا لهذا الظمأ يدفعك اليها من قبل ان تولد . وتتأمل شفتيها . شفتيها الطافحتين حياة وحرارة . وتحني هامتك لتلامس شعرها فيعبق الشذا والاريج . بهذه البراءة التي تحتضنها بين ذراعيك تشعر أنك قادر على أن تجابه العالم . كل العالم . بآلامه وأحزانه ، بجوعه وظمئه ، وأن تجابه الموت . يهمس المعلم في أذنك : « الموت هو الظمأ الى الحب ، الموت أن يتوقف القلب عن المحبة » . وقلبك ينبض في عنف وقوة لامثيل لها . وتصغي . ها أنت تصغي الى نبضات قلبها . أهو قلبهـا ام قلبـك ؟ لقد امتزجت النبضات بعضها ببعض ، وما من أحد يستطيع ان يميز بينهـا . وترمي يدك على عنقها . العنق العاجي الذي يدير الظلام الدامس . وها أنت تحدق في عينيها الصافيتين . في عينيها يتجمع الماضي والمستقبل . ماضيك ومستقبلك ، ماكنت وما ستكون . وترى فيهما القافلة تلو القافلة تغذ السير بحثاً عن الري . يذوب الظمأ مع الألحان ، يتلاشى كالألحان فلا يبقى منه الا صدى طفيف في أعماق النفس .

في آخر لحظة من لحظات وجودك . تهتف تقول في صوت ضارع :

— اسق العطاش تكرما .

قصة

رمي الجمار

نصر الدين البحرة

الاشارة الثالثة :(١)

« ذكر عن أسد وتمم أنهما لجأتا الى الوأد أحياناً ، فراراً من العار أو خشية الاملاق ، وقد افتخر بذلك الفرزدق ، فيما بعد لأن جده حمى جماعة من الوأد فقال :

وجدي الذي منع الوائدات
وأحيا الوئيد ، فلم يوأد ».

(١) رمي الجمار : عنوان مجموعة من القصص ، مستعار كما يبدو من بعض مناسك الحج ، إذ يعمد الحجاج الى رمي الجمار ورجم الشيطان . وكل قصة تقابل واحدة من الجمار .

الصوت :

كانت القافلة تسير في طريقها بحثاً عن مكان تحط به لتمضية موسم الصيد ...، وشعرت الجدة بأنها العبء الثقيل على أفرادعشيرتها فاذا بها تزحف في الليل وتبتعد عن رفاقها ، حتى أشرفت على تلة مرتفعة ، جلست عليها تنتظر لقاء وجه الطبيعة ببشر وفي الصباح نهضت العشيرة وتفقدتها،فشاهدت جسها على تل يتطلع نحو الشمس وينتظر . ولوح أفرادها بأيديهم لذلك الجسم المنتظر .وتابعوا طريقهم دونها .

والمعروف عن قبائل الأسكيمو ، ان العاجزين منهم ، حين يدركون أنهم عالة على ذويهم يحملون أمتعتهم من الكوخ ويرحلون الى العراء .. ليموتوا ..

الصوت :

— ١ —

أيمكن أن يكون هو نفسه من يتلقى تلك الصفعات بالحذاء ؟.
بعض الجيران يقول انه ولد مع طوشة النصارى ، وهذا يعني أن عمره الآن أكثر من مئة وعشرة أعوام . وبعض العجائز يؤكد أنه بعد أن سقطت أسنانه ، فقدنبتت له أخرى جديدة مكانها منذ زمن . وهنالك من يؤكد أنه لم يتجاوز المئة ...

وعلى كل حال فانهم جميعاً كانوا يسمعون زوجة ابنهبين يوم وآخر وهي تضربه بالنعل ، وهو يصرخ كالأطفال الصغار تماماً بين يديها . كانوا يفتحون آذانهم جيداً كي يدركوا الكلمات التي تقولها له ... دون جدوى . في المرة — الأخيرة فهموا أنه أزعج قيلولتها وقام يريد أن يشرب ... لقد حظرت عليه أن يفتح البراد، لانه ينسى أن يغلق بابه . هكذا تقول هي . وهو يصر على أن يشرب ماء بارداً .
— الله يلعنك ، الله ينتقم منك .
— اسكت يا اختيار النحس . الله يريحنا منك .

— ٢ —

— أيمكن أن يكون ... هو وحده ؟
حين دخلوا عليها الغرفة، كانت قد وضعت لتوها لقمة في فمها ، من طعام أجادت

إخفاءه عن أعينهم . كفت فجأة عن المضغ . وبقيت شفتاها مطبقتين . وسألها صهرها سؤالا فأطرقت برأسها ؟ الى الأرض ولم تجب. قال: ما بك ؟ لم لا تجيبين فظلت صامتة .

وحين غادر الغرفة أرادت أن تسرع في مضغ اللقمة ، لكنهم عادوا فأدركوها ثانية قبل أن تنتهي .

قالت ابنتها : ما الذي جرى لك ؟ ما بالك لا تجيبين ، هل جاءتك السكتة ؟.

نظرت الى ابنتها في عتاب وانكسار . كان بودها أن تفتح فمها لتقول شيئاً ، لكنها كانت تعرف جيداً أنها لن تستطيع أن تقول شيئاً حتى في هذه الحال . فبقيت ساكتة .

ودخلت الصغيرة الى الغرفة ، وأخذت تطوف حول جدتها ، ثم توقفت فجأة وانحنت . لقد عثرت على الصحن الذي كانت تأكل منه الجدة ، فتناولت منه شيئاً .. وراحت تمضغ هي الأخرى .

ضحك الصهر :

— ها .. ها .. الآن فهمت .

أما ابنتها فقطبت ما بين حاجبيها وصرخت :

— تعرف أن الصغار فجعانون .. أما الكبار ! رحمتك يارب ، الهي خلصني من هذه العجوز ...

جائعة جائعة دائماً . الجوع استوطن معدتي . أخي الوحيد وأولادي العاقون .

أنا الجوع . واللقمة هي بعد هذا العمر أغنيتي الوحيدة . ليتني تركتكم للكلاب. ليتني ألقيت بكم كالجراء وتبعت أول طارق . ياضيعة العمر . ياضيعة الشباب والكهولة والشيخوخة جميعاً . أيتها الخنازير البرية . مرحبا . سلاماً أيها الأصدقاء .

واستمرت صامتة .

اللون الفستقي في الجدار المتقشر ، كان أشبه برماد الولائم المندثرة . والمصباح الكهربائي المتدلي من السقف يتهافت الضوء فيه مخنوقا ، مثل القناديل على قبور الأولياء والسرير الخشبي المركون في الغرفة الضيقة يتمطى كآبته مثل ناووس منفرد في جبل بعيد والغبار العالق في الهواء ، يمارس في الجو طقوسه البدائية الحارة .

بدت الغرفة أشبه بسراديب المحكومين بالاعدام في قلعة من العصور الوسطى .

— مادمت تريدين أن تضربيني ، أرجوك الا تضربيني على رأسي دخيلك يابسمو هكذا كانت تناديها مصغرة اسمها : ابتسام ، عندما كانت صغيرة — رأسي يؤلمني كثيراً .

تحول رأس العجوز بين يدي ابنتها الى مطرقة ثقيلة تضرب بها الجدار في الليل . كانت الأم تنشج وتتوسل الى ابنتها أن تكف .

– ولا كلمة ! إياك أن يرتفع صوتك ، والا خنقتك . اياك .

.. صار النشيج صراخاً مكتوماً ، والمطرقة الانسانية تهشمت بين يدي الابنة . انبثق الدم من كل مكان . تفجر من الفم والأنف والاذنين . والليل وحده كان يدري بما يجري ، بعد أن انصرف الجميع. ليل أسود ثقيل طويل. ليل وحشي مرير . ليل.. ليل .. ليل .

– لو بقي محمود حياً لذهبت اليه . لكن الله لا يأخذ اليه الا الطيبين أي امرأة ساقطة هي أفضل من الاثنين اللذين بقيا . عندما كنت أزور في بيت محمد ، كنت أحس أنني كاليتيم في مأدبة اللئام . وعندما كنت أزور في بيت ياسين ، كان علي أن أتحمل ضربات زوجته ، وكلتاهما الاقسى من الضرب ، وأن أتلقى اهانات أحفادي بصبر ..

قنديل في القبو :

« ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس. فها هي ذي دموع المظلومين ولا معزي لهم . ومن يد ظالميهم قهر ، أما هم فلا معزي لهم .

فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد ، وخير من كليهما الذي لم يولد بعد.. الذي لم ير العمل الرديء الذي عمل تحت الشمس ».

(سفر الجامعه)

– ماذا ؟ والآن .. ماذا ؟

– لن أعيدها .. والله . لن أعيدها ياسمو . لن أخبيء شيئاً بعد الآن .

أعدك . دخيلك اتركي شعري . اتركي رأسي . اعطني خرقة أمسح بها هذا الدم..

– دم ؟ !

– لا .. لا . لن أفتح فمي بكلمة . أعدك . والله . لن أتكلم أبداً

– تهددينني ! لن تتكلمي .. الله يلعن شيبتك .

– سامحيني لم أقصد شيئاً . لا .. لا . أبداً . عفوك ياسمو . ولكني أريد أن أصلي .

قالت الحفيدة ، ولم تكن لتتجاوز الثانية عشرة :

– انها تجيء لتشاركنا طعامنا بيتنا ، وتزعجنا بوضوئها . انها تترك بقع الماء

خلفها كيف تحركت . وماما امرأة موسوسة ، تحب النظافة كثيراً . انها توسخ الحمام ، وتخبيء أرغفة الخبز تحت مخدتها . بطنها كبير . كبير جداً .

وقال أخوها الأصغر :

— انها تخيفني في الليل .

— ماذا تفعل ؟

— لاتفعل شيئاً ، ولكني عندما أبصرها خارجة من غرفتها في العتمة ، أتذكر الغولة ، فأخاف كثيراً . انها تقص شعرها لتصنع منه مخدة . المخدة الصغيرة على سريرها محشوة بشعر رأسها الذي تقصه باستمرار .

رؤوس اقلام :

« أسائل نفسي غالباً : ترى الى أي مدى يستطيع الانسان والحيوان الأعجم أن يتعرفا على بعضهما بعضاً ؟ ترى في أي فردوس بدائي ، من فجر الخلق القديم ، تسعى تلك الدرب البسيطة التي يلتقي فيها قلباهما ؟

ومع ان النسيان قد عفى على قرابتهما منذ زمن بعيد ، فان آثار اتحادهما الدائم، لم تمسح أبداً » .

- طاغور —

الآخرون لم يعرفوا شيئاً . وهي لم تبح بالسر لأحد . لم تقل كلمة واحدة ، رغم أن الحادث كان يتكرر كل اسبوع مرة على الأقل .

ولكن الصغيرة التي كانت ترى وتسمع كل شيء .. هي التي باحت بالسر . ولم يكونوا قد نفضوا أيديهم من ترابها جيداً ، حين بدأت أيد وأصابع اخرى ترتفع ..

بين الأمس الغابر واليوم الحاضر

الدكتور عزة مريدن

منذ ما وجد الانسان على الأرض ، ما فتيء بغريزته وفطرته . يسعى للقضاء على ما يصيبه من علل وأمراض ، غير أنه لم يكن في أول عهده ، يملك شيئاً من الوسائل المجدية ، بل كان يعتمد على الصبر والتحمل ، فيقاسي من عوادي الطبيعة وتقلباتها ،

ما كان يقطع عليه سبل الحياة الكريمة والعيشة السليمة ، فحياته في القرون الأولى ، كانت بدائية،وكان همه الأكبر،أن يسعى وراء لقمته يمسك بها رمقه ، ووراء مايستر به جسمه ليتقي الحر والبرد والرياح وأن يأوي الى عش في كهف أو ظل في غابة . وتخبط في هذا الظلام الدامس ، ردحاً غير قليل من الزمن ، حتى ولد شيء من الطب في أحد الكهوف أو الغابات ، بين يدي بعض كبرائه أو بعض من نصبوا أنفسهم رجالاً للدين ، ولكنه لم يجد في هذا الظل التعيس، مايقيم به أوده ، وظل يحبو طوال قرون ، يستغيث تاره ويئن أخرى، يتلمس عناصر الحياة العزيزة،ويتقرى سبل الخير والاحسان ، فلا من سميع ولا من مجيب ، وهكذا عاش على هامش الحياة أمداً طويلاً ، حتى لاح في الأفق البعيد ، بصيص خافت من نور لا يسمن ولا يغني من جوع .

هذه صورة مصغرة عن حالة الانسان في الماضي السحيق ، إنها صورة نتخيلها ولا نشك في حقيقتها ، وان لم نكن من شهودها ، غير أن سنة النمو والارتقاء ، لم تدع الانسان وحيداً في ذلك الغامض المجهول، اذ الحاجة أم الاختراع ، فأخذ يلوب حوله ، حتى عرف بغريزته وتجربته ، أن القيء يخلص السموم ، وأن العرق يهبط الحرارة وينشط البدن ، فبحث عن المقيئات والمعرقات بين النباتات المختلفة ، فوجدها بطريق المصادفة أو التجربة ، واستفاد من بعض الأوراق والأزهار والبزور والاثمار ، يجمعها له بعض الكبراء أو رجال الدين ، يرتلون في أثناء ذلك بعض الغمغمات المجمجمة ، أو يرددون الرقى والتعاويذ ، في ضوء القمر الساطع ، وفي أيام خاصة من الشهر أو السنة وهكذا استطاع في تلك القرون الخالية ، أن يقف على قدميه تارة وأن يتعثر أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يخطو خطواته الأولى ، إلا حينما أخذ يعمل بنور التجربة والعلم ، وهدي المصادفة والمعرفة ، وفي ضوء القواعد الثابتة ، حتى اذا مضت بعض القرون ، ونهض قليلاً من كبوته ، أخذ يعرف بعض المعادن والاملاح ، ثم غط في سبات عميق ، حتى حدث ما أيقظه من غفلته ، وذلك حينما أخذ المتأملون ، ينقلبون الى مفكرين وعلماء ،فاستخدم أدوية نباتية ومعدنية ، واصبح للطب حكماء ، وللبحث علماء ،وهكذا سار الطب صعداً ، واصبح ذلك الوليد الزاحف ، مراهقاً طموحاً فشاباً صبوحاً ، قرأ في إلياذةالعصورالماضية ، كيف كانوا يحتالون على السباع ليشربوا دماءها ، أوليقدموها دواء مفيداً للضعفين والواهنين ، ففكر في استخدام الاعضاء لمعالجة اشباهها المريضةفي الانسان ، ووجد بالكيمياء ، أدوية نقية مبلرة تهبط حرارة المحموم ، وتنوم الأرق وتسكن الآلام . وتقضي على الأعراض أحياناً وعلى الامراض أخرى . ثم عرف الجراثيم

والطفيليات ، فأبدع اللقاحات والمصول ، واكتشف الهرمونات والفيتامينات ، فنهض الطب وتبعته الجراحة ، وفاقت بنهوضها أحياناً عليه ، ولم تعد تقف هذه النهضة عند حدود معينة واستخدمت القوى الطبيعية في الشمس والهواء والماء ، وعرفت الكهرباء والاشعة المجهولة ، وجعلت لكل هذه الوسائل ، أنظمة وقوانين . وكان التمريض وسيلة ثانوية ، يقوم به ذوو المريض أو بعض العجائز المتدنيات ، فاصبحت للتمريض مدارس وقواعد ، تقوم به اليوم من نسميهن ملائكة الرحمة ، ومن اللآلىء دعاهن العرب والاسلام بالآسيات ، وقد عرف منهن في الفتوحات العربية الاسلامية عدد غير قليل ، ثم ظهر نظام جديد هو نظام المتطوعات ، وأصبح للتوليد قابلات اختصاصيات ، وانتزع إلا قليلا من أيدي الجاهلات .

هذه صورة بسيطة عن تطور الطب ، منذ الماضي البعيد ، الى الأمس القريب ، ولكن العهد الذهبي بحق ، إنما هو عهد المرديات (آنتي بيوتيك) ، التي نلمس كلنا اليوم فعلها السحري في شفاء أخطر الاوبئة والامراض ، وانفتح امام الجراحة باب كان موصداً بسبب التقيحات والالتهابات المميتة ، على الرغم من الطهارة والتعقيم ، بعد ان اكتشف العلامة (باستور) الخمائر والجراثيم ، ولكن الجراحة الجريئة ، لم تظهر على شكلها الحالي ، إلا بعد أن عرفت هذه المرديات الفطرية ، فبعد أن لم يكن أحد يقوى على مس القلب أو الدماغ اذا العهد الحاضر ، يزرع القلب والكلية والكبد ، ويخرج الدماغ من علبته العظمية ، ليقطع منه الورم ، أو يرقأ النزف ، أو يفقأ الخراج . واذا كنا لا نريد أن نسترسل في وصف ما وصل اليه العلم والطب اليوم ، فذلك لاعتقادنا أننا لا نزال على الشاطيء ، على الرغم من الاقمار الصناعية والمركبات الفضائية ، والوصول الى القمر والزهرة والمريخ ، فالعلم خضم عميق الاغوار ، متلاطم الامواج ، وإننا لنضحك اليوم من أساليب الاقدمين في المعالجة ولماذا اذهب بعيداً وانا اعتبر نفسي من المخضرمين ، أدركت بعض الماضي ولحقت بالركب المتطور الحاضر ألم نكن نعالج الحمى التيفية ، بلف المريض بالدثر البارد ، وبشراب تافه او حبوب لا تغني فتيلا ؟ وكان المرض ينكس مرة واثنتين وثلاثاً ، ويختلط بالنزف او الانثقاب او بمرض القلب او الكلية او الدماغ؟ ألم نكن نعالج ذات الرئة بالحجامة والنجات الخردلة وبشراب ليست له في نظرنا اليوم اي فائدة تذكر؟ ألم نكن نعالج التهاب السحايا بالحقنة الشرجية ، ووضع العلق خلف الأذنين؟ فاذا نحن اليوم — نعالج التيفية بالكلورافنيكول فيشفى المريض في بعض أيام ، ونعالج ذات الرئة او التهاب السحايا بأحد المرديات الفطرية او احد مركبات السولفا ، فما الذي

يحول دون سخرية الاجيال المقبلة ، منا ومن اساليبنا الحاضرة ، وهل كان احد يظن – لو لا المصادفة – ان – المرديات الحديثة ، تستخرج من العفنيات الفطرية ، التي تملأ ارض المزارع والمقابر ، وهل نظنه بعيداً ذلك اليوم، الذي سيقضى فيه على السرطان، فيذوب بالدواء كما يذوب الثلج – بأشعة الشمس ، وان يمحي الى الابد ، داء السل الوبيل ، وان يقضى على الاصابة بالربو العنيد والعته الباسر ، ومرض الخناق والنزلة الوافدة ، وغيرها من الامراض العنيدة .؟ ولئن نام الطب في الماضي ، بل غط في سبات عميق ، حتى كان الى عهد غير بعيد ، سحراً وطرداً للشياطين او الأرواح الشريرة ، او كان كياً – حتى قيل آخر الطب الكي – او حجامة او علقاً مصاصاً او تبخيراً بالمعادن السامة او حبوب الحرمل ، فان عصرنا الحاضر ، قد جاء بالكثير من الجديد المفيد ، ولسوف تأتي السنون القادمة بالغرائب والعجائب ، بعد ان اصبح كل شيء يسير على هدى العلم والمعرفة وفي ضوء العقول الالكترونية ، وفي الغد القريب ، مستقبل باسم مشرق، لكشوف وبحوث نجهلها الآن، مثلما كنا نجهل الكثير مما نعجب من وجوده اليوم .

واذا كانت الطبيعة تكفل في بعض الحالات ، تسوية الأمر وحل العسير ، فان العلوم الطبية الموزونة ، تعين الطبيعة كثيراً على الصحة والشفاء ، لأنها تسير وفق منهج محكم الوضع ، حسن الصنع ، تحيط به اعتبارات قيمة ، هي التي بعثت في كل الأزمان أطباء تساووا دراسة وتعلماً . ولكنهم تفاوتوا مهارة وفناً ، ذلك ان الانسان المريض ، يختلف كل الاختلاف عن النبات المريض أو الحيوان ، فهو يملك حساً خاصاً ، يبدو حين مرضه بشكل عاطفة جديدة ، انه يشعر ان الموت منه قريب وانه مفارق هذه الدنيا مها طال عهده بها ، لهذا تحيط به الوساوس والهواجس ، وتحتوشه الهموم والاوهام ، ولا ينتظر في هذا الموقف الرهيب ، إلا حس الطمأنينة ، وليس غير – الطبيب الحق ، من يوحي اليه بها ، ولتلعب هذه القدرة المعنوية ، دوراً هاماً في شفاء الحوادث المرضية ، كيف لا ، والصدمة الروحية ، قد تحدث يرقاناً أو بيلة سكرية او غشياً فجائياً ، قد تؤدي جميعها الى انتهاء الحياة . ولقد كنا في وقت قريب مضى ، نضحك من قول القائلين: ان هذه المسكينة ، رأت أفعى بين قدميها فأصيبت بالسل ، وان فلاناً هوجم بإهانة مقذعة فأصيب بداء السكر أو اليرقان أو نزف الدماغ . ولقد تبين ان كل هذه العوامل النفسية تتداخل تداخلاً فعلياً في إضعاف المقاومة واحداث الامراض ، لهذا كانت الراحة النفسية وكانت الطمأنينة في نفس المريض ، يبعثها طبيب حاذق ، يملك الروح الانسانية الطيبة والعلم الصحيح ، كفيلة بمؤازرة المعالجة مؤازرة فعالة مثمرة .

يروي القفطي في تاريخ الحكماء ، أن المعتز بالله ، اعتل في أيام أبيه المتوكل ، من حرارة امتنع معها عن الطعام والشراب والأدوية ، فشق ذلك على المتوكل ، ودعا بختيشوع لمعالجته ، فأخذ هذا يحادثه ويمازحه حتى أضفى الطمأنينة على نفسه ، فأدخل المعتز يده في كم جبّة موشاة مثقلة ، كانت على بختيشوع ، وقال له ما أحسن هذا الثوب، فقال بختيشوع يامولاي هو كذلك ، وثمنه علي ألف دينار ، كل تفاحتين وخذه ، فدعا المعتز بتفاحتين وأكلها ، فقال له بختيشوع : تحتاج هذه الجبة الى ثوب يكون معها وعندي ثوب هو أخ لها ، فاشرب شربة سكنجبين وخذه ، فشرب المعتز وأخذهما فوافق ذلك انفتاح طبيعة المعتز واندفاعها ،فبرىء من مرضه ، فكان المتوكل يشكر هذا الصنيع أبداً لبختيشوع ، وليس يخلق الطبيب مثل هذه الطمأنينة في المريض ، بالايحاء وحده ، أو بالاساليب الطفيلية ، وإنما يخلقها بما يتحلى به من الصفات التي تضعه في ذروة النبل والانسانية : عقل ناضج وفكر راجح ، وعلم صحيح وثقافة عالية ، وأدب جم وفن سديد ، وعاطفة كريمة سامية ، تذكيها الرحمة والشفقة ، باعثة ألماً في النفس على شقاء المرضى الكثيرين . المتدافعين على أبواب المستشفيات والمستوصفات والصيدليات ، وصورة الالم بادية على وجوههم ، وفي عيونهم المالعة ، يقرأ الطبيب الحق والرحماء المشفقون ، اسطر الحزن والكمد ، في أنبل العمل المقدس ، الذي يقدمه لهؤلاء المرضى التعساء ، رسل الخير والانسانية ، من غير تكبر ولا خوف ، بل بوجدان امين وضمير حي ، ورغبة صادقة خالصة .

وبعد لقد تقلب الطب في أحضان الباحثين والرواد الأوائل ، من إيبوقراط وجالينوس الى الرازي وابن سينا ، الى عهد الطب التجريبي ، الذي حسنه العلامة (كلود برنار) بعد أن كان وضع أسسه الطبيب العربي أبو بكر الرازي ، الذي ذكر صاحب طبقات الاطباء مايدل على مبلغ علمه وعقله وفكره الثاقب ونظره البعيد، فقد جيء اليه بصبي كان الى ماقبل ساعات ، صحيح البنية لايشكو شيئاً ولكنه أخذ يقيء دماً أحمر ، ولما سأل الرازي عن الماء الذي مر به وشرب منه ، قيل له انه شرب من بركة ماء آسن ، فأدرك ببعد نظره أنه لا بد أن يكون قد ابتلع علقة ، فحشا معدته بالقز والطحلب ، حيث يعيش العلق عادة ، ثم نكسه ليقيء ، فاذا بالعلقة تخرج من معدته ، ويقوم الصبي سالماً معافى .

وحينما ضجت الدنيا لاكتشاف البينسيلين من العفنيات ، وشفي به أول من شفي من ذات الرئة الخطرة، الوزير البريطاني الاول تشرشل، في غضون الحرب العالمية الثانية،

أخذ العلماء يسمون هذا العهد عهد البنسيلين ، ثم توالى اكتشاف الادوية الفطرية، وعرف الستر تبوميسين ، ولاكتشاف الدواء الاخير قصة طريفة ، فلقد عهد بأمره الى الدكتور (واكسمان) الذي ظل عشر سنوات يعمل في المخابر ، دون أن يصل الى شيء نهائي ؟ فقررت هيئة الاساتذة ، صرفه والاستغناء عن خدماته ، ولكنه لم يكن قد بلغ هذا القرار ، حينما أعلن عن اكتشافه الستربتوميسين الذي يشفي داء السل الوبيل ، فسحب القرار وعين استاذاً أصيلا ، ورشح لنيل جائزة (نوبل) وحصل عليها ، ثم عرف الترامیسین والكلورامفنيكول والتتراسكلين الى آخر المجموعة الطويلة التي أناف عددها اليوم على الثمانين ، والتي افتن الباحثون والمكتشفون في الحصول عليها من فطور الارض وتراب المقابر والمستنقعات ، او من الفطور المزروعة ، وتم بها الانتصار على كثير من الامراض الالتهابية الخطرة ، وعلى السل والافرنجي وذات الرئة والسيلان والتهاب السحايا وكثير من الحميات المختلفة .

لقد غابت عن الوجود الانساني فيما مضى اشياء كثيرة بسبب فقر الاقدمين وحرمانهم من مكتشفات العلم الحديث ومعطياته ، حيث كان الجهل والفقر والمرض ، ادوات فعالة في نقص معدل عمر الانسان ، حتى بلغ في بعض الاحصاآت عشرين سنة ، قد تزيد قليلا او تنقص تبعاً لظروف الحروب والغارات والأوبئة والمجاعات . والعوامل الجوية والأرضية ، واذا كان قد تقلص ظل الكثير من الأوبئة والامراض ، بعد معرفة عواملها واسبابها وبفضل الفحوص المخبرية ، أوباجراء اللقاحات والمصول ، أو بالمعالجات الواقية والشافية ، او قامت بعد الحرب العالمية الثانية منظمة الصحة العالمية ، تأخذ على عاتقها الكثير من مكافحة هذه الاوبئة والامراض ، فان كل هذا لم يمنع انتشار شلل الاطفال ، وآفات القلب ، ولا سيما الاحتشاء «الجلطة» وتصلب الشرايين ، كما لم يمنع وفرة قرحات المعدة والسرطان ، وسواها من الامراض التي نشاهدها كل يوم . مثلما اصبحنا نشاهد حوادث السيارات والطيارات، والانتحار بالسموم والمخدرات ، وتفشي الميوعة والامراض الجنسية ، ولا سيما تلك التي شاعت في الولايات المتحدة ، واخذت تتسرب منها الى باقي الأرض مشيعة بين الشبان والفتيات حوادث الحبل والشذوذ والجنون .

يقول العلامة (الكسي كاريل) في كتابه القيم: «الانسان ذلك المجهول» اذا كان صحيحاً ان الوفيات بالامراض السارية ، قد خفت كثيراً ، واذا كان

الطب قد انتصر على الدفتريا والجدري والسل والتيفوئيد ولكن امراضاً جديدة أخذت تنتشر في العالم اكثر من ذي قبل ، ألا وهي السرطان والسكر وامراض القلب والدم والكلى والدماغ والشرايين ، وارتفاع الضغط وخناق الصدر والاحتشاء (الجلطة) وقرحات المعدة والربو وامراض الكبد ، ناهيك عما تحدثه فينا من الامراض ، حياتنا في ذلك الجو الصاخب المسموم ، المشحون بالضجيج والغازات السامة التي تنشرها السيارات والمعامل وما تحدثه من الأذى في الجملة العصبية والاضطرابات الجسمية والنفسية .

وفي يومنا هذا ، تقوم ضجة عارمة ، حول الوسائل الفعالة ، التي يجب استخدامها لتطهير الاجواء من الجراثيم والغازات السامة ، المؤثرة في الحواس والجملة العصبية والاجهزة الاخرى . مثلما تستولي الحيرة على المسؤولين ، لعمل على منع انتشار السموم المشبوهة ، كالحشيش والافيون والهروئين والكوكائين وغيرها من المواد الكثيرة ، التي تفتن الشباب والمهربون والمتاجرون بارواح الناس وعقولهم في استخدامها وجر اكبر عدد من الفتيان والفتيات اليها ولا سيما في البلاد الامريكية ، التي تأخذ طريقها الى الانحلال والفساد الخلقي والاجتماعي والصحي .

وهذا الداء الافرنجي «سيفيلس» له قصة طريفة ، فقد جاء به « كولومبوس » هدية قذرة من العالم الجديد ، حين عودته من اكتشافه ، حيث انتشر اولاً في اسبانيا ثم في ايتاليا ثم في فرنسا ثم امتد الى بقية البلاد الاوروبية والعالم ، وصارت تنسبه كل دولة الى الاخرى ، فسماه الفرنسيون مرض التليان ، وسماه التليان مرض الفرنسيين وسماه أهل الشرق بالداء الافرنجي . لانه وفد عليهم من البلاد الغربية ، وقامت معالجته اول الامر بطرائق مختلفة ، كانت لها جميعاً اعراض جانبية خطرة اما اليوم ، فقد تم الانتصار عليه بفضل البنيسيلين ، وتقلص ظل المرض بهذه المعالجة ، بالاضافة الى اساليب الوقاية والوعي الصحي ، غير انه - وياللأسف - صرنا في عهد تغلبت فيه الرذيلة والفاحشة . وتفشى التخنث بين الشباب المائع والفتيات في كثير من البلاد الغربية ، ولا سيما في البلاد الامريكية ، وانتشر الى الشرق ، وأدى كل هذا الى عودة المرض بشكل مخيف ، وبات الاطباء يشهدون حوادث هذا المرض ، بعد ان اعتقدوا ان ظله قد تقلص الى الابد .

قلت ان العالم الطبي ، لم يقف مكتوف اليدين ، حيال الحوادث المرضية المختلفة ، قديمها وحديثها وساعدته الفحوص المخبرية العديدة ، على تشخيص الامراض وتوجيه المعالجة ، فوفق في القضاء على الكثير منها ، ولا سيما الحميات والامراض الوبائية وكثير من الأمراض الأخرى ، ولنأخذ السل مثلاً هذا الداء الذي كان غولاً مخيفاً ، يهرب الناس من المصابين به هلعاً وخوفاً من العدوى — اصبح اليوم بعد أن عرفت أدويته الفعالة ، الشافية والواقية ، مرضاً كسواه لا يخشى بأسه بل لقد كان العالم الطبي ، يتأول بعض الاعتبارات فيقول : ان السل مرض ينتشر بين الزنوج والعرق الاسود. انها لاسطورة مارقة من العلم والتحقيق ، لان المفاهيم العلمية ، كشفت عن أسباب هذا المرض والاستعداد له ، من جوع وفقر وجهل وتعاسة ، وهي التي كانت تسيطر على هذا العرق المسكين ، المهضوم الحقوق والمسلوب الارادة الى عهد قريب ، الا نرى بين هؤلاء السود ، أعدى العدائين وأقوى الملاكمين وأشهر المغنين ، وسوف نرى بعد أن يستيقظ ضمير الانسانية يقظة كاملة ، وتستقل كل الشعوب الافريقية ، التي لا يزال المستعمرون يتحكمون ببعضها ، وينتشر فيهم الوعي والعلم وتتحسن شروط حياتهم ومعيشتهم ، فلا يعود هناك جوع لدى السود ، وتخمة في الشعوب المترفة ان هذا المرض الفتاك ، قد زال وجوده بينهم الى الابد .

قلت إن النهضة الطبية في العهد الحاضر ، بفضل الدأب والبحث العلمي المتواصلين قد جاءتنا بالكثير النافع من الادوية والوسائل والعمليات ، كما جاءت بالمعالجة الحكمية والكهرباء والاشعة والذرة ، والمعالجة الرياضية والاقليمية والغذائية ، واقامت في العالم مئات المئات من المؤسسات ، للبحث عن أسباب السرطان ومعالجته ، وظهرت طرق وعمليات لكثير من الامراض الجراحية ، والولادات الطبيعية والمرضية واتجهت معالجة الامراض النفسية والعقلية ، نحو الاستقراء والتحليل ، بعد ان كانت تعتبر جنوناً يضرب فيه المريض ويعذب ، أو تستخدم في معالجته الشعبذة والتدجيل ، واندست بين أساليب المعالجة ، بعض الطرائق التي لا تمت الى الدراسة العلمية بصلة ، ومثال ذلك صانعو الشفاء ـ (Guerisseurs) وهم أشخاص ادعوا انهم يملكون قدرة خارقة في شفاء الامراض يشمون الثياب فيشخصون المرض ، وينظرون في عيون المريض ، فتزول اعراضه ، واصبح لهؤلاء انصار ودعاة ، من العظماء والمفكرين ، وظهر منهم العديدون في فرنسا والمانيا وبلاد اوربا الوسطى والولايات المتحدة وغيرها ، منهم واحد ظهر في مدينة (نيس) الفرنسية ، ووفد عليه كثيرون من رسل الملوك والرؤساء ،

يدعونه إليهم،وخشيت الدولة بأسه وحاولت وقفه ، ولكنه لم يعدم من أنصاره الكثيرين من يدافع عنه ، ويحول بينها وبين منعه أو عقوبته .

ايها السيدات والسادة : بالأمس الغابر كان السحر والتبخير ، وكانت الطيرة والتطير وكان الاحتكام الى الكؤوس والاقداح ، لمعرفة الخطر والنجاح ، في التجارة والسفر أو الزواج وكان الاستقسام بالأنصاب والأزلام . مثلما كانت الكهانة والعرافة والتمائم والنذور وسارت هذه الاوهام الخادعة ، مع توالي السنين سير النار في الهشيم ، ومنذ عهد غير بعيد ، تطور بعض هذه الاساليب القديمة ، فجاء دور الكف والفنجان والورق ، وجاء دور الشافين والناظرين ، ولسنا ندري بعد ماذا سيأتي ، الغد ، ومن يعش رجباً ير عجباً .

فلقد أوردت المجلة الفرنسية الرصينة (بارى ماتش) في عددها الصادر في ٢٤ آذار المنصرم ـ موضوعاً شيقاًعن قارئي وقارئات الحظ والمستقبل ، فيه من الطرافة ما يحملني على ايراد بعضه :

لقد احصى صاحب المقال عدد هؤلاء بأربعة آلاف ، منهم خمسمائة في باريز وحدها ، وتبين له ان الفرنسيين يخسرون وسطياً كل عام من استشارة هؤلاء الناظرين ما يعادل ١٥٠ مليوناً من الفرنكات الجديدة .

وفي احصاءات الشرطة ، ان أقل من الفين من هؤلاء الناظرين والناظرات ، يتحدث بالخير وبلسان محلي دافيء ، تحيط به التعمية والحذر ، مثلما يحيط به الخوف ، ألا تجيء الأمور حسبما يقولون ، على ان الشرطة تحكم بالعقوبة على كل ناظر أو ناظرة ، يؤدي حديثه الى جريمةأو انتحار ، لذلك فقد أخذ معظمهم يتحدث بالخير ، إذ العقوبة هي السجن بين السنة والسنتين مع غرامةمالية كبيرة ، تختلف حسب القانون (٤٠٥) الموضوع منذ عهد نابوليون ، على اثر المرض الذي اصاب زوجته جوزفين بعد الحديث الذي افضت به اليها أشهر ناظرة في ذلك العهد السيدة (لونورمان) ، ولا تزال الرسالة التي كتبتها وتحدثت فيها عن المستقبلالذي ينتظر جوزيفين ، تباع في المكتبات حتى اليوم لما فيها من تلفيق وطرافة وخدعة ونفاق .

وفي الدائرة العشرين من مدينة باريز وحدها ، يراجع كل يوم اكثر من ثلاثة آلاف بائس مضطرب مخدوع، فيستقبلهم هؤلاء الناظرون أو الناظرات الذين يجزمون بمعرفة الماضي والحاضر ـ والمستقبل ، من قراءة الوجه والكفين ، أو من تقاطيع

السحنة وتغضنات الجبين ، ولا يقل ـ الأجر الذي يتقاضاه أحدهم عن ١٠٠ ـ ٥٠٠ فرنك ، بحسب طول باعه المزعوم واشتهار سمعته ، وتدوم الجلسة ساعة على التقريب فاذا كان الناظر مبتدئاً فلا يتجاوز أجر هذه الساعة اكثر من ٥٠ فرنكاً ، وان كان متوسط الشهرة ف ١٠٠ فرنك ، اما الكبار المشهورون فلاتقل اجورهم عن ٢٠٠ ـ ٥٠٠ فرنك ، ويجزم حاملو هذه الصنعة باستنادهم في قراآتهم الى العلم والملاحظة والفراسة ، وانه لا يمكن ان يكون ناظراً ولا ناظرة كل من اراد او ارادت ، بل لابد له من التحلي بالعلم وببعض الصفات النفسية ، وان يعرف لغات اخرى غير لغته وطبيعي ان تكون هذه الصفات ، نظرات حادة ولساناً عذباً وكلاماً معسولاً في نفس رضية محفوفة بغير قليل من الوقار والهيبة ، وفرض الارادة على السائلين ، وغير ذلك مما يشبه كثيراً ما نسمعه من افواه قارئات الفنجان : طرق طويلة واسعة وعديدة ، مال وفير وعز كثير ، سفر بعيد ، زائرون وزائرات ، حركة وجلبة ، حب وزواج مبالغ تقبض ورسائل تتسلم ، وفيارين هذا وذاك . تشاهدي في الفنجان اشعة القمر النيرة تسطع فوق رؤوس الحاضرين ، ولا ندري بعد كم يتسع الفنجان لغير ذلك ، ولاسيما اذا حدث ـ وهذا كثير ـ ان تكون قارئة الفنجان عارفة بأحوال السائلين ، فتحشو كلامها بالكثير مما يتسع له خيالها عن احوالهم ، والى آخر ذلك من الخزعبلات والأضاليل ، والويل كل الويل ، لمن تتحدث له قارئة الفنجان عن شقاء وعذاب ، او قتل وموت ، إذ يبقى المسكين المخدوع ، فريسة الوساوس والاوهام ، وتموت نفسه وحياته الاجتماعية ، بيناهو ينتظر الميتة الطبيعية ، وصدق الله العظيم في قوله على لسان نبيه الكريم : ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير .

واذا كنا لا ننكر قدرة الفراسة ، وقد كانت ومازال ركناً من أركان المعرفة ، كما لا ننكر فضل حدة الذكاء وصفاء الذهن والنظر الثاقب ، الذي يدعي هؤلاء أنهم يستخدمونها في ممارستهم ، فاننا لاننكر أيضاً ، أن الجسم الطبي ، ينظر إلى أمثال هؤلاء ، على أنهم ضالعون في الخداع ، متفننون للدجل والشعبذة ، متاجرون بأرواح الناس وعقولهم ، لذلك فهم إما من المجرمين الذين يجب أن تطالهم يد القانون بالعقوبة ، ولاسيما متى ألحقت تخرصاتهم وأساليبهم ، الضرر والأذى بضحاياهم ، وإما من الذين يتخذون هذه الصفة لمجرد الاسترزاق وجلب المال ، ـ والقلة بينهم ـ يمارسونها ـ للتسلية وقتل الوقت .

وإنه لمن العجيب حقاً أن يجاهر المنكرون بعدم تصديق هؤلاء جميعاً وان كان بعضهم يؤمن بأن قراءة خطوط الكف تستند الى أسس علمية ، فانهم لايجرأون على المناداة بوقف أعمالهم . وأشهر الناظرين والناظرات في باريز اليوم سيدة تدعى مدام (فردريكا) وصفتها مجلة (باري ماتش) بما يلي : ولدت في مولدافيا عام ١٨٨٩ وترعرعت فيها ، كانت تلثغ بشدة حرف الراء ، وحيناً تسهّدت . انتقلت الى باريز ، وأخذت تفتش عن عمل فيها ، فلم تجد غير أن تكون بوّابة : في احدى بنايات الدائرة التاسعة عشرة ، وهناك تفتّح ذهنها بعاشرة الناس وبدأت صنعة الرؤية في غرفتها المتواضعة ، ثم تدرجت وتابعت وانتحلت الفهم العميق والمعرفة الصادقة . بدأ أجرها بـ ٥ فرنكات قديمة ، وكانت تمارس عملها سراً ، أما اليوم فقد انطلقت بعد ما كبرت، وأصبحت تركب سيارة الـ (رولز رايس) ولذلك يقولون عنها انها تجري على الملايين ، مطعمها الدائم ، مكسيم الشهير ، منتجعها الصيفي للسباحة ، دومثيل ـ وكان ، وفي أصابعها تلمع الخواتم الماسية والزمردية والياقوتية ، وتتدلى من عنقها ـ الجواهر واللآلىء والماس ،تستيقظ صباحاً على شراب الشمبانيا، الذي تعشقه ، إذ تشربه صباحاً وظهراً ومساء وكل حين ، معاطفها من الأسترا كان الجمل بالفيزون ، ولكن الحي ـــ الارستقراطي في باريز (نوبورغ سانت هونوره) ، وفي غرفتها رسوم مختلفة لطائر البوم بأوضاع مختلفة ، في لوحاتٍ عديدةٍ على الجدران ، وهي تتكلم عدة لغات ، عاشت سني الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية ، وأحبت ولكنها صُدمت بموت زوجها الأول ، الذي كان ضابطاً قتل في حادث مشبوه ، فتزوجت بعده من سكرتيرها العجوز ، الذي يحصي اليوم زبائنها . اما اجرها الحالي فيتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرنك جديد ، يدخل مستشيروها غرفتها التي ينفتح بابها بالقدرة الالكترونية ، فاذا هم أمام سرير مفروش بريش النعام ، ومغطى بالفرو والمخمل ، وفي الغرفة ــ تلفاز ملون ، موضوع على منضدة صغيرة قرب النافذة المطلة على الحديقة ، فيجلس السائل قبالتها على مقعد وثير ، وينتظر بلهفة وصبر فارغ ، أن تفضي إليه بما يُطمئن نفسه ويزيلُ وساوسه وأوهامه . وقد تحدثت (فردريكا) عن نفسها حيث قالت : ابدأ حديثي مع السيدة بأن أطمئنها بأن زوجها ـ سيعاد انتخابه نائباً أو وزيراً ،فتصدق السائلة سريعاً . لاعتقادها بأن نبوءتها لاتخيب ولماذا ؟ لأن فردريكا كانت قد تنبأت عام ١٩٥٧ بعودة الجنرال ديغول (وان لم تكن الوحيدة في هذه النبوءة) كما قالت لـ موريس شرفاليه أن يجري عملية في أمريكا ، وقد فعل ، ولايزال يشكر لها صنيعها

في حسن ارشادها ، ويغرقها برسائل الود وعرفان الجميل . وهي تقول : إن الناظر يحتاج لآلات وأدوات كي يحسن النظر ، عدسةٌ مكبرةٌ كبيرة ، مضاءةٌ بنور ساطع ، مثلما يحتاج الى لوحات وخرائط ومؤشرات .

وفي مدينة باريز اليوم ناظر مشهور يدعى (باتريك لانو) لايتجاوز عمره الخامسة والعشرين (خلافاً للقاعدة التي تتناسب المعرفة فيها مع الخبرة الطويلة وتقدم السن) ، لهلحية كثة ، وشعور مسترسلة فوق الكتفين ، متوسطُ القامة ، عذبُ النبرات خفيضُ الصوت ، يعطي رأيه بعد أن يحملق السائل في نار مشتعلة أو كرة مضيئة أو شمعة ضخمة تحترق ، وقد استقبله البابا بولس السادس ثلاث مرات ، اذ كان يدعي أنه يستمد نظراته وقرا آته من الخالق العلوي ، وقد بدأ صنعته منذ ثلاث سنوات ، حيثما افترق أبوه عن أمه ، فأظهر اعتراضه وامتعاضه ، فكان نصيبه صفعتين ، فهام على وجهه وزاول كل الصناعات ، ثم وجد أن للرؤية سوقاً دارجة ، فبدأ في غرفة متواضعة في شارع (بيغال) ولكنه يمارس عمله اليوم ، في حي (الباستيل) ، وليس لديه الوقت الكافي للرد على أسئلة الزبائن المتكاثرين حوله ، أجره متواضعٌ نسبياً فهو لايزيد على ٦٠ فرنكاً ، ولكنه يكسب كثيراً لوفرة السائلين ، وفي غرفة الاستشارات ، علقت سُبحة ألفية ، ذات حبات ضخمة ، والى جانبها صليب بسيط من الخشب .

ومثله (ميلان) و (ديبودونه) ويدّعي الأخير أنه تنبـأ بهبوط الامريكان على القمر قبل الروس كما تنبأ بأن الروس سوف يهبطون عليه عام ١٩٧٤ (وانا لمنتظرون) وهو يتنبأ منذ الآن بأن بومبيدو مريض ، وستنتهي ولايته ليحل محله (جيسكار) عـام ١٩٧٦ ، ويقول أنه تنبأ للسيدة (منديس فرانس) بسقوط وزارة زوجها ، كما تنبأ بعودة الجنرال ديغول عام ١٩٦٠ مثلما تنبأ بموته واحتلال بومبيدو مكانه ، ويعد اليوم مرجع المثقفين ورجال الحكم ، ولا سيا الوزراء والنواب الذين يستشيرونه كلما أوجسوا خيفة على مراكزهم ، فيطمئنهم بأن اوهامهم خادعة ، أو يسكت ويفكر ، فيشعر السائل بالحرج . ثم هو يردف قائلاً : كثيرون هم الذين يرغبون في معرفة مستقبلهم ومصيرهم ، ولا سيا رجال السياسة ، وآخرون يستشيرون لمجرد الاطمئنان وراحـة النفس ، عن حياتهم في عالم مضطرب ، يحتوشه الذعر من كل جانب ، وهناك عدد غير قليل من السائلين يعتقدون أن استشارة الناظرين ، لا تقل قيمة ـ ويا للأسف ـ عن استشارة الأطبـاء ـ

أيها السيدات والسادة ، لنعد بعد هذا الاستطراد الذي طال قليلاً ، الى ما كنا فيه ـ

النفرر أن عهد الطفرة العلميـة الصادقة ، بدأ متسارعاً منذ ما تنبهت افكار الباحثـين الى استخدام الاعضاء المختلفة مكان بعضهـا بعضاً . فلقد أعطيت اولاً خلاصات الاعضاء المأخوذة من الثيران أو الخنازير ، كخلاصة الكلية والخصية والمبيض والكبد ، ثم نقلت الكلية نفسها ودفنت في العنق ، ثم أجريت هذه العملية بوضع الكلية في مكانها الطبيعي ولا سيما بين التوائم او بين الاصحاء الذين يتبرعون باحدى كلام لمريض عزيز ، كما هي الحال بين زوج وزوجته أو بين قريب ونسيب ، أو بين صديق وحبيب . لأن الانسان يمكن ان يعيش بكلية واحدة ، ولو ذهبنا بعيداً ، لقلنا إن العلم اذا توصل لنقل عـين سليمة ، مكان عين لا فائدة منها ، يمكن التسامح إذا تم الأمر برضى الطرفين ، ولو أن العين من أعز الاعضاء على الانسان وهذا الذي ظهر من تغيير الاحشاء المصابة بأخرى سليمة ـ على طريقة قطع التبديل ـ يعتبر فتحاً جديداً هاماً في عالم التغلب على الامراض، ولعل أهم نجاح أحرزته الجراحة اليوم ، هو عملية زرع القلب ، حديث العالم الطبي في يومنا الحاضر ، فلقد تطورت عمليات القلب من المغلقة الى المفتوحة ، الى وضع الاجهزة الدسامية المرنة او المعدنية ، الى ان قام المغامرون الدائبون ، يبدلون قلباً مريضاً بقلب سليم ، هذه العملية التي لم يكن يصدقها العقل ، والتي بدأها الدكتور (برنار) ثم انتشرت بين جراحي القلب في العالم ، ومع كل هذه الضجة الصاخبة والفرحة العارمة ، لم يحن بعد الوقت الذي يستطيع فيه عالم الطب والجراحة ، أن يبت في أمر هذه العملية الجريئة المحفوفة بالمخاطر والمخاوف ، والمحاطة بكثير من المؤيدين، وكثير من المعارضين لأن هذه العملية الناشئة ، واجهت الكثيرين ممن يعترضون عليها بقولهم ، ان الادعاء بأن القلوب المنقولة ما هي الا لاشخاص قضي عليهم بالموت فعلاً ، هو ادعاء تنقصه البراهين الكثيرة حتى ان مجلس الوزراء الفرنسي ، عقد جلسة خصصها للاستماع الى التقارير المختلفة ، عن تحديد معنى الموت الشرعي ، وجاء في أحد التقارير ؛ ان النقص التام لاحتياطي الحياة لدى صاحب القلب المأخوذ ، هو السبب في اتخاذ الجراح قراره في أخذ قلبه واعطائه لمريض مقلوب ، كلام فيه كثير من التعمية والغموض . وقد نشرت مجلة (لايف) في أحد أعدادها ان الدكتور (دانتون كولي) وهو من أكبر جراحي القلب في العالم . يقول : ان المشكلة الرئيسية ، التي ما زالت قائمة في وجه هـذه العملية ، هي انكار القلب على صاحبه ، واعطاؤه لمريض آخر ، بحجة ان المأخوذ قلبه ميت حتماً أو أنه في لحظات حياته الاخيرة ، وهي مشكلة لا نقوى على حلها والجزم بتحديد حالة الموت وانقطاع الامل ؛ وقد سمعت من المرحوم الاستاذ الكبير (لونغر) حينما دعوته ليحاضر في دمشق.

أنه من أعداء هذه الطريقة . لان الطب لا يزال عاجزاً عن الحكم على الموت الحقيقي . اذا كان — من سيؤخذ قلبه — وهم عادة من الذين قضي عليهم في حادث سيارة أو سواها — لا يزال في الساعات الاولى بعد الحادث الذي أصابه .

وفيما عدا هـذه الطرق الجراحية الهامة ، فان بعض الجراحة اليوم ، يقوم على الترف أو السرف ومثاله الجراحة التجميلية، التي تصلح ضخامة الأشداق والانوف القني، وتمنع تهدل الجلد — بين الذقن والعنق ، وتمحو ثنيات الجبين المتغضن والظلال المحيطة بالعينين، وتعيد النهود المدلاة ، الى الوضع الذي كانت عليه في سن الشباب ، وان كانت هـذه الجراحة ، لم تقو على جعل امرأة في الستين أو السبعين ، تشبه فتاة العشرين أو الثلاثين.

وفيما بين هذا وذاك ، خشي الكثيرون من وفرة النسل ، وما يمكن أن تجره على البشرية — من مجاعات وتزاحم على الارض ، فقامت الدعايات ، ووجهت النـداءات ، وتعالت الصيحات — مطالبة في جميع أنحاء العالم ، بالحد من وفرة النسل ، ففي الهند وحدها مثلاً ، وهي التي يبلغ عدد نفوسها حوالي خمسمائة مليون نسمة ، يزيد عدد أفرادها ثلاثة عشر مليوناً كل عام ، وتزداد بهم دائماً ، أزمة الغذاء وما بعده ، وانتشرت الأدوية المضادة للحمل ، وهي نوع من الهرمونات الأنثوية ، تتحكم في تنظيم الطمث والاخصاب معاً ، وقد كانت لجنة علمية في منظمة الصحة العالمية ، بدراسة هذه المواد ، وتسربت انباء مبدئية ، تقول بوجود اضرار جانبية هامة باستعمال هذه الحبوب ، ولذلك أخذ العلمـاء يبحثون منذ الآن عن علاج آخر ، يقوم مقامها في الحد من النسل وتكاثر السكان . وتضج كل وسائل الاعلام اليوم ، بالدعاية لأدوية جديدة خوفاً من مجاعات مقبلة ، قد يأكل الناس فيها بعضهم بعضاً .

أما بعد ، فلن تحول كل هذه الجهود الطبية أو الجراحية ، الوقائية أو العلاجية ، دون الموت المحتوم ، ولن تستطيع ذلك فيوم من الأيام ، على الرغم من البحوث العميقة التي تجرى في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وسواهما . وليس هذا التفكير جديداً على العلم ، فحينما برع العرب في السيمياء ، وهي الكيمياء كما نسميها اليوم ، كان هم علمائهم ، البحث عن أكسير الحياة ، الذي يطيل العمر ويصارع الموت ، ويجعل الانسان في شباب دائم .

ولكن ماهي أسرار العمر الطويل ؟ وكيف الوصول اليها ؟ ومن هم المعمرون في عرف الأقدمين والمحدثين ، ان سنة الكون هي أن يعيش الانسان عمراً محدوداً ، لأن

انحلال الاعضاء ــ وضعف الغرائز ، وانهيار القلب والكبد والكليتين ، ووهن الاعصاب والعظام والعضلات وتصلب المفاصل والشرايين ، وضعف السمع والبصر . كل ذلك يجعل الموت قدراً حتمياً ، ان لم يكن بأحد الامراض التي تصول على البدن . فبالانحلال الطبيعي كما يسمونه ، على أن طول العمر الذي يزيد على الحد المألوف ، كثيراً مايجعل صاحبه عيوفاً ملولاً . يتمنى الموت لنفسه ، كما يتمناه له من حوله ، ولو كانوا أقرب المقربين اليه . يقول السجستاني ــ في تعريف المعمر ، استناداً لما يقوله قدماء العرب : هو من تجاوز العشرين بعد المائة ، وقد جاء في اخبار هؤلاء المعمرين ، مايدل على تمتع بعضهم بصحة جيدة ، الى آخر نفس في حياتهم كما يدل على مبلغ ماعاناه بعضهم الآخر ، من الملل والعذاب وسوء الاحتمال ، بسبب مالاقوه ممن حولهم ، ويروى ان كعب بن رداة النخعي . الذي قيل انه عاش ثلاثمائة سنة ــ وفي هذا كثير من المبالغة على ما أعتقد أنه قال :

لقد ملّني الأدنى وأبغض رؤيتي وانبأني الا يحلّ كلامي
على الراحتين مرة وعلى العصا انوء ثلاثاً بعدهن قيامي
فياليتني قد سخت في الأرض قامة وليت طعامي كان فيه حمامي

ولبعض المعمرين نوادر وعجائب ، جاء في أسد الغابة ، أن قبات بن أشيم الكناني ، شاهد حرب الفيل قبل الاسلام ، وحارب في صفوف المشركين يوم بدر ، ثم اعتنق الاسلام ، وصار من الصحابة ، حيث عاصر الخلفاء الراشدين ، وعاش في خلافة معاوية ، وشهد الحرب بينه وبين علي ، كما شهد خلافة ولده يزيد ، وظل حياً الى زمن الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان .

ومعمر كبير من اسرة عريقة في دمشق ، كان يحتل مركزاً كبيراً في القضاء الشرعي ، عاش كما روى الراوون ١٢٠ سنة ، وقال بعضهم إنه بلغ الخامسة والثلاثين بعد المائة ، كان عالماً متمكناً وصاحب نظر بعيد وذكاء حاد ونكتة حاضرة ، وكان يزوره في أواخر أيامه ، اصدقاؤه ومحبوه وعارفو فضله ، وكثيراً ما كانوا يستشيرونه فيا غمضت أحكامه الشرعية عليهم ، فكان يدل السائل على الرف الثاني من المكتبة الموجودة دائماً في غرفته ، لاتفارقه ولا يفارقها ، ويشير اليه بان يسحب الجزء الثالث من الجهة اليمنى ، وأن يفتح الصحيفة الرابعة والسبعين ويقرأ فيها السطر الثاني عشر ،

فيجد فيه جواب سؤاله ، وقد يظن البعض ان هذه القصة موضوعة ولكنها تواترت ورواها عدد غير قليل من الصادقين .

واعتقد ان الذين قرأوا كتاب المعمرين والوصايا ، عجبوا مثلي مما ورد فيه من اخبار عدد غير قليل ، ممن عاشوا مائتي سنة أو اكثر ، وذلك في وقت لم يكن الطب فيه ، إلا مبادىء وشعوذات ولكن ما يبرر قبول الروايات – مع بعض التحفظ – هو أن سر الاعمار الطويلة عند بعض الناس ، وقصرها عند بعضهم الآخر ، يكمن في طريقة عيش الانسان وفي بيئته ونوع غذائه والعوامل النفسية التي تحيط به من سرور وسعادة أو قلق واضطراب منذ بدء حياته ونشأته في طفولته الى مراهقته وشبابه وبقية حياته كما يكمن في العادات الضارة التي اتبعها او تحاشاها من إفراط في ممارسة الجنس والانكباب على تناول المشروبات الكحولية والاغذية الدسمة وركون الى الكسل وعدم ممارسة الرياضة . الى غير ذلك من الاسباب العديدة التي تتداخل تداخلاً كبيراً في طول العمر وقصره . ولقد بحث (ميتشنيكوف وباولوف) في عهدهما عن أسباب الشيخوخة وقالا بارتباطها بنشاط المجموع العصبي . أما (فرويد) فقد عزا الشيخوخة المبكرة الى الافراط في استخدام الوظيفة الجنسية . واما البحوث العلمية الحاضرة التي يتسابق العلماء في اجرائها الآن ولا سيما في الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . فقد أبانت ان عمر الانسان يمكن أن يمتد الى مائة وخمسين سنة اذا عرف مربوه في اول حياته كيف ينشؤونه تنشئة صحية وقائية وعلاجية ثم عرف هو نفسه كيف يتحكم في اعضاء جسمه وغرائزها وفي عواطفه وحدودها فلا يخلط في الطعام والشراب ولا يبالغ في السهر ولا يسرف في اللهو ولا يستسلم لرغباته الجنسية الملحة ولا يتعرض للغضب والانفعال ولا تتأثر بالحوادث المقلقة والاكدار . ولقد قال الشيخ الرئيس ابن سينا :

ثلاث هن من شرك الحمام ... وداعية الصحيح إلى السقام
دوام مدامة ودوام وطء ... وإدخال الطعام على الطعام

إذ ان جميع ذلك يؤدي الى خلل في وظائف الاعضاء المختلفة ، ولا سيما في الغدد والاعصاب ، وفي افراز كثير من مادة الأدرنالين ، التي تتداخل في رفع الضغط وتصلب الشرايين ، وضعف جدرانها حتى يترسب عليها الكولسترول ، فيصبح الشاب قبل الأوان فريسة أمراض القلب أو الكلية أو الدماغ .

ومما لم يعد فيه شك ، أن للوراثة شأناً كبيراً في جميع ذلك ، فاننا لنشهد أسراً يكون أفرادها اقوياء العضلات ، نشيطي الحركة ، متفتحي الذهن ، يعمرون طويلاً ولا يهرمون ، وكذلك يكون ابناؤهم واحفادهم، وعلى العكس من ذلك، هنالك أسر افرادها هزيلون نحيلون ، ضامرو العضلات مصابون بفقر الدم ، قليلو النشاط والذكاء ولا سيما تلك الأسر التي يكثر التزاوج بين أفرادها وهو مايدعى بالضوى، ومنه الحديث الشريف: اغتربوا لا تضووا ، اي تزوجوا بالغريبات لئلا يكون نسلكم ضاوياً هزيلاً . وأسرة عريقة كبيرة ، ينتشر أفرادها بين سورية ولبنان ، تأصلت فيهم عادة التزاوج من بعضهم بعضاً ، فاذا معظمهم هزيل نحيل، يحملون سحنة متشابهة خاصة، وتظهر الصفرة الخاسفة جلية على وجوههم ، ويشكو أكثرهم من امراض مختلفة ، وقد شذ منهم عالم وأديب فاضل تزوج من غريبة عن الأسرة ، فكان نسله أصح بنية وأقوى عقلاً وأكثر جمـالاً كما ان الكثير من جيل الشباب الحـاضر ، أدرك خطيئة الآباء والاجداد ، فأخذوا يقترنون بالغريبات عن أسرتهم .

ان توفير الخدمات الطبية بشكلها الحاضر قد زاد في عدد المعمرين نسبياً وتضاعف عدد الشيوخ الذين تجاوزوا الثمانين خمس أو ست مرات مابين اليوم وما قبل ثمـانين سنة وان ماورد ذكره في التاريخ عن اخبار المعمرين القدامى كان في عهد الحياة البسيطة التي لا تعقيد فيها وكان الغذاء مقتصراً على القليل من النباتات وما يقيم الأود ولم يكونوا يعرفون مثل اليوم الأشربة الروحية والتدخين ولا المشهيات البهارية والغولية والغازية ولا التخليط في الاطعمة الدسمة مما يعرفه البشر اليوم الذي جابه امراضاً لم يكن له بها عهد من قبل وقد حملت الينا الاخبار العالمية نبأ اكتشاف منطقة مجهولة في القارة الامريكية تقع عنـد خط الاستواء سكانها لايزالون على الفطرة لم يفسد اجسامهم شيء من اضرار المدنية الحديثة واثبت البحث والتحقيق أن عدد المعمرين فيهم كبير جداً وهم يصلحون مثلاً واضحاً للمعمرين الذين يعيشون الحياة البسيطة والعيشة الوادعة .

كما روت الاخبار العالمية ان المسن السوفياتي (شيرالي مسلوف) قد احتفل من عهد قريب بعيد ميلاده الثالث والستين بعد المائة ، وتصوره الصحف وهو على أتم ما يكون من الصحة والنشاط ، يفحص أزهار حديقته بدقة وعناية، كما روت أخبار المسن السوفياتي (بالاكيشى أوريجيف) الذي تزوج عام الف وثمانمائة وسبعة وستين ، يقف معتزاً بين أفراد اسرته الكثيرين، يوهم انه لا يزال قوياً ، — ويصارع احد أبناء حفيد

له من الشباب ، فيلقيه ويصرعه ، وقد سئل كيف بلغت هـذا العمر ، فأجاب : اذا اردت أن تعيش مائة وخمسين سنة ، فاعمل دائماً ، وتزوج امرأة صالحة ، وكان قد عقد على زوجته (أمينه) في عام الف وثمانمائة وسبعة وستين ، وكان كل منهما في سن الزواج طبعاً ، واحتفلا بعيد زواجهما الفضي ، عـام الف وثمانمائة واثنين وتسعين ، وبالعيد الذهبي عام الف وتسعمائة وسبعة عشر، وبالعيد الماسي عام الف وتسعمائة واثنين واربعين ، واحتفلا منذ أربعة أعوام . بعيد زواجهما البلاتيني، ويدلنا هذا الاحصاء، أن زوجته عاشت عمراً طويلاً مثله .

وطبيعي أن الذين زادت اعمارهم على المائة ، وظلوا في شيخوخة حلوة مرحة ، على قلتهم ، هم من ذكرنا في طريقة عيشتهم الحميدة المعتدلة ، واما الذين سئموا حياتهم ولما يبلغوا الثمانين — ومثالهم الشاعر الجاهلي زهير بن ابي سلمى الذي قال في أحد أبيات معلقته الشهيرة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمـانين حولاً لا أباً لك يسأم

فهؤلاء هم الذين عاشوا في ظل الضعف والعجز والمرض ومثالهم ذلك الشاعر القائل:

إن الثمانـين وبلغتها قد أحوجت سمعي الى ترجمان

وكأنه يرى ان الثمانين كثير . فيدعو لاصحابه ببلوغها. وليرحم الله المتنبي شاعر الحكمة حين قال :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهى من أن يُمَلّ وأحلى
واذا الشيخ قال أفٍّ فما مـا لّ حياةً وانما الضعف ملا
آلة العيش صحـة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى

وبعد فقد يقول القائلون . ويتساءل المتسائلون . ما قيمة هـذا الرقي العلمي في الطب وغيره ، ما دام العلم نفسه ، يجود على البشرية كل يوم ، بآلات التخريب والقتل والتدمير . بما يزيد فتكاً عن الأوبئة والامراض كافة.وماذا وراء هذه التجارب الذرية. التي تتعدد المؤتمرات كل عام . في سبيل منعهـا . وجعل الذرة في خدمة الانسانية . وماذا لو قامت حرب عالمية ــ جديدة . لا سمح الله ، وركب المتخاصمون رؤوسهم في

الغرب والشرق ، هل سيكون عدد الضحايا أقل من مئات الملايين . بل ماذا ستكون حال البشرية . لوتغلغل الشر في النفوس . أكثر مما هو عليه الآن ، فاستخدم الطب نفسه في سبيل قتل الانسان للانسان، والقيت القنابل التي تحمل جراثيم الاوبئة الفتاكة. أفلا تكون بذلك نهاية البشر الحتمية .

بقي علي قبل ختام هذه الكلمة ، أن أعرض حالنا وما نحن عليه ، في خضم هذه التيارات العلمية المتلاطمة ، في البحث والكشف والاستقراء ، والتي كانت الى عهد قريب ، ضرباً من الخيال ، فاذا العلم يبدعها ووضعها بين أيدينا حقائق ثابتة . يجب أن نعلم اولاً ، ان الطبيب او العالم او الاختصاصي باي فرع من فروع العلم والمعرفة ، مهما علت مداركه ، ومهما أحاط بالجديد الجديد . فان قدرته العقلية ، لن تقوى على استيعاب كل المكتشفات ، أو الالمام بكل المستحدثات ، وقد كتب صديقنا الاستاذ الكبير (ميليز) في مجلة (باري ماتش) ، رأيه بهذا الأمر ، مؤيداً هذا الواقع بما لايدع زيادة لمستزيد ، وان الاختصاص الدقيق ، جاء يحل هذه المشكلة حلاً مقبولاً الى حين ، قلت الى حين ، لأنني لا أزال اذكر ماتندر به كبير اساتذة امراض القلب ، صديقنا المرحوم (لونفر) فقد قال ، ربما أدرك عهدنا اختصاصيين في الكلية اليمنى وآخرين في الكلية اليسرى ، لما لم يظل الطبيب او العالم او الاختصاصي باي علم آخر ، متصلاً بالتجدد العلمي ، الذي تنشره الكتب والمجلات ، وما لم يراقب بنفسه وبأم عينيه وبيديه مايقال ويعمل في انحاء العالم ، فانه سيبتعد حتماً عن الصفات التي يجب ان يتحلى بها ، وان يسبغ مايأتي به العلم ، لا ان يكون متفرجاً أو مقلداً بل يساير ركب العلم الحاضر المسرع حثيثاً نحو الأمام ، مسهماً باخلاص كامل وفعالية مثمرة ، في تحمل مسؤوليته نحو العلم المتطور ، ونحو مصلحته ومصلحة المواطنين الذين نذر نفسه لخدمتهم وإني إذ اضع هذه الصورة ، فلتكون حافزاً على الحركة والنمو ، والتطور العلمي والثقافي والاخلاقي لنمحو من أذهاننا فكرة التقليد والتواكل ونخلع عنا ثوب الكسل والاهمال ، وأهم من هذا لنشعر أنفسنا أننا لسنا على الحالة التي يريدوننا أن نكون عليها او ان نعتقدها : أمة متخلفة تأخذ بالتطور البطيء البطيء وتحتاج للمساعدة الكبيرة الكبيرة اذ ان قليلاً من الحزم والارادة الواعية والدفع الخلاص ، يجلو بسهولة ويسر ، امكانات شعبنا الذكي ، ويظهر ابداعه ومواهبه الخلاقة ، واننا لنجزم أنه لو أتيح لنا من القوة والاستقرار ، ما أتيح لاولئك الذين حملوا مشعل العلم والحضارة في تاريخ العرب ، لكان لنا شأن أي شأن ، ولعل بعض العذر يكمن في الأحداث القذرة التي

نجابهها بحزم وصمد ، أو في تلك الحرب الخفية ، التي تقوم بها وسائل الاعلام العدوة ، للدس علينا والتشكيك في امكاناتنا وقدرتنا ، لتجعل من العربي اتكالياً مجرداً من الاحاسيس القومية والامل معقود على الوعي العربي بين كل المواطنين على السواء من الطبيب الى الفلاح ومن المحامي الى العامل ومن الصغير الى الكبير اطفالاً وشيوخاً شباباً وكهولاً رجالا ونساء فالكل سواسية في تحمل المسؤولية وما لم تتبدل مفاهيمنا لحقيقة مايجري حولنا وعلى وجه هذه الارض وما لم ندرك اطماع الطامعين فينا والمستعمرين وما لم ننتهج مانهج عليه سواناً ممن سبقونا في مضمار الرقي العلمي والطموح الفكري ومالم تكن لنا الثقة كل الثقة بقدرتنا على اللحاق بالركب. وما لم تمح من عقولنا أوهام خلفتها رواسب الماضي البغيض ودفعنا بانفسنا في جد وحزم الى الشعور العميق بالمسؤولية ما لم يتم ذلك كله فلن نقوى على التحكم في واقعنا وما يحتوشه من امراض صحية وخلقية واقتصادية واجتماعية .

وغداً، حينما تتحقق المعجزة فيزول عن الارض كابوس التناحر البغيض ويعيش العالم في سلام دائم ، وتنبلج في الافق انوار الحق والعلم والعدل .

غداً حينما تتفتح سبل الانسانية الخيرة الحرة العزيزة .

غداً حينما تنهدم الحواجز التي اصطنعها خصومنا لاضعافنا والتفريق بيننا والنيل منا..

غداً حينما يعيد التاريخ نفسه ، وتغدو بحق حفدة اولئك الكماة الاعزة والعلماء الفطاحل ، يهال القدر ، وتنهل السماء بالرحمة والنعمة والخير ، ويزغرد نور الفجر الجديد للحق والعلم والكرامة .

وان غداً لناظره قريب .

المذنبات

حقائق وأوهام

المهندس
وجيه السمان

ما أغرب هذا الزائر الذي يبرز من أعماق الفضاء ويقترب من عالمنا متجهاً بسرعة كبيرة نحو فلك الأرض . يسير في طريقه غير مبال فيقطع الافلاك التي تتبعها السيارات في دورانها حول الشمس كأنما هو يعصي ، عابثاً ، كل القوانين السماوية التي تنظم حركات السيارات حول كوكبها المضيء .

كل يوم ينقضي على ظهور هذا النجم التائه ينقص من بعده عنا عدة ملايين الكيلومترات لقد كان منذ بضعة أسابيع يبدو للفلكيين في مناظيرهم لطخة سديمية شاحبة ، أدق من هدبة في سحابة ممزقة . أما اليوم فقد كبرت اللطخة وانتفخت وزادت كثافتها ونبتت لها شعور منتفشة .

كلما زاد اقتراب هذا الشريد الغريب من الشمس في سيره الجامح ، زادت التغيرات الطارئة عليه غرابة وزاد العجب من منظره ، ها هو قد بدأ ينبت له ذيل كأنه غشاء خفيف شديد الشفافية الى حد أن النجوم ترى من خلاله . ثم يأخذ هذا الذيل بالتطاول والامتداد بينما يضخم الرأس جداً وتظهر حوله هالة ضبابية كبيرة مضيئة . لقد أصبح هذا الزائر الغريب منظراً فريداً في السماء ليس له شبيه بين النجوم والابراج .

ثم تزداد سرعة المذنب في هجومه على الشمس وتكبر خصل شعره وتتجعد على رأسه ويعظم ذيله المتموج طولاً ، الى حد أنه يكنس قبة السماء . وكأنما تدافعه الشمس عنها فتنفخ عليه ريحاً خفية تزيد من انتفاش شعوره وتدفع ذيله الى أبعد مايكون ، أو كأنما كان هذا الذيل يخشى الشمس فيختبي منها وراء الرأس .

لقد وصل المذنب الآن في سيره الحثيث الى أقرب نقطة من محركه الى الشمس ، فيخاله الانسان مندفعاً نحو قرصها الملتهب ، غير عابىء بناره المستعرة كأنه يريد أن يقذف بنفسه في خضمها .

لكنه سرعان ماينعطف في سيره ويأخذ بالابتعاد عن الشمس تدريجياً ، متجهاً نحو أعماق الفضاء التي جاء منها . وكلما ازداد بعده عن الشمس نقص حجم رأسه وتقلص ذيله وتضاءل نوره . ثم بعد أمد ، لايعود يرى إلا بالمناظير المجسمة . ثم تسدل عليه حجب الفضاء القاتمة .

ماهو النجم المذنب ! تصوروا كتلاً من المواد الصلبة والاحجار والقطع المعدنية والغازات المتجمدة لا يصل بينها لاصق ولا مداد وانما يربطها ببعضها التجاذب المتبادل بينها ، وقد جمعها تصادف وجودها في الفضاء على نفس المحرك . هذا التجمع الغريب لقمامة الفضاء هو الذي يكون نواة النجم المذنب . ولما كان تجمعاً غير متراص ولا متماسك ، فان ثقله ليس بالكبير ، ويندر أن يبلغ قطر رأس المذنب أو نواته كيلومتراً . فلو أنه كان مؤلفاً من مواد متراصة كالأرض لبلغت كتلته عدة مليارات من الأطنان . ولكن لما كان الفراغ فيه يؤلف ٩٥٪ منه ، فان كتلته لاتتجاوز ٢٥ مليون طن . لذلك فهو أصغر بل أخف من تابع صغير أو من نجيم . ولما كانت الجاذبية تجره على محرك متطاول جداً ، فانه يبتعد عن الشمس مئات

ملايين الكيلو مترات ولا يعود يرى حتى ولا في أقوى الراصدات تجسيماً .

لا تصبح نواة المذنب مرئية الا عند اقترابه من الشمس . وكلما زاد قرباً منها زاد تسخنه ، وعندئذ تسيل الغازات التي كانت متجمدة فيه ، ثم تصبح أبخرة ، كما تنصهر القطع المعدنية وتتبخر ، فيتشكل حول كتلة الاحجار جو مخلخل خفيف جداً ، ويستنير هذا الجو كما يستنير الغاز الذي في انبوب النيون بتأثير اشعاع الشمس ، فيبدو للناظر كأنه هالة مضيئة تحيط بالنواة ، ويتسع حجمه جداً فيبلغ قطر الهالة ٠٠ ه ألف كيلو متر وقد يتجاوز المليون أحياناً ، وتغدو النواة جرماً صغيراً لا يكاد يرى وسط هذه الهالة الضخمة .

وكلما زاد اقتراب المذنب من الشمس زاد تأثيرها فيه . فالغازات التي كانت متضمنة داخل المواد الصلبة تنتشر منها بغزارة ويزداد الحجم (أي شعر المذنب) وعندئذ تدخل في الميدان قوة جديدة هي قوة ضغط ضوء الشمس .

ذلك لأن اشعاع الشمس له ضغط مثل ضغط الريح . واذا سقط على جزئيات دقيقة جداً كالتي تؤلف هالة المذنب . دفعها الى الوراء . فيلد للمذنب ذيل يستنير هو الآخر بالتلألؤ . ويزداد تطاولاً كلما زاد اقتراب المذنب من الشمس . وهكذا يتكامل شكل المذنب .

يغلب على المذنبات ان تكون صغيرة لا ترى الا بالمنظار الفلكي . لذلك لم يسجل لنا التاريخ ظهور العديد منها لأن المذنبات التي رآها الناس واشتهر مرورها في سمائنا . قليلة نادرة . واواخر ماشوهد منها بالعين المجردة كان في التواريخ الآتية :

١٩٠١ ، ١٩١١ ، وقد سمي هذا الأخير بمذنب الفيضانات ، ثم مذنب هالي ١٩٢٧ و ١٩٤٧ ، ومذنب ١٩٤٨ و ١٩٥٧ وهو مذنب رولاند ، ومذنب ١٩٦٥ . وقد شوهد مذنب كبير في سمائنا في شتاء ١٩٦٩-١٩٧٠ .

أما مذنب هالي ، فان نواته صغيرة جداً . ولكن شعوره امتدت مسافة ٥٠٠ الف كيلو متر ولم ينتقص طول ذيله عن ٢٥ مليون كيلو متر . وأما مذنب عام ١٩٥٧ فقد كان له ما يشبه عرف الديك وكانت نواته غير مرئية . وهنالك مذنب اكتشفه يابانيان من هواة التنقيب عن المذنبات يبلغ طول ذيله رقماً قياسياً ، ١٠٠٠ مليون كيلو متر ، ومع هذا الطول المديد فان هذا الذيل لو جمع وضغط حتى صارت كثافته بقدر كثافة الهواء لأمكن وضعه في حقيبة سفر .

كانت المذنبات منذ أن عرفها البشر باعثة على الخوف والتطير والتشاؤم . فاعتبرت منذرة بالكوارث والاوباء والحروب . واخيراً صار الناس يخشون النتائج المفزعة لاصطدامها المحتمل بالأرض .

نذكر بهذه المناسبة ما قاله الشاعر أبو تمام الطائي في قصيدته المشهورة التي نظمها في مدح الخليفة المعتصم واشاد فيها بحكمته وشجاعته واقدامه في فتح عمورية وبكفره بالتنجيم وبالتطير من المذنبات ، فقال عن المنجمين :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

ولتبديد المخاوف من نتائج اصطدام المذنبات بالأرض يكفي ان نفكر بلطافة شعور المذنب فهي اذا مرت والذيل بجانب الأرض او لامستها فلن يشعر بها البشر . وقد وقع ذلك فعلا عام ١٩١٠ اذ اخترق الارض ذيل مذنب هالي فلم يشعر بذلك احد بالرغم من أن هذا الذيل كان يتألف من مواد سامة . اما الاصطدام بالنواة فله شأن آخر .

تدور السيارات حول الشمس على افلاك اهليلجية مغلقة . أما المذنبات فانها ، وان كانت خاضعة لقانون الجاذبية العام ، فقد تأتي من خارج المجموعة الشمسية وتدخل في نطاق جاذبية الشمس ثم تغير طريقها وتتجه الى عالم آخر غير مجموعتنا الشمسية .

أعد احد الفلكيين عام ١٩٥٢ قائمة بجميع المذنبات التي سجلها التاريخ منذ عام ٤٦٦ قبل المسيح ، فبلغ العدد ٥٤٨ مذنباً ، تبين ان منها ٢١٢ مذنباً لها افلاك اهليلجية فهي تدور اذن بانتظام حول الشمس ، وهنالك ٣٢٦ مذنباً لايعرف عنها إلا أمر واحد هو انها تأتي من خارج النظام الشمسي فتجري على محرك هو قطع مكافىء ، ثم تعود من حيث اتت .

والنتيجة المباشرة لهذا التمييز بين طائفتي المذنبات هي ان ثمة طائفة تعود الينا في مواعد منتظمة دقيقة وان طائفة أخرى لاتزورنا الا مرة واحدة . فالنوع الاول ، هو كمذنب هالي والنوع الثاني هو كالمذنب الذي اكتشفه اليابانيان .

وهالي هذا هو فلكي انكليزي عاش في القرنين ، السابع عشر والثامن عشر ، وهو أول من درس المذنبات وأكد انها كغيرها من الكواكب — تخضع لقانون نيوتن في الجاذبية وتنبأ بأن المذنب الذي زار الأرض عام ١٦٨٢ سيعود اليها بعد ٧٥ سنة .

أما الآن فلم يعد مذنب هالي الا واحداً من المذنبات ذوات الفلك الاهليلجي التي ترتقب عودتها في مواعيدها . وأما اقدم المذنبات عهداً فهو ذلك الذي زار الأرض عام ٤٦٦ قبل المسيح ، فهو يشاهد كل ٧٦ سنة ، وقد سجلت له عدة زيارات منها واحدة عام ١٠٦٦ وعام ١٤٥٦ ، وذلك بعد سقوط القسطنطينية بيد الأتراك بثلاث سنين ، وكذلك عامي ١٨٣٥ و ١٩١٠ ، وترتقب عودته في عام ١٩٨٦ .

وهنالك مذنبات ادوارها اقصر من ذلك: فمنها مادوره ثلاثة اعوام . وقد وضعت قوائم بها سميت فيها المذنبات باسماء مستكشفيها، ومن الغريب ان هواة المذنبات كانوا أكثر تصيداً لها من الفلكيين المحترفين . ومن أشهر هؤلاء الهواة بونس الذي عاش من ١٧٦١ الى ١٨٣١ وكان بواباً لمرصد مرسيليا ثم ترك الحراسة ليخصص جهوده للرصد ؛ فاكتشف ٣٧ مذنباً واصبح في آخر حياته مديراً لمرصد فلورنسه .

تكتشف مذنبات كثيرة كل عام . فما هو عددها الاجمالي يا ترى ، مادام يكتشف في كل عام ستة منها على وجه الوسط ؟ يعتقد الفلكي الهولندي (اورت) ان المجموعة الشمسية تحوي منها احتياطياً هاماً . ويوجد مذنبات جديدة على تخوم المجموعة الشمسية على بعد ٢٠٠ وحدة فلكية (الوحدة الفلكية تساوي بعد الارض عن الشمس أي ١٥٠ مليون كيلو متر تقريباً) فمن حين الى آخر يخرج أحدها بعد ان يطرأ على سيره اضطراب بسبب احد الكواكب فيدخل في المجموعة الشمسية وعندئذ يظهر لصيادي المذنبات الذين يسجلونه في قائمتهم .

هذه المذنبات الجديدة ضرورية لتجديد المخزون لدينا منها . لأن هذه الأخيرة تستنزف ما دامت في كل مرة تقترب فيها من الشمس تضيع قسماً من غازها وتتفكك نواتها وتتباعد قطع الأحجار التي تؤلف النواة وتتبعثر على طول الطريق . واذا صادفت الارض هذا الطريق ، شاهدنا وابلاً من النيازك .

لا تخلو قصة المذنبات من روعة لأنها ممازجة متشابكة مع تاريخ الانسانية . ان الصحائف التاريخية الصينية القديمة والكتابات السومرية لا تقل ذكراً للمذنبات عن صحف عام ١٩١٠ ، تلك السنة التي ظهر فيها مذنب هالي ، فمن يستعرض التاريخ بالتفصيل يمر بذكر ٨٠٠ ظهور للمذنبات .

لقد اسبغت الخيالات الشعبية على المذنبات صوراً غريبة نشأت من الذعر والخوف الذين يولدهما ظهورها مع جهل حقيقتها . ففي روما زعم الشاعر اوفيد ان هذا النجم الغريب هو روح القيصر يوليوس الذي ذهب ضحية الاغتيال . وزعم الناس تارة ان المذنب يهدد بحروب طاحنة مدمرة وتارة اخرى انه نذير الطاعون او انه الصورة التي يتراءى بها الشيطان للبشر . واما ذيله الطويل المنتصب فهو انذار من الآلهة الغضبى للمذنبين يتوعدهم بعقاب قريب . وكانت العروش تتهادى والملوك ترتعد فرائصها من الخوف ، ويعد الزعماء الدينيون خطابات وعظ طويلة يعلنون فيها قرب نهاية هذا العالم المليء بالدنس والآثام ، وانه سيقضى عليه بالنار والكبريت كما قضى على « سدوم » .

ان ذيل المذنب ما زال يطغى على افكار

الناس حتى ايامنا هذه ، لأنه منظر فريد في الدنيا ، ولا سيما بأشكاله العديدة الفريدة التي يتخذهـا . فهو يكون تارة كالرمح المرهف وتارة كالسيف وتارة ترى له رأسين او ثلاثة . وقد ظهر المذنب سيزاستوس ستة رؤوس كأنهـا ست أصابع مصوبة لتهديد الأرض .

ان علم الفلك الذي استعـان بالميكانيك والفيزياء والكيمياء قد عرف كل شيء عن المذنبات . وقد نسي البشر المتمدن كل مخاوف آبائه واجداده الاقدمين منها ، ولكن حل محل هذه المخاوف نظريات أشد تأثيراً منها . لقد خرجت هذه النظريات من بعض الفلكيين انفسهم ، لقد ذكرنا ان المذنبات تخترق في سيرها أفلاك السيارات وان الهالة الغازية التي تحيط بنواتها قد تغطي أحياناً باتساعهـا لا المجموعة الشمسية فحسب بل عدة مجموعات مماثلة لها ، وان ذيلهـا الذي هو من الطول بحيث يمتد على أفلاك عدة سيارات يحتوي على مواد سمية . فاذا كان الانسان لم يعد يخشى المذنبـات من حيث كونهـا نذيرة بالكوارث فانها قد اكتسب بديلا عن ذلك مظهراً اشد خطراً . إذ صار الناس يخشون أن تصطدم نواتها بالارض أو ان تسمم الجو بما في ذيلها من الغازات السامة .

ان مذنب عام ١٨١١ كان من الكبر بحيث يمكنه ان يحتوي الشمس بكاملها أو مليوناً و ٤٠٠ الف سيارة كأرضنا . أما مذنب هـالي فأن رأسه يستطيع ان يلتهم مئات من ارضنا ، ومذنب عام ١٨٤٣ قد أثار كثيراً من الذعر لأن ذيله كان من الطول بحيث أنه لو وصل هذا الذيل بالشمس لامتد الى مابعد فلك الأرض بل حتى فلك المريخ. وان ذيل مذنب دوناتي الذي يعتبر مذنباً صغيراً نسبياً فقد بلغ ٨٠ مليون كيلو متر فلو التف حول الارض لبلغ الفي لفة .

اضف الى هذه الابعاد الهائلة التي تتضاءل ازاءها ابعاد الكواكب السيارة ان افلاك هذه المذنبات تتبع اهواءها ولا تتقيد بقانون. ولذلك فقد سميت بشوارد السماء . فبينما نرى السيارات تدور حول الشمس على قطوع ناقصة محددة تماماً ، اذا بأكثر هذه المذنبات يتبع افلاكاً هي قطوع مكافئة فيأتي من حيث لاندري ثم يذهب الى حيث لاندري . وبينما تدور جميع السيارات من المغرب الى الشرق ، فان المذنبات تمضي في الجهة المعاكسة كأنما هي تسخر من نظام الكون .

استطاع الفلكيون لحسن الحظ ان يتحققوا عدة مرات من ضعف قوام المذنبات فقبل الثورة الفرنسية بعشرين سنة اقترب مذنب لوكسيل من المشتري واقتحم فلك التوابع التسعة التي تحيط بهذا الكوكب العملاق . فلو ان نواة المذنب الضخمة كانت لها كثافة تتناسب مع ابعادها العظيمة فان

قوة جاذبيتها كانت قمينة بأن تؤثر في بعض التوابع ان لم تؤثر في المشتري نفسه . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بل حدث العكس وخرج المذنب الدخيل المغير ، بعد ان طرده المشتري فسار على فلك جديد قطعه في اثنتي عشرة سنة . وفي عام ١٧٧٩ عاد المذنب مرئياً في المنظار الفلكي وعاد الى الخضوع لجاذبية المشتري والى تغيير فلكه من جديد ، ولم يعد بعد ذلك ولعله اختفى في صدام حطمه بالكلية .

وها هي قصة مذنب بيلا الذي درسه صياد المذنبات التشيكي بيلا واعلن أنه سيعود الى الظهور في عام ١٨٣٢ وأنه سيقطع في طريقه فلك الأرض . لقد قطع فلك الأرض فعلاً في الموعد المحدد ولكن الأرض لم تكن هنالك في نقطة التقاطع بل كانت في تلك اللحظة الحرجة بعيدة بملايين الكيلو مترات . فنجت الأرض ولكن المذنب اصيب بعد ذلك اصابة غريبة ظهرت عليه عندما شوهد في المنظار بعد ثلاثة عشر عاماً . فقد انقسم رأسه الى قسمين وشوهد بدلاً منه في السماء نصفا مذنب تصل بينها عصابة ضوئية وهما يسيران كالتوأمين الصيقين . لكل منها نصف رأس وذيل خاص به . واما الفراغ الذي بينها فلم يكن يزيد عن البعد بين الارض والقمر .

عاد هذان التوأمان المذنبان الى الظهور من جديد بعد سبعة اعوام من ذلك ، فاذا بالهوة التي بينهما قد ازدادت اتساعاً وزال الخيط الضوئي الواصل بينهما واصبحا يمخران وبينهما عدة ملايين من الكيلومترات . واعلن العلماء عام ١٨٧٢ ان حطام المذنب سيلتقي بفلك الارض هذه المرة في حين مرور الارض بتلك النقطة .

حدث ذلك في السابع والعشرين من تشرين الثاني وكان ذلك أول اصطدام يتنبأ به سلفاً في تاريخ البشرية .

حصل اللقاء في الوقت المحدد ، ووصلت الارض في سيرها الحثيث الى مكان مرور حطام المذنب المتناثر ، فهطل على الارض وابل من النيازك الصغيرة التي ماكادت تصل الى جو الارض حتى احترقت وتبخرت ولم يصل منها الى البسيطة الا النذر اليسير . وتبين بعد ذلك ان اللقاء لم يحصل الا مع القسم الخفيف من حطام المذنب . فلو ان هذا اللقاء حصل مع اقسامه الضخمة الكثيفة فلا يعلم ماذا كان سيحصل .

وفي عام ١٨٨٩ هجم مذنب بروكس على المشتري فكان كناطح صخرة فجوزي على غروره بان انقسم الى خمسة اقسام . ولما اصبح مرئياً من جديد في المناظر ، اذا به قد اصبح مذنباً كاملاً ترافقه اربعة مذنبات اصغر منه ولم تتجمع هذه الاجزاء مرة ثانية .

هذا ما كان من شأن رؤوس المذنبات أما أذيالها فلها شأن آخر . فعندما عرف الناس ماهية الذيل وانه يتألف من غازات مخلخلة جداً بدأ التساؤل عما قد يجنيه على الارض مرور هذا الذيل بها . لقد اصبح يخشى أن يفسد الذيل هواءنا الذي نستنشقه فيلوثه بالنفط ويشبعه بغاز الفحم أو بأبخرة الصوديوم او بما فيه من غازات سامة أخرى.

ولدت نبوءات الشؤم هذه ذعراً شديداً في العالم سنة ١٩١٠ لما ظهر مذنب هالي في جوار الشمس بعد غيابه ثلاثة ارباع القرن. واظهرت الحسابات الدقيقة ان الارض ستمر في العشرين من أيار من ذلك العام من خلال ذيل المذنب . فسددت المناظير والمطيافات اليه واذا به وياللهول يتبين ان الذيل يحوي على حمض البروسيك وسرت الاشاعات بأن البشر لن يصاب بسيانور البوتاسيوم السام فحسب ؛ بل انه سيحصل من جراء امتزاج هذا الغاز بالجو انفجار هائل .

انتشر الخوف بين الناس في كل مكان : في انكلتره وكندا والسويد واليابان . وقام بعضهم في امريكا ببناء ملاجيء في الأرض زودوها باسطوانات الاكسجين ، وبلغ الذعر بورصة نيويورك فحصل هبوط مخيف في اسعار الأسهم وانتشر الجنون الجماعي ، فانتحر في المانيا وحدها ستة عشر شخصاً هرباً بأنفسهم من الدمار الشامل الذي يتوقع ان يحل بالأرض .

وجاء يوم ١٩ أيار ، وكان رأس المذنب لا يزال يبعد عن الأرض بقدر عشرين مليون كيلو متر ، اما ذيله الخطير الذي يبلغ طوله ٤٨ مليوناً من الكيلومترات فكان يتقدم المذنب في سيره نحو الارض ويقتحم المناطق التي ستمر بها الارض في الغد .

وازفت الساعة الرهيبة ، ثم انقضت ولم تظهر آثار سيانور البوتاسيوم . وما كادت الشمس ترتفع في الافق حتى كان ذيل المذنب قد ابتعد مئات الوف الكيلو مترات .

ماذا حصل ؟ هل أخطأ الفلكيون في تقديرهم ؟ هل كان حمض البروسيك الذي في الذيل وهماً ؟ كلا ، لكن هذا الغاز كان من التخلخل بحيث ان الأرض دفعته عنها بفضل جوها الذي يحميها كالدرع . لقد كان اهون على اصبع من الشمع ان تثقب كتلة من الفولاذ من ان يغلب ذيل المذنب الدرع الجوي. وقد كتب أحد الفلكيين حينئذ يقول : لعل نسيج العنكبوت أشد خطراً على فيل هائج من ذيل المذنب على الارض عند اختراقه .

الهندسة

من الجزئي المادي إلى فراغ المعادلات

كابي دردريان

الهندسة الاختبارية وهندسة الجزيئات

بزغ فجر الهندسة ، أول مابزغ ، في سماء الحضارات القديمة التي سادت مناطق الشرقين الاوسط والاقصى . ويبدو ان ولادة هذا العلم جاءت لتلبي حاجات عملية ترتبط بحياة الافراد والجماعات . ويرجع الى المصريين القدامى الفضل في اجراء أولى البحوث في هذا العلم . فهم كانوا يضطرون الى اعادة مسح الاراضي على ضفاف النيل ، اثر

فيضانه عاما بعد عام ؛ هذه الحاجة الحياتية المتكررة شحذت قرائحهم ، فاستنبطت طرقا عملية لحساب المساحات . وقد ادى تطور هذه البحوث مع مرور الزمن الى خلق نوع من الهندسة ذات طابع عملي تجريبي محض ، وخالية من اية فكرة تجريدية ، كانوا على سبيل المثال ، اذا ارادوا ان يحسبوا مساحة شكل رباعي ذي أضلاع : ب ، ج ، د ق يطبقون القاعد التالية :

$$\frac{ب + د}{٢} \times \frac{ج + ق}{٢}$$

ولكنا نعلم اليوم ، عن طريق الاستنتاج المنطقي (اي عن طريق الهندسة النظرية) ، ان هذا الدستور لا يكون قريبا من الواقع ، الا في حال كون جميع زوايا هذا الشكل قريبة ، كل منها من زاوية قائمة .

وبفضل الاحتكاك وتبادل المنافع بين الشرق والغرب ، انتقل علم الهندسة ، مع ما انتقل ، الى حضارة الاغريق . ويقال ان الرياضي تالس (حوالي العام ٦٠٠ قبل الميلاد) كان اول من ادخل علم الهندسة المصرية الى بلاده .

ترعرعت الهندسة في بلاد اليونان ، في مناخ تغلفه الدراسات والافكار الفلسفية وبذلك اخذت تختط لنفسها طريقا يختلف كل الاختلاف عن طريق الهندسة المصرية ، ذات الصبغة العملية الاختبارية : وهو طريق الاستنتاج المنطقي . وقد بات آنذاك في حكم المألوف ان ترى الفيلسوف المتأمل ، يغوص في معالجة اسرار الكون والغاز ما وراء الطبيعة ، الى جانب اشتغاله وتذوقه للحقائق الهندسية . وكانت اعرق مدرسة فلسفية علمية من هذا الطراز هي مدرسة الفيلسوف الرياضي فيثاغورس ، حيث كان الجو الدراسي فيها يتسم بمسحة من صوفية ، الى جانب شيء من الباطنية والغموض.

ورغم ان هندسة فيثاغورس اوغلت بعيدا في اجواء النظريات وعالم الاستنتاج المنطقي ، الا انها لم تتمكن من التحرر كليا من رواسب الهندسة المصرية . فقد كان تصورها لمفاهيم النقاط والخطوط والسطوح قائما على تعريفات حسية محضة ، تختلف في جوهرها من تصورنا الحالي لهذه المفاهيم . كانت النقطة بالنسبة الفيثاغوريين جسما ماديا يقابل حبة دقيقة من الرمال ، أي أنها في الواقع وعلى أية حال ، جسم له حجم وكانوا يدعون هذا الجسم الضئيل : جزيئا Monade وكانوا يعرفون الخط المستقيم بكونه سلسلة مشدودة من الجزيئات المتراصة ، ويقدرون طوله بالتالي بعدد الجزيئات

التي تشكل قوامه . وعلى هذا الاساس ، تكون جميع الاطوال قابلة للقياس (أي أنها تقابل عدداً غير أصم) ، الامر الذي ينطبق ايضا على النسبة بين مستقيمين محدودين : أي أن هذه النسبة تقابل على الدوام عددا غير اصم .

وكان من سخرية القدر ان الضربة الموجعة التي اتيح لها أن تزعزع معتقدات الفيثاغوريين ومفاهيمهم للخطوط القائمة على الجزيئات ، قد جاءت ، عن غير قصد ، على يد معلمهم بالذات . اما السلاح فكان نظرية فيثاغورس الشهيرة التي تحدد العلاقة بين اطوال المثلث قائم الزاوية . فقد تحقق عند تطبيق هذه النظرية على المربع ، ان النسبة بين قطر المربع وضلعه تساوي الى $\sqrt{٢}$ ، اي الى عدد اصم : الامر الذي يناقض بشكل صريح فكرة الجزيئات ، وهي المبدأ الاساسي الذي تقوم عليه هندسة فيثاغورس .

ومن طريف ما يروى ، ان هذا الاكتشاف ظل في طي الكتمان ردحاً من الزمن ، حتى جاء من أذاع سره،وهو أحدتلامذةمدرسةفيثاغورس،المدعو هيباز Hippase . وكان عقاب هيباز هذا مزدوجاً ، فقد نقم منه كهنوت المدرسة فطردوه منها،وغضبت عليه الآلهة ، فأهلكته في حادث غرق .

وقامت بعد مدرسة فيثاغورس مدرسة شهيرة أخرى ، وهي مدرسة الايليين (نسبة الى المدينة اليونانية ايلي Elée) . وكان للمسائل الانتقادية التي طرحها أحد أساطين هـذه المدرسة ، وهو الفيلسوف زينون Zénon . الأثر الحاسم في نبذ فكرة الجزيئات من الهندسة الاغريقية نبذا نهائيـاً ، وفي تعبيد الطريق لاستقبال هندسة جديدة تقوم معطياتها الاولية على مفاهيم تجريدية محضة .

هندسة اقليدس :

بعد حوالي القرنين من قيام مدرسة الايليين ، جاء اقليدس لينشر في مؤلفـه الشهير (الأصول) معطيات أولية ومفاهيم جديدة لعلم الهندسة ، تختلف في جوهرها عن المعطيات والمفاهيم التي كانت سائدة في عصر فيثاغورس. فبدلاً من الأشكال الهندسية ذات القوام المادي الحسي في هندسة فيثاغورس ، عرضت هندسة اقليدس أشكالا ذات قوام فكري نظري (اذا جاز التعبير) . فاذا أراد اقليدس أن يعرف النقطة ، يقول عنها أنها ذلك الشيء الذي ليس له أجزاء ، واذا أراد أن يعرف الخط ، يقول عنه أنه طول لا عرض له .

هذه التعريفات العفوية الساذجة ، وغيرها من المعطيات الاولية الواضحة التي دونها اقليدس في الفصل الاول من مؤلفه، كانت وحدها، ووحدها فقط دون سواها، هي الأساس الذي شيد الرياضيون عليه صرح الهندسة الرائع المتناسق : شيدوه وهم قابعون وراء قلمهم وقرطاسهم . يحلقون في سماء الفكر وأجواء المنطق ، ثم لا يلبثون أن يعودوا وفي جعبتهم نظرية او نظريات يضيفونها الى صرحهم الجميل . هم يحبون هذا الصرح ، بل هم متيمون به ، يقدسونه ويتعبدون في محرابه ويرون فيه رمزاً للعناية الالهية .

ومن الثابت ان ذلك العشق الصوفي الذي تملك أفئدتهم ، صرف أذهانهم عن فكرة احتمال وجود صروح أخرى ، يمكن ان تشيد على غرار صرحهم (أي عن طريق الاستنتاج المنطقي) ، وانما على أسس مختلفة . وأبرز مثال نسوقه تدليلاً على ذلك ، محاولة البرهان على موضوعة اقليدس الخامسة التي تنص على انه من نقطة خارج مستقيم معلوم ، لا يمكن أن ننشيء أكثر من مواز واحد لذاك المستقيم . فمن كرس منهم الكثير من وقته وبذل الكثير من جهده للبرهان على صحة هذه الموضوعة ، لم يدر في خلده قط أن يحاول البرهان على عكس تلك الفرضية : أولاً ، لأنه كان شديد التعلق بهندسته المحببة ، ثانياً ، لأنه لم يكن يرى أي جدوى من هذا البرهان ، طالما أن الواقع الحسي يفرض علينا القبول بموضوعة اقليدس . وهكذا يكون قد فرض على نفسه — بالرغم من جولاته الفكرية الموفقة في عالم النظريات — ان يظل على الدوام أسيراً لعالمه الحسي : وانما بشكل متطور نوعياً عن سلفه الفيثاغوري .

طوال عشرين قرناً من الزمن ، بقيت هندسة اقليدس طودا شامخا يستظل بفيئه الكثير من العلوم والمعارف الانسانية ، ويرتاد ربوعه ومسالكه معظم الفلاسفة والمفكرين، الذين كثيراً ما كانوا يعمدون إلى تحديد المقولات العقلية ، أو تزكية مبدأ فلسفي ، بلجوئهم إلى الاستشهاد بحقائق الهندسة المذكورة ومعطياتها الأولية ،التي كانوا يعتبرونها حقائق أزلية ، تهبط على الفكر البشري من عالم منفصل عن الذات . وما أن أطل القرن التاسع عشر ، حتى بدا وكان منعطفاً كبيراً سوف تمر به البحوث الهندسية ، على يد أولئك الذين لم تفتر عزائمهم ولم يذعنوا لليأس في محاولاتهم المتكررة الرامية الى البرهان على صحة موضوعة اقليدس الخامسة . ويبدو أن التكتيك الجديد الذي أخذوا يمارسونه ، هو الذي دفع ببحوثهم نحو ذلك المنعطف . وهذا التكتيك يقوم على طريقة للبرهان ، معروفة في علم الهندسة ، تقضي بأن يفترض الباحث عكس الشيء الذي يريد أن يبرهن

على صحته ، فاذا توصل بعد ذلك الى نقض لمعطيات أولية ونظريات سابقة كان قد تم اثبات صحتها ، فان هذا الأمر يعني صحة النتيجة التي كانت هدف البرهان . والوصول الى مثل هذا التناقض هو بالحقيقة الأمل الذي كان يراود أحلام الرياضيين الذين سبق ذكرهم ، حين بدأوا عملية البرهان ، بافتراضهم أنه من نقطة خارج مستقيم معلوم ، يمكن أن ننشيء أكثر من مواز واحد لهذا المستقيم (لوباتشيفسكي وغيره) . ولكن آمالهم ، في هذا المضمار أيضاً ، خابت وتلاشت جميعاً .

فراغ المعادلات الرياضية :

أما الذي حدث في الواقع ، فهو أنهم ، اذ انطلقوا من فرضية مغايرة لفرضية اقليدس الشهيرة ، ثم انتقلوا بعد ذلك ، عن طريق القواعد المنطقية العامة ، من نظرية إلى نظرية ، تمكنوا من تشييد هندسة كاملة ، كانت نتائجها مخالفة تماماً لنتائج هندسة اقليدس ، ضمن فراغ ترفض حواسنا وجوده ، ولكننا نجد أنفسنا ملزمين بتقبله ، عن طريق الاستدلال والمعادلات الرياضية . ومن المؤكد أن تطوير الهندسة وتصعيدها الى عالم التجريد المطلق ، أحدث ثورة هائلة في كثير من المفاهيم العلمية والفلسفية ، وفتح الباب على مصراعيه لاستقبال عصر النسبية .

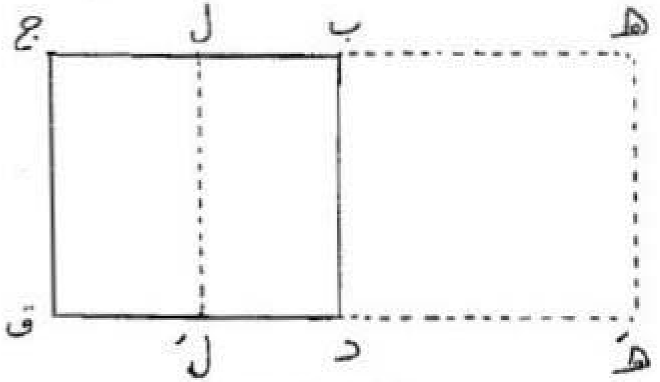
وسوف أحاول في السطور التالية أن ألخص المراحل التي مرت بها محاولات البرهان على موضوعة اقليدس الخامسة ،متجنباً ما استطعت ، الخوض في معالجات علمية محضة، محلها الطبيعي خارج نطاق مجلة تعنى بشؤون الثقافة العامة .

اتفقت وجهات النظر عند العديد من الرياضيين، أمثال واليس وساكيري ولامبرت، على أنه يمكن البرهان على الموضوعة المذكورة ، في حال قبولنا بوجود شكل مستطيل. ثم تطورت أبحاثهم ، فباتوا يقنعون بوجود مستطيل واحد لاعلى التعيين . اذ أنه في حال عثورهم على ضالتهم المنشودة ، سيكون في امكانهم انشاء أي مستطيل يشاؤون.

ليكن ب ج د ق المستطيل الذي كان يحلم بانشائه هؤلاء الرياضيون (الشكل رقم ١)

ولتكن ل و لَ منتصفي الضلعين ب ج و د ق ، من السهولة الملاحظة والبرهان على أن الشكل الرباعي ج ل لَ ق هو مستطيل .

كذلك فلنأخذ على امتداد الضلع ج ب النقطة هـ ، وعلى امتداد الضلع ق د النقطة هـَ ، بحيث يكون : ب ج = ب هـ و د ق = د هـَ .



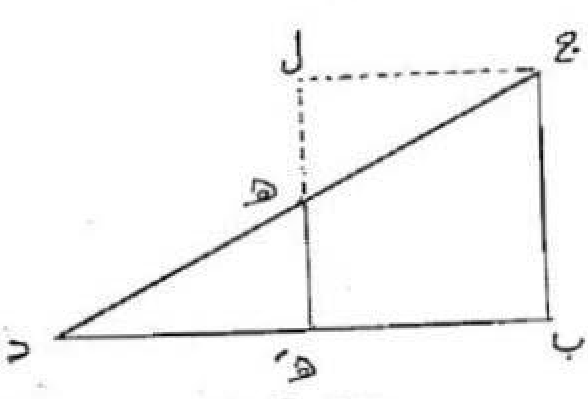
(شكل رقم ١)

من السهولة أيضاً الملاحظة والبرهان على أن الشكل الرباعي هـ ج ق هـَ هو ايضاً مستطيل .

وعلى هذا الأساس ، فانه سيكون بإمكاننا أن ننشيء أي مستطيل نشاء، بالطول والعرض اللذين نرغب : وذلك بتجزيئنا الضلع ب ج الى أجزاء ومدنا له الى أضعاف ، ونطبق العملية نفسها على الضلع ب د .

ثم انتقلوا بعد ذلك الى حقيقة مفادها : في مثلث قائم الزاوية ، اذا أسقطنا من منتصف الوتر عموداً على أحد الضلعين القائمين ، فان هذا العمود يقسم الضلع المذكورالى قسمين متساويين . والبرهان على ذلك نقول :

لدينا المثلث ب ج د ، ذو الزاوية القائمة ب (الشكل رقم ٢) ، ولدينا العمود هـ هـَ على الضلع ب د ، ولدينا ايضاً : ج هـ = هـ د .



(الشكل رقم ٢)

ننشيء الآن مستطيلاً أطواله ج ب و ب هـ َ (وهذا ممكن دوماً ، طالما قبلنا بوجود مستطيل واحد مفروض – الشكل السابق رقم ١) . : فليكن ج ب هـ َ ل المستطيل المطلوب . من السهولة بعد ذلك ملاحظة ما يلي :

ج ل = ب هـ َ (في المستطيل ج ب هـ َ ل)

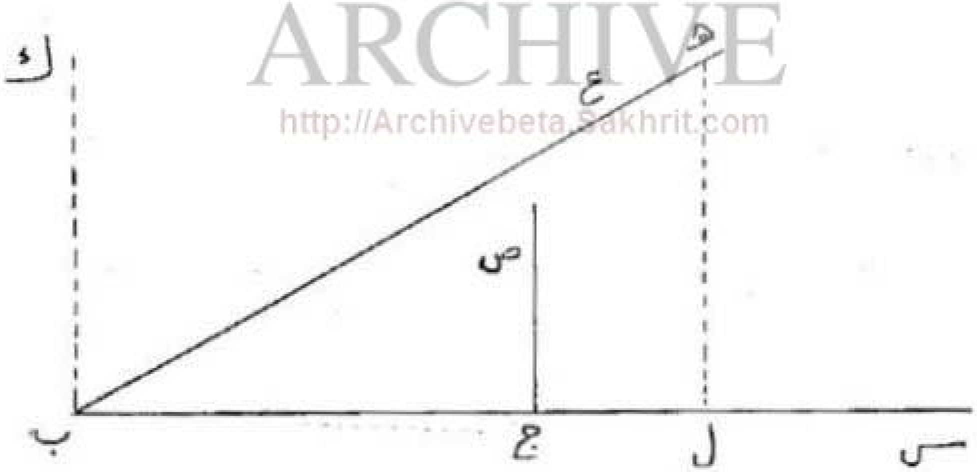
ج ل = هـ َ د (في كل من المثلثين المتساويين ج ل هـ و هـ هـ َ د)

إذن : ب هـ َ = هـ َ د

ثم قرروا بعد ذلك :

إذا كان لدينا مستقيمان ، أحدهما عمود على مستقيم ثالث ، والآخر مائل عليه ، فان المستقيمين المذكورين يتقاطعان عند امتدادهما .

لدينا المستقيم ب س ، والمستقيم ج ص العمود عليه ، والمستقيم ب ع المائل عليه . نريد أن نبرهن على أن المستقيمين ج ص و ب ع يتقاطعان عند امتدادهما . (الشكل رقم ٣) .



(الشكل رقم ٣)

إذا استندنا الى الحقيقة الهندسية التي قمنا بالبرهان عليها في التو ، يصبح من اليسير علينا أن نوجد على الضلع ب ع للزاوية ع ب س ، قطعة ، مثل ب هـ ، يكون مرتسمها ب ل على الضلع ب س متجاوزاً القطعة ب ج . عند ذلك نقول : طالما أن المستقيم ج ص قطع الخط المغلق هـ ل ب عند النقطة ج ، وطالما ان هذا المستقيم يمكن مده الى ما لا نهاية ، فسيكون من الضروري أن يقطع ج ص الخط

المغلق هـ ل ب عند نقطة ثالية . ولست اراني في حاجة الى البرهان على أن هذه النقطة سوف تقع حتماً على الضلع ب ع .

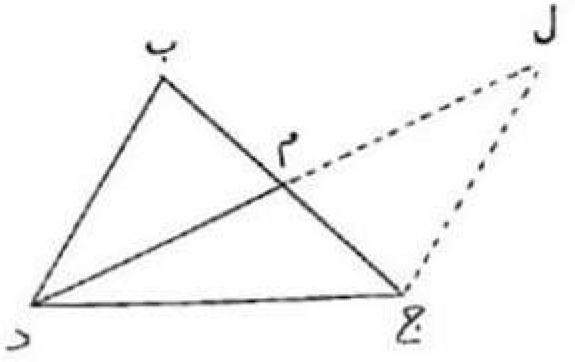
وعلى هذا الأساس ، فان الموازي الوحيد الذي يمكن انشاؤه للمستقيم ج ص من النقطة ب ، هو المستقيم ب ك ، العمود على البعد ب ج . والزاوية ك ب ج تدعى بزاوية التوازي للمستقيم ج ص من النقطة ب : بمعنى أن كل مستقيم منبثق من النقطة ب ، داخل الزاوية ك ب ج ، يقطع في امتداده المستقيم ج ص . وتأسيساً على ذلك ، فانه يمكننا أن نقرر ، في هندسة اقليدس ، ان زاوية التوازي المنشأة لمستقيم معلوم من نقطة خارج هذا المستقيم ، تعادل دوماً زاوية قائمة ، مهما كان بعد النقطة عن المستقيم .

بمثل هذه الاستنتاجات المنطقية ، كان بامكان هؤلاء الرياضيين أن يبرهنوا على صحة موضوعة اقليدس الخاصة ، فيما لو استطاعوا العثور على مستطيل واحد لاغير . ولكنهم قضوا دون أن يستطيعوا تحقيق هذا الحلم ودون أن يتاح لهم أن يتيقنوا ، مثلما تيقن من جاء بعدهم ، أن ذلك الحلم هو مستحيل التحقيق إذا لم يرتكز على تبني موضوعة اقليدس : وهي الموضوعة بالذات التي أرادوا البرهان على صحتها عن طريق ذلك السراب الشائع .

غير أن هؤلاء الرواد ، بالرغم من اخفاق مغامرتهم المثيرة ، استطاعوا أن يقدموا للفكر الرياضي اكتشافات هامة ، جنوها عبر مسيرتهم الطويلة في المتاهات الفكرية التي انطلقوا فيها باختيارهم . ولعل أهم هذه المكتشفات ، وأبعدها أثراً في تطور علم الهندسة ودفعه نحو المجاهل المنفصلة عن العالم المحسوس ، هو تمكنهم ، من غير أن يستندوا على موضوعة اقليدس ، من البرهان على أن مجموع زوايا المثلث لايمكن أن يتجاوز زاويتين قائمتين . وسوف الخص في السطور التالية طريقة الرياضي الفرنسي لوجاندر Legendre في البرهان على هذه الحقيقة ، نظراً لبساطتها وطرافتها :

استهل لوجاندر طريقته بأن أنشأ مثلثاً لا على التعيين ب ج د (شكل رقم ٤) ، ثم أثبت أنه يكون بامكاننا على الدوام أن ننشيء مثلثاً آخر يكون مجموع زواياه مساوياً الى مجموع زوايا المثلث ب ج د ، على ان لا تتجاوز احدى زواياه مقدار نصف احدى الزوايا : ب أو ج أو د . نأخذ على سبيل المثال الزاوية د .

للبرهان على ذلك ، أنشأ لوجاندر المنصف د م الضلع ب ج ، ثم مده الى النقطة ل ، بحيث يكون : م ل = م د .



(الشكل رقم ٤)

احدى الزاويتين مدج أو مدب لا يمكن أن تتجاوز نصف الزاوية بدج : فلتكن. مدج هي تلك الزاوية . في هذه الحالة نصل النقطتين ل و ج بمستقيم ، فنتمكن بذلك ، استناداً الى مساواة المثلثين م ل ج و م د ب ، من التحقق من ان مجموع زوايا المثلث ل ج د يساوي مجموع زوايا المثلث ب ج د ، بالاضافة الى ان الزاوية ل د ج لا تتجاوز مقدار نصف الزاوية ب د ج

وهنا انتقل لوجاندر مباشرة الى اثبات الحكم التالي : مجموع زوايا المثلث بجد لا يمكن ان يتجاوز زاويتين قائمتين .

البرهان على ذلك ، افترض لوجاندر عكس هذه الحقيقة : لنقل مثلاً ان مجموع زوايا المثلث المذكور يعادل ١٨١ درجة .

نقوم الآن . على الطريقة المحددة فيا سبق ، بانشاء مثلثات يكون مجموع زوايا كل منها مساوياً الى مجموع زوايا المثلث ب ج د ، متعمدين ان نجزىء الزوايا التي يكون رأسها في النقطة د الى اجزاء تتناقص الى الصفر : سوف نحصل بذلك في النتيجة على مثلث يكون مجموع زواياه مساوياً الى ١٨١ درجة ، وتكون زاويته د اقل من درجة واحدة ، وهذا يعني ان مجموع الزاويتين الاخريتين يتجاوز ١٨٠ درجة : وهو أمر مستحيل . بالنتيجة ، فان مجموع زوايا المثلث ب ج د لا يمكن ان يتجاوز زاويتين قائمتين .

وتجدر الاشارة هنا الى أن تحقيق طريقة لوجاندر لا يمكن ان يتم الا بالاستناد الى الموضوعتين الاولى والثانية لاقليدس :

ـ نقطتان لا على التعيين تحددان مستقيماً واحداً

ـ الخط المستقيم يمكن مده الى مالا نهاية

وتعود اهمية هذا الاكتشاف الى اقرار الحقيقتين التاليتين :

١ ـ اذا قبلنا بفرضية تنص على انه من نقطة خارج مستقيم معلوم يمكن ان ننشىء اكثر من مواز واحد لهذا المستقيم ، فان جميع المثلثات ، في هذا الاحتمال ، يكون مجموع زواياها اقل من زاويتين قائمتين (هندسة لوباتشيفسكي) .

٢ ـ اذا قبلنا بفرضية تنص على انه من نقطة خارج مستقيم معلوم لا يمكن ان ننشىء أي مواز لهذا المستقيم ، فان جميع المثلثات ، في هـذا الاحتمال ، يكون مجموع زواياها متجاوزاً لزاويتين قائمتين . على انه يتوجب علينا أن نقبل في الآن نفسه ان المستقيم له طول محدود (هندسة ريمان) .

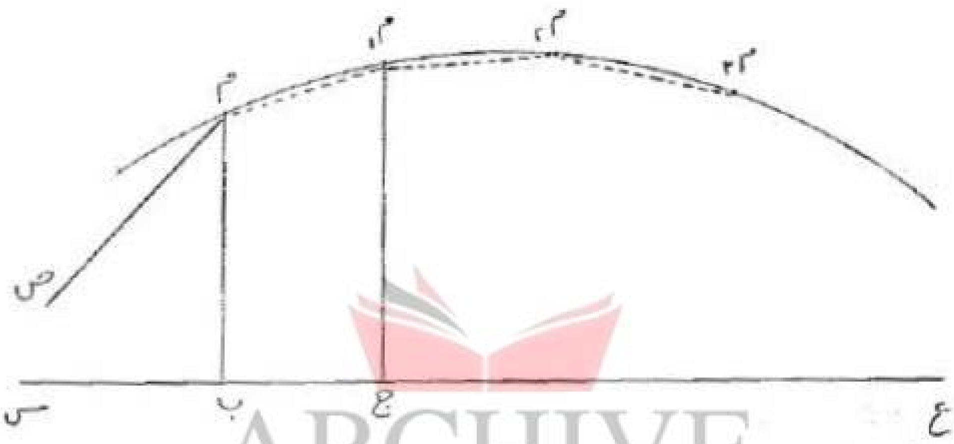
لو تهيأ لحواسنا ان تتقبل وجود مثلث يكون مجموع زواياه مساويا الى ١٥٠ درجة ، فكيف يتيسر لها ان تهضم ان هذا المجموع يمكن ان يصل الى حـد من الضآلة يساوي الى جزء من المليون من الدرجة؟؟وكيف يتاح لها ان تتقبل وجود دائرة يكون محيطها مساوياً الى ملايين الملايين من اضعاف قطرها ؟؟

لا ندري الى أي مدى من الزمن ستظل اجهزتنا الحسية عاجزة عن احتواء مثل هذه الحقائق . وسوف نظل مصرين على تسميتها بالحقائق على الرغم من قصور حواسنا هي حقائق موجودة بالفعل في فراغ غير الفراغ الذي الفنا ابعاده : في الفراغ اللااقليدي الذي يمكن اثبات وجوده عن طريق الاستدلال المنطقي والمعادلات الرياضية . ونزيد على ذلك : ان فراغنا الاقليدي الذي الفناه والذي ترتاح اليه حواسنا ، ما هو إلا قطعة من الفراغ اللا اقليدي ، وكذلك فان المعادلات التي تربط بين حقائق العالم الاقليدي ، ماهي إلا حالة من حالات المعادلات التي تربط بين حقائق العالم اللا اقليدي .

ومن أجـل ان نعطي القارىء فكرة عن احتواء المعادلات اللااقليدية للمعادلات الا قليدية ، نورد فيما يلي مثالا يتعلق بمـا يدعى في هندسة لوباتشيفسكي يشبه المحيط Exocycle ونبدأ بتعريف هذا الشكل :

لدينا المستقيم اللامتناهي س ع ، وقطعة المستقيم م ب العمودية عليـه (شكل رقم ٥) . نجعل القطعة م ب تنزلق على نفسها ، بشرط ان تظل على الدوام محافظة على

طولها وان تكون في الوقت نفسه عمودية على المستقيم اللامتناهي س ع . في هندسة اقليدس ، الطرف م لهذه القطعة يرسم خطاً مستقيماً . أما في هندسة لوباتشيفسكي ،فان الطرف المذكور يرسم خطا منحنيا يسمى بشبه المحيط : المستقيم س ع يدعى موجه شبه المحيط ، والقطعة م ب ذات الطول الثابت تدعى مولد المنحني المذكور .



(الشكل رقم ٥)

يشتد انحناء شبه المحيط كلما بعد عن موجهه ، حتى يمكن ان يبلغ هذا الانحناء درجة نستطيع معها ان نرسم خطا منكسرا م م١ م٢ م٣ ، تكون رؤوسه جميعاً واقعة على المنحني المشار اليه ، وتكون كل زاوية داخلية من زواياه قريبة من الصفر، في حين يبتعد طرفاه عن بعضهما الى ما لا نهاية !! وهذه حقيقة ترفضها حواسنا في عالمها الاقليدي . الذي يفرض علينا ان نتصور مثل ذلك الخط المنكسر يتقوقع وينغلق على نفسه .

لتكن ص م ب زاوية التوازي المنشأة للمستقيم س ع من احدى نقاط المنحني . وزوايا التوازي المنشأة لهذا المستقيم من اية نقطة من نقاط شبه محيط ذي مولد معلوم تكون جميعها متساوية .

في هندسة اقليدس ، كما سبق واوضحنا منذ قليل . تكون جميع زوايا التوازي بالنسبة لمستقيم معلوم مساوية . كل منها ، الى زاوية قائمة ، مهما كان بعد رأس الزاوية عن المستقيم . اما في هندسة لوباتشيفسكي ، فان هذه الزاوية تتناقص الى الصفر ، اذا ابتعد رأس الزاوية عن المستقيم الى ما لا نهاية .

نسبة انحناء شبه المحيط هي نسبة طول أي قوس من اقواسه ، الى مرتسمه على الموجه نع . = $\frac{١٠٢٢}{ب ج}$ وهذه النسبة هي ثابتة بالنسبة لاي قوس في شبه محيط ذي مولد معلوم ، وتساوى الى :

$$\frac{١}{جيب\ ص\ م\ ب}$$

لنحصر الآن دراستنا في نطاق هندسة اقليدس . فبعد سلسلة من المعطيات الأولية ومن النظريات التي يتوالد بعضها من بعض ، نتمكن من البرهان على ان نسبة الخط الذي ترسمه النقطة م الى مرتسمه على الموجه اللامتناهي س ع ، تساوي الى الواحد الصحيح .

أما إذا أردنا الرجوع الى الأصل اللااقليدي لهذه المسألة ، فيكفي أن نطبق العلاقة المدونة في الفقرة السابقة لنحصل على النتيجة ذاتها :

$$نع = \frac{١}{جيب\ (٩٠)} = ١$$

هذا مثال أوردته، كي نعطي فكرة عن مدى شمول المعادلة اللااقليدية واحتوائها للمعادلة الاقليدية . وهناك أمثلة كثيرة ، عن معادلات أكثر تعقيداً ، تشهد بذلك . واذا حصرنا أمثلتنا في هذا المجال ضمن نطاق علم المثلثات فقط ، نجد كثيراً من المعادلات لها جذور بعيدة في أرض الهندسة اللااقليدية . وتحضرني بالمناسبة المسألة المثلثاتية التالية :

اذا كان لدينا العلاقة :

$$\frac{جيب\ (\ س\ )}{\frac{جيب\ (\ س\ )}{٢}} = ٢\ تجيب (ع)$$

المطلوب أن نحسب ، بدلالة ه . النسبة :

$$\frac{جيب\ (\ ن.س\ )}{\frac{جيب (\ ن.س\ )}{٢}} = ٢\ تجيب\ (\ ن.ع\ )$$

(على اعتبار ن عدداً صحيحاً)

ليس لي أن أقدر مبلغ الجهد ، ولا حجم العمليات التي يمكن أن تدخل في محاولة البرهان على هذه المسألة ، فيما لو جرى لأجل ذلك سلوك الطرق التقليدية السائدة . ولكن من المؤكد ان الرجوع الى اصل هذه المسألة اللااقليدي ، يوفر قطعاً الكثير من ذلك الجهد ويقلص عمليات البرهان الى الحد الأدنى .

صلاح الدين الخالدي

بمناسبة مرور
خمسة قرون على مولد العالم
الفلكي البولوني « نيقولا كوبرنيك ».
(١٤٧٣ - ١٥٤٣ م)

تطوّر علم الفلك عند العرب

عندما نفكر في نتاج حضارتنا العربية يتبادر الى أذهاننا مباشرة نشاط آبائنا وأجدادنا من العرب الميامين وانتاجهم في ميادين العلوم ، اذ لعب العرب دوراً عالمياً ، فقد تناولوا ماوجدوه بالدرس ووضعوا ثمرة جهودهم بين يدي الأجيال التالية

كأساس يبنون عليه ، ولم يكن من المتوقع أن يتمكن العرب خلال قرنين من تطورهم الثقافي بعد خروجهم من الجزيرة العربية ووصولهم إلى مناطق الهلال الخصيب من ابتكار فروع العلوم المتعددة بأنفسهم دون مساعدة من غيرهم لذا إن القوانين الحضارية البشرية تقرر أن كل الشعوب في سائر الأزمنة تمد بعضها البعض بالعلوم والمعارف ، وان شعلة المعرفة لابد أن تنتقل من قوم إلى قوم ومن حضارة الى حضارة كأنما شعلة المعرفة إذا انطفأت لن يتمكن أحد من اشعالها مرة أخرى . لذا لايؤخذ على الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى قيامها على أساس من حضارات العصور السابقة ولاسيما السامية منها والاغريقية والهندية والفارسية .

ففي الوقت الذي ازدهرت فيه العروبة كان التراث الاغريقي أثمن ما في اليد ، ذلك لأن الحضارة الاغريقية انتقلت زمن «الاسكندر المقدوني » والرومان الى بلاد الشام والعراق ومصر وامتزجت مع المسيحية ، وبالرغم من أن أهل الشام لم يقدروا القيمة الحقيقية للحضارة الافريقية (حيث تمسكوا بحضاراتهم السامية ولغتهم السريانية وهي من بقايا اللغة الآرامية) فقد اعتنوا بها فترجموا في أديرة الشام ليس ما يتعلق منها بالدين فحسب ، بل وكل ما يتناول الأمور الدنيوية ، وغدا من الشائع أن يكرس هؤلاء الكتاب اهتمامهم الخاص بأرسطو وابقراط وجالينوس وأصبحوا رسل الحضارة الاغريقية الى العالم أجمع ، ونهضوا بالدراسة والترجمة كذلك زمن العباسيين ولاسيما في علم الفلك والطب والفلسفة ، والى جانب أديرة الشام ومدرسة « جنديسابورا » وجدت العلوم الهيلنية وطناً ثالثاً لها في حران اذ ظل سكانها الذين بقوا على عقيدتهم الوثنية حتى القرن الرابع الهجري يتابعون دراستهم الرياضية والفلكية بحماسة لاتفتر ولاتكل وانثالت المعرفة من جميع تلك الينابيع الى العرب وأهم تلك الينابيع التي تمثل مراكز تسرب الثقافات الاجنبية الى العرب هي .

١ — الاسكندرية ٢ — انطاكية .

٣ — مدرسة الرها : التي كانت موئلاً للسريان . حيث امتزج العقل اليوناني بالعقل الكلداني .

٤ — مدرسة نصيبين الأولى ٥ — مدرسة رأس العين التي كان من أهم المفكرين فيها جرسيس الرأسعيني المتوفي سنة ٥٣٦/م .

٦ — مدرسة نصيبين الثانية : ٧ — مدرسة جنديسابور : وهي مدينة في الأهواز من بلاد فارس وكانت مجمع لثلاث ثقافات : يونانية وهندية وفارسية .

(١) انظر كتاب « علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب » المؤلف .. د . لاسي اوليري — ترجمة : د . وهيب كامل

(٢) الحضارة العربية تأليف : ي . هل ترجمة : د . ابراهيم احمد العدوي ص — ١٠٦ —

٨ – مدرسة حران Harran وهي مركز رئيسي للصابئة حيث قامت بعمل مجد في نقل الثقافة اليونانية الى العربية وكان لهؤلاء الصابئة اثر كبير في نقل الثقافة اليونانية الى اللغة العربية ولاسيما الفلسفة منها كما انهم نبغوا في الرياضيات والفلك ، لان ديانتهم كانت تقضي بتعظيم الكواكب واشتهر منهم في بلاط العباسيين « ثابت بن قرة » /٢٢١–٢٨٨ هـ / والبتاني صاحب « الزيج » المنسوب اليه ، واشهر افراد هذه الأسرة أبو اسحق الصابي ممن كان لهم فضل يذكر على الثقافة العربية في العهد العباسي ويروى عن الأمير الأموي « خالد بن يزيد » أنه كان قد انصرف عن السياسة والحكم الى الاشتغال بالكيمياء وانه امر بترجمة كتب في الكيمياء من اللغة اليونانية الى اللغة العربية ولم يشرع في نقل كتب اليونان في الطبيعة والطب والمنطق الا في عهد « المنصور » ونقل بعض هذه الكتب من اللغة الفلهوية ، لقد ضاع كثير مما ترجم في القرن الثامن الميلادي الموافق للقرن الثاني الهجري حيث ان اول ترجمة وصلت الينا يرجع تاريخها الى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري)، وهو عصر « المأمون ». ولم تؤثر الثقافة اليونانية في العرب الا عن طريق الرياضيات والطبيعيات والفلسفة . .

يقول « ابن أبي أصيبعة » في الجزء الاول ص ٢٠٧ من كتابه « طبقات الاطباء » حول اشهر المترجمين من العرب والسريان أنهم كانوا أربعة : حنين بن اسحق ، ويعقوب ابن اسحق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري .

كان علم الفلك من أحب الدراسات الى العرب بعد الرياضيات فالنجوم منذ القديم هي هادي العرب في الصحراء ومرشدهم ثم ان اهل بابل قاموا بدراسات خاصة بالسماء وحاولوا معرفة المستقبل عن طريق النجوم ، لأن الفكرة الاساسية في الديانات القديمة هي وجود كائنات عليا وعلى الناس أن يقوموا نحوها ببعض الواجبات وان الآلهة لا تختلف عن البشر الا بالخلود والميل الى الخير حتى عندما كانت تعاقب البشر ، والشر في نظرها هو من اعمال الارواح الممسوخة ويجب محاربتها بالسحر والثالوث الاول للآلهة في الديانات(١) السامية القديمة هو (آنو) إله السماء ، و (انليل) إله الأرض و (إيا) اله المياه والثالوث الثاني هو (سين Sin) اله القمر وولداه (شمش) و (عشتار)..

كان للكهنة شأن كبير والملك يعتبر في الحضارات القديمة هو الكاهن الأكبر، وأحيانا يقدم الأضحية ويراقب العرافة ، كما أن الاله كان ينقل أوامره اليه مباشرة ومن فئات الكهنة ، السحرة الذين يستنزلون بواسطة

(١) انظر كتاب « المدخل الى تاريخ الحضارة » د . جورج حداد ص ٩٨ .

الكبد الذي تظهر فيه نوايا الآلهة لأنه في اعتقادهم مركز الحياة ، وهنالك طقوس معينة في اختيار الحيوان الذي يؤخذ كبده، وقد لجئوا الى العرافة أيضاً بواسطة نقطة الزيت وقالوا أن بعض الحوادث تكون شؤماً وبعضها موافقة ، وأن الحركات الصادرة عن الحيوانات لها مدلول معين ، ومن هنا نشأت فكرة التطير والآلهة تبلغ الاتقياء عن الحوادث بطريق الاحلام وهي تظهر ارادتها بواسطة حركات النجوم ومنها أتى « علم التنجيم » وهذا العلم كان صورة أخرى من صور التنبؤ (قراءة الكف) و (الضرب بالرمل) ..

وأيضاً فحركات النجوم والكواكب واجتماعاتها ولونها قد أدت الى ملاحظة الأفلاك (١) وتطور عظيم في المعلومات الخاصة بالفلك في أرض الرافدين ولا سيما خلال العصر الكلداني حيث لدى علماء الآثار جداول من المعلومات الفلكية تبرهن على معرفة الظواهر السماوية واسعة الشمول .

وكان للبابليين منذ أقدم العصور مراصد حقيقية مقامة على رؤوس أبراج المعابد المعروفة باسم « زقرة » والتي في أعلاها معبد صغير يصعد اليه بسلم خارجي على السطوح المتراجعة بالتدريج والتي تضيق كلما صعد اليها الانسان فالبرج له بعض الشبه بالهرم المدرج ومن نماذجه في العصر الاسلامي شكل بعض المآذن منها مأذنة « سامراء » في العراق ومأذنة جامع « ابن طولون » في جمهورية مصر العربية

لقد أدت ملاحظة الأفلاك أيضاً الى القيام من قبل البابليين بقياس مدارات النجوم بالساعة المائية وكانوا يسجلون تسجيلاً صحيحاً حركات الشمس والقمر فصارت لهم في القرن السابع قبل الميلاد القدرة على التنبؤ بما يتتابع من خسوف أو كسوف وأطلقوا على مجموعات الكواكب المختلفة أخذها عنهم اليونان فيما بعد. فاليونانيون يدينون لبابل بجزء كبير من معلوماتهم الفلكية ، وكان علم الفلك الأساس الذي بني عليه التقويم وهو من اثني عشر شهراً قمرياً ثم ان السنة غدت على أيديهم حتى عصرنا هذا مؤلفة من اثني عشر شهراً والاسبوع مؤلف من سبعة أيام حيث نرى أن أول يوم في الاسبوع لدى الشعوب الاوربية يسمى Sunday لأنهم كانوا يكرسونه لعبادة إله الشمس واليوم الثاني Monday لأنهم كرسوه للاله القمر . ويوم السبت Saturday اكتسب اسمه من Saturn (زحل) وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لايزال متصلاً بالتقويم القمري لهؤلاء الاقدمين . ونقل السوريون الى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور الساعات.

(١) انظر كتاب « الحضارات السامية القديمة » تأليف : سبيتينو موسكاتي . ترجمة د . السيد يعقوب بكر ص ٧٨ .

ونظاماً للتنبؤ عن الخسوف والكسوف(١). وعلامات الابراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً نفس العلامات الآشورية وكثير من أنظمة الموازين والمقاييس قد أتى من قبل البابليين بواسطة السوريين.

لذا نرى وبنظرة بسيطة إلى ما ألفه الغربيون في التراث اليوناني واستعرضنا آراءهم في نتاج الحضارة العربية تكشف لنا التحامل والاجحاف الذي يبدو من أقوال بعض هؤلاء العلماء الذين تصدوا لتشويه صفحات لامعة في تاريخ العرب الذين اعتقدوا أن العقل العربي لم يستطع في جميع الأدوار التي مرت عليه أن يقدم للمدنية والحضارة خدمات علمية جليلة كالتي قدمها الغرب وانه لم يكن بين العرب من استطاع أن يصل علمياً لدرجة « غاليلو » و « كبلر » و « نيوتن » وغيرهم.

وقد جاء الرد بقول العالم الجليل «سارطون» بشأن الذين ينتقصون من قدر العرب :

« ان بعض المؤرخين يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا شيئاً ما ... إن هذا الرأي خطأ ، وانه لعمل عظيم جداً ، أن ينقل العرب الينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون »(٢).

علم الفلك والتنجيم عند العرب

لم يعرف العرب قبل العصر العباسي شيئاً يذكر عن الفلك ، اللهم إلا فيما يتعلق برصد بعض الكواكب والنجوم الظاهرة ، وحركاتها واحكامها بالنظر إلى الخسوف والكسوف وبعلاقتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية ، وكانوا يسمون هذا العلم الذي يبحث في مثل هذه الأمور بعلم « التنجيم » ومع أن الدين الاسلامي قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجري على الأرض إلا أن ذلك لم يمنع الخلفاء ولا سيما العباسيين من الاعتناء به وان يستشيروا المنجمين في كثير من أحوالهم الادارية والسياسية وحروبهم وبنائهم المدن ، فاذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين ، فينظروا في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يسيرون على مقتضى ذلك .. ومما لا شك فيه ان علم الفلك تقدم تقدماً كبيراً في العصر العباسي كغيره من فروع المعرفة لانه كان لبعض مسائله مما يطالب بمعرفتها المسلم ، كأوقات

(١) انظر كتاب « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » للدكتور فيليب حتي . ترجمة : د. جورج حداد ص ـ ١٥٦ ـ .

(٢) انظر كتاب « العلوم عند العرب » تأليف ، قدري حافظ طوقان ـ ص ٣ .

الصلاة ومواقع الكعبة ووقت ظهور هلال رمضان وغيره من الاشهر .. كل هذه ساعدت على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه ، واول من اعتنى بالفلك فقرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم « أبو جعفر المنصور » الذي كان برفقته دائماً منجمه «نوبخت» الفارسي وكان في حاشيته أيضاً ابن نوبخت و « ابراهيم الفزاري » وابنه «محمد» و « علي بن عيسى الاسطرلابي » وغيرهم .. والمنصور هو الذي أمر أن ينقل كتاب في حركات النجوم مع تعاديل معمولة على كردجات محسوبة لنصف درجة مع ضروب من أعمال الفلك من الكسوفين ومطالع البروج وغير ذلك ، وهذا الكتاب عرضه عليه رجل قدم سنة ١٥٦ ﻫ من الهند في حساب « السندهنتا » وقد كلف المنصور « محمد بن ابراهيم الفزاري» بترجمته وعمل كتاب في العربية يتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب وقد سماه المنجمون كتاب «السند هند» الكبير الذي بقي معمولاً به الى أيام المأمون وقد اختصره «الخوارزمي» ووضع منه زيجه الذي اشتهر في كل البلاد الاسلامية. وعول فيه على أوساط «السندهند» وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذهب الفرس ، وميل الشمس فيه على مذهب « بطليموس » ، واخترع فيه أنواعاً من التقريب حسنة ، وفي القرن الرابع الهجري حول « مسلمة بن أحمد المجريطي » الحساب الفارسي الى الحساب العربي ، ومع الزمن طهر العرب الفلك من أدران التنجيم والخزعبلات ، وارجعوه الى ما تركه علماء اليونان علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب(١)..

ولا شك أن العرب لم يصلوا بعلم الفلك إلى ما وصلوا اليه الا بفضل المراصد. وقد يكون مرصد الاسكندرية الذي انشىء في القرن الثالث قبل الميلاد هو أول مرصد كتب عنه ويقال ان الامويين أقاموا مرصداً في دمشق ومن الثابت أن المأمون أول من أشار باستعمال آلات في الرصد وقد ابتنى مرصدين على جبل قاسيون في دمشق وفي الشماسية في بغداد وفي مدة خلافته وبعد وفاته انشئت عدة مراصد في أنحاء مختلفة من البلاد الاسلامية، وابتنى بنو موسى مرصداً في بغداد على طرف الجسر، وفيه استخرجوا حساب العرض الاكبر من عروض القمر، وبنى «شرف الدولة» مرصداً في بستان دار المملكة وأنشأ الفاطميون على جبل « المقطم » مرصداً عرف باسم المرصد الحاكمي . وكذلك انشأ بنو الأعلم مرصداً عرف باسمهم ولعل مرصد « المراغة» الذي بناه « نصير الدين الطوسي » من اشهر المراصد واكبرها واشتهر بآلاته الدقيقة

(١) انظر كتاب « العلوم عند العرب » تأليف : قدري حافظ طوقان ص ٦٠ .

وتفوق المشتغلين فيه وقد قال الطوسي عنهم في زيج الايلخاني » :

« اني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم ، المؤيد العرضي ، والفخر المرغاني ، والفخر الخلاطي ونجم الدين بن دبيران القزويني ، وقد ابتدأنا في بنائه سنة ٦٥٧ هـ بمراغة .. »

واشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد اعتمد عليها علماء أوربا في عصر النهضة وما بعده ببحوثهم الفلكية ويوجد عدا هذه المراصد أخرى في مختلف الانحاء كرصد « ابن الشاطر » بالشام ومرصد « الدينوري » بأصبهان ومرصد « البيروني » ومرصد « اولوغ بك » بسمرقند ومرصد « البتاني » بالشام وغيرها ..

وكان للرصد آلات مختلفة بحسب الغرض منها وهاك اسماء بعضها :

اللبنة ، والحلقة الاعتدالية ، وذات الأوتار ، وذات الحلق ، وذات السمت والارتفاع ، والآلة الشاملة ، وذات الشعبتين وذات الجيب ، وذات المشتبهة بالناطق ، والاسطرلاب وانواعه المتعددة ، عدا ما اخترعوه من البراكير والمساطر وعدا التحسينات التي أدخلوها على كثير من آلات الرصد المعروفة لليونان وقد وضع العرب كثيراً من « الأزياج » القيمة الدقيقة ومفردها « زيج » وهو عند العرب « صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى اليه برهان الهيئة في وصفه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولها قوانين في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية واصول متقررة في معرفة الأوج والحضيض والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض ووضعها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى بالأزياج » ومن أشهرها زيج « الفزاري » و « الخوارزمي » و « البتاني » و « ابن الشاطر » و « ابن يونس » و « نصير الدين الطوسي » وغيرهم وبالجملة فان للعرب فضلا كبيراً على علم الفلك .

١ ـ لأن العرب نقلوا الكتب الفلكية عن اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض أغلاطها وتوسعوا فيها وهذا عمل جليل ـ لاسيما ـ اذا عرفنا ان اصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجمتها في العربية وهذا طبعاً ما جعل الأوربيين يأخذون هذا العلم عن العرب فكان العرب بذلك اساتذة العالم فيه ..

٢ ـ في اضافاتهم الهامة واكتشافاتهم

الجلية التي تقدمت بعلم الفلك شوطاً بعيداً ..

٣ – في جعلهم علم الفلك استقرائياً وفي عدم وقوفهم فيه عند حد النظريات ..

٤ – في تطهير علم الفلك من أدران التنجيم واطلقوا على علم الفلك اسم «أحكام النجوم»[1] .

فضل العرب على الحضارة الأوربية

ان وجود امبراطورية عربية مسلمة بحضارة الرومان واليونان وحضارات الشرق القديم ، كان كافياً للتأثير في حضارات الشعوب المجاورة في القارة الأوربية في العصور الوسطى وعصر النهضة الاوربية ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي .

وقبل ان تغيب شمس الحضارة العربية وتتفكك صفوف العرب على يد الاتراك ، نقلوا المشعل الموروث عن القدماء الى أول مدارس الغرب .. لقد أخذوا عن أثينا وأعطوا باريس ، فقد التقى العالم المسيحي بالعالم الاسلامي في نقطتين : ايطاليا الجنوبية واسبانيا ، فكانت علوم العرب تدرس بشغف في قصر الامبراطور « فريدريك الثاني » في باليرمو عاصمة صقلية وبذلك جعلت في متناول اللاتينيين وقد أهدى الامبراطور وابنه « مانفريد Manfred » الى جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب فلسفية وعلمية بعضها مترجم عن العربية وبعضها عن اليونانية ولكن حركة الترجمة في اسبانيا كانت اكبر من ذلك وأنشط فكان في مدينة طليطلة عندما فتحها الاسبان مكتبة عربية حافلة بالكتب في أحد المساجد وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث أنها مركز للثقافة العربية الاسلامية أقصى بلاد قارة أوروبا ، وهنا نجد المستعربين واليهود وقد تحول بعضهم الى المسيحية يعملون جنباً الى جنب في نشر تلك الثقافة العربية .. فكان من القائمين بالترجمة على سبيل المثال لا الحصر : «يوحنا الاسباني Johannes Hispanus» و « جنديسالينوس Gundisalinus » و «جيرارد الكريموني Gerardcremona» و « ميخائيل الاسكتلندي Michelder Schotte » و « هرمان الألماني Hermann-der Deutsche » . وكان أول ما ترجم كتب الرياضيات والفلك والتنجيم والطب والفلسفة للكندي وابن سينا وابن رشد والفارابي وابن باجة (٢) .. وساعد ذلك

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .

(٢) انظر كتاب « تاريخ الفلسفة في الاسلام » تأليف : ت . ج . دي بور . ترجمة : عبد الهادي أبو ريدة ص ١١٧ .

على نمو الجامعات الاوروبية حيث تحول التعليم الى تعليم عالي على شكل جامعي بعد ان كانت المدارس ملحقة بالأديرة غدت ملحقة بالكاتدرائيات مما جعلها تهتم بالامور الدنيوية اكثر من الامور الدينية لان تلك الكاتدرائيات كانت في قلب المدن النامية وعلى اتصال وثيق بالحياة للشعوب الاوربية ..ويرى (راشدال) Rashdall ان في انتقال التعليم من أيدي الرهبان الى رجال الدين الدنيويين في القرن الحادي عشر انقلاباً عظيماً في التعليم يحوي بذور الحركة الجامعية .وهكذا نمت الجامعات في « سالرنو » و « بولونيا » و « باريس » و « مونتليبر » و « اكسفورد » واطلق لفظ « الجامعة » على معهد باريس سنة ١٢٠٨ م ، وانشئت أول كلية منها في عام ١١٨٠ م وكانت المواد التي تدرس تظهر في قول « اسكندر نكام Alescander Necham» الذي أمه مرضعة « ريتشارد قلب الأسد » والذي رضع مع ريتشارد في وقت واحد تقول ان الكتب المدرسية التي كانت تدرس في عام ١٢٠٠ م كانت تشمل المنطق الجديد وعالم ما وراء الطبيعة والتاريخ الطبيعي لأرسطو والحساب والموسيقى لبوتيس ومؤلفات إقليدس والترجمة اللاتينية لتعليقات العرب على بطليموس وجالينوس وأبقراط ، ولم تدرس حتى ذلك الحين مؤلفات ابن سينا .

لقد عملت الجامعات على تقدم العلوم خلال القرن الثاني عشر ونشرت علوم الاغريق والمسلمين الجديدة وبعد تمثيل العلوم الاغريقية والاسلامية التي نقلت في الكتب الى غرب أوربا وقفت الجامعات سداً في سبيل تقدم العلوم ، واقتصرت دراسة الفلك والكيمياء والعلوم التجريبية على جماعات صغيرة في بيزا ومارسيليا ولندن والمراكز الاخرى البحرية والتجارية(١) .

وفي القرن الرابع عشر مشى العلم وئيداً لأن علماء الجامعات بعد أن مثلوا العلوم القديمة لم يستطيعوا السير بخطى واسعة في طريق التقدم نظراً لاهمالهم للتجارب في دراساتهم ، وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر اقترح العلماء نظريات مختلفة للجاذبية لتفسير العلاقة بين القمر وحركات المد والجزر ودونوا مشاهداتهم عن المذنبات والزلازل والطقس ، وازدادت أهمية العلوم الطبيعية والفلكية مما جعل الهيئات الدينية في القرن الثالث عشر تذعر من الملحدين الذين عرضوا تلك النظريات ، لذا بدأت محاكم التفتيش تقضي على كل جديد من الأفكار ، وأنشأ لويس الثالث محكمة كنسية التفتيش سنة ١١٨٤ م عندما أمر الأساقفة بالقيام بأدق التحريات عن الملحدين الذين يقيمون في دوائرهم ثم أضاف البابا « جريجوري التاسع » محققين من روما

(١) أنظر كتاب « صلة العلم بالمجتمع » تأليف ج . ج كراوذر ترجمة حسن الخطاب.

ليشرفوا على التحريات ، وهم يتلقون التعليمات من روما تحت اشراف البابا نفسه .

لذا لم يجرؤ أحد على الاتيان بأفكار جديدة خوفاً من أن يتهم بالالحاد أمام تلك المحاكم ، الا نفر قليل من العلماء الافذاذ أمثال العالم الفلكي الكبير / نيقولاس كوبرنيكوس / ١٤٧٣ — ١٥٤٣ / الذي احتفل بمرور خمسة قرون على ولادته في مطلع هذا العام وقد كان لمؤلفه « دوران الاجرام السماوية - De revolutionibus orlium coealestium دوي هائل في الاوساط الاوربية العلمية .

اذ نقد آراء زمانه وقال بأن الشمس مركز الكون لا الأرض وهذا القول ذاته نادى به فلكي عربي كبير ألا وهو « أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني » / ٩٧٣ — ١٠٤٨ م / وهو صاحب القانون المسعودي في الهيئة والتنجيم الذي الفه عام ٤٢١ هـ للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين وضمنه بياناً وافياً للفلك حذا فيه حذو بطليموس في كتابه (المجسطي) الا أنه خالفه في مركزية الارض وأحيا نظرية الاغريقي « ارسطرخس Aristorchs » وقد اعترف بفضل العرب على كوبر نيكوس مواطن هذا العالم الرئيس البولوني « هنريك يابلونسكي » أثناء زيارته للقطر العربي السوري في حفل تبادل الهدايا بينه وبين الرئيس حافظ الأسد حيث قدم الرئيس البولوني تمثالاً نصفياً لكوبرنيك كهدية رمزية للقطر العربي السوري ومردفاً قوله بأن هنالك عالماً دمشقياً وهو « ابن الشاطر » وآخر « البتاني » كان لهما دور كبير في آراء كوبرنيكوس الفلكية ..

وهكذا كان فضل العرب سابقاً وشاملاً على الحضارة الاوربية.. وما احوجنا اليوم ونحن ننفض عن أبداننا أدران الماضي ونحطم قيد التقليد البغيض أن نسترجع أمجاد آبائنا الاولين في معارفهم وعلومهم وحضاراتهم حتى تكون لنا عبرة واسوة حسنة .

الصهيونية *

أعلى مراحل الاستعمار

صفوان قدسي

المؤرخ البريطاني الذائع الصيت « آرنولد توينبي » وجد نفسه ذات يوم من عام ١٩٦٢ في مواجهة حملة من التشهير بسبب حديث صحفي أدلى به الى صحيفة « معاريف » الاسرائيلية .

* على الرغم من أن هذه الدراسة كتبت قبل معارك تشرين المجيدة، فان الصورة التي تقدمها ماتزال صحيحة في اطارها العام .

وأخطرها في هذا الحديث الذي أحدث ضجة داخل اسرائيل ، هو أنه يضع يده على الحقيقة التي لا يحب الاسرائيليون مواجهتها وهي أن وجودهم على الأرض العربية لا يمكن إلا أن يكون وجوداً عارضاً ومؤقتاً ، وان الصراع العربي - الاسرائيلي سوف يحسم في نهاية المطاف لصالح العرب حتى ولو استمر هذا الصراع مئات السنين .

يقول « توينبي » ان العدالة سوف تتحقق في النهاية ، وسوف يضطر اليهود عند ذلك إلى مغادرة اسرائيـل . وهو يذكر الاسرائيليين بأنه ما زال على اعتقاده القديم بأن إنشاء اسرائيـل كان خطأ كبيراً ، وان هـذا الخطأ لا يمكن إصلاحه إلا بعودة الاسرائيليين الى الدول التي قدموا منها وبذلك يعود الحق الى أصحابه العرب .

حديث « توينبي » يشتمل على العديد من الآراء التي تصفع التفكير السياسي الاسرائيلي وتوجه اليه شحنة كهربائية صاعقة . وبطبيعة الحال ، فان هذه ليست وقفة عند حديث « توينبي » إلى الصحيفة الاسرائيلية ، وإنما هي مجرد محاولة لاكتشاف المسافة بين المواقع التي يقف فيها مؤرخ من طراز « توينبي » وبين المواقـع التي يقف فيها الفكر السياسي الاسرائيلي .

الوجه الآخر للصورة يبدو واضحاً من خلال المناقشات التي جرت داخل اسرائيل حول الخارطة السياسية والسكانية والعسكرية التي ينبغي على إسرائيل أن ترسمها وأن تتمسك بها .

وكما تقول التقارير الصحفية الخارجة من اسرائيل ، فان المناقشات التي جرت داخل اسرائيل حول الخارطة المقترحة تشير الى ان الصقور ما زال لهم الصوت الأقوى.

وتقول التقارير ان شمعون بيريز وزير المواصلات والحليف القوي لـ « موشي ديان » ركز في كلامه على ضرورة احتفاظ اسرائيل بجميع الاراضي العربيـة المحتلة ، وان وزير المالية « بنحاس سابير » ابدى قدراً من التحفظ ازاء الفكرة القائلة بضرورة ضم جميع الاراضي المحتلة ، بما في ذلك المناطق التي تضم كثافة سكانية عربية ، وبرر تحفظه بقوله : انه خلال خمسة وعشرين عاما سوف يصل عدد سكان اسرائيل الى تسعة ملايين نسمة ، نصفهم من العرب ، في حالة ما اذا احتفظت اسرائيل بجميع الاراضي الـتي احتلتها في حرب حزيران وهذا يثير سؤالا : هل هـذه هي اسرائيل التي كنا نحـلم بها ؟..

«بيريز » حليف « ديان » القوي يرد على « سابير » قائلا ، اذا كان الموقف سينتهي الى كارثة كما يقول « سابير » فلماذا لا ننسحب من هذه الأراضي فوراً ؟.

« غولدا مايير » رئيسة الوزراء تقول ان المستعمرات الاسرائيلية التي اقيمت في الاراضي العربية المحتلة إنما اقيمت بموافقة اغلبية اعضاء الحكومة الاسرائيلية ، وهي الاغلبية التي ابدت رغبتها في الاحتفاظ بهذه المناطق تحت سيطرة اسرائيل ، وخلاصة وجهة نظر « مايير » هي ان على اسرائيل ان تحتفظ بجميع الاراضي التي احتلتها في حرب حزيران ، عدا تلك المناطق التي تضم كثافة سكانية عربية .

وبطبيعة الحال ، فان موقف الذين يعترضون على فكرة احتفاظ اسرائيل بالمناطق ذات الكثافة السكانية العربية واضح كل الوضوح . ذلك ان دمج هذه المناطق في الخارطة الاسرائيلية المقترحة سوف يحدث تحولات « ديموغرافية » داخل المجتمع الاسرائيلي بحيث تتحول الاقلية العربية داخل اسرائيل الى اغلبية مع انتهاء هذا القرن ، الامر الذي يمسح عن اسرائيل طابعها اليهودي وهو الطابع الذي يحرص عليه الاسرائيليون حرصا شديداً باعتبار انه هو الذي يعطي اسرائيل شكلها الخاص .

وقد اوضح « سابير » هذه النقطة عندما قال : ان استمرار احتلال الاراضي التي في حوزتنا يحمل لنا اخطارا على صورة اسرائيل السياسية والاجتماعية ، وحتى من ناحية الامن ، لأن معنى الاحتفاظ بكل الاراضي ان تكون اسرائيل بعد عشرين سنة دولة غير يهودية . كما ان وزير العمل الاسرائيلي تنبه الى النقطة ذاتها حين قال : ان الملحوظ هو ان اليهود بدأوا يتركون اعمال الفلاحة وغيرها للعرب ، الامر الذي يعرض تكامل الدولة اليهودية للخطر .

ويعقب « أحمد بهاء الدين » على ملاحظة وزير العمل الاسرائيلي بقوله : انه كان من أسس الحركة الصهيونية ان تحول اليهود من المهن التي تعودوا الاقتصار عليها وهي التجارة والخدمات والصناعات والعلوم المتقدمة ، الى ممارسة كل الأعمال اللازمة لايجاد كيان قومي وطني : الزراعة والصناعة والبناء وكل شيء ، وسهولة الحصول على العامل العربي الرخيص الأجر الآن قد تبدو مسألة سهلة لليهود أول الأمر ، ولكنهم مع الزمن سوف يفقدون جذورهم من جديد . ويقرر الكاتب أنه لو درسنا تطور الاتجاه الاسرائيلي العام منذ عام ١٩٦٧ ، فسوف نجد أن التيار القائل بالاحتفاظ بكل الأراضي المحتلة والسعي إلى ايجاد « سلم واقعي »

دون الحاجة الى سلم قانوني ، هو التيار الذي يتسع ويزداد قوة ، حتى بن غوريون الذي كان اكبر اسم يطالب باعادة كل شيء ، ما عدا القدس ، في مقابل السلام ، عاد وعدل عن موقفه هذا في رسالة كتبها مؤخرا الى احدى الصحف الاسرائيلية ، ويشير الكاتب الى مقال ظهر في صحيفة « هاآرتس » الاسرائيلية يلخص هذا الموقف الاسرائيلي احسن تلخيص حيث يقول صاحب المقال ان حالة سلام واقعي مع الاحتفاظ بالحدود الراهنة افضل بكثير من سلام تعاقدي لابد أن ينطوي على انسحاب من مساحات كبيرة . ولماذا نوقع اتفاقية سلام رسمية ؟ . فيما يتعلق باسرائيل فان استمرار السلام الواقعي سوف يضفي مع الزمن طابعاً رسمياً على انتهاء الحرب ، وفيما يتعلق بالدول العربية فان سكوتها عن هذا السلام الواقعي أسهل على نفسها من التوقيع على اتفاقية سلام رسمية علنية يتنازلون فيها عن أراضي عربية جديدة .

القيمة الحقيقية لهذه المناقشات حول خارطة اسرائيل الجديدة هي أنها تكرس من جديد الفكرة القائلة : ان الأرض أولا ، والارض ثانيا ، والارض ثالثاً ، هي الهدف الرئيسي للعدو الاسرائيلي وما عدا ذلك لايمثل أكثر من محاولات للتعمية والتمويه واخفاء النوايا الحقيقية . ومعنى ذلك ان حديث اسرائيل عن السلام هو الغطاء الذي تختبىء تحته الاطماع الصهيونية في اقامة امبراطوريتهم الممتدة من النيل الى الفرات .

والقيمة الحقيقية لهذه المناقشات هي أنها تعيد الى الذاكرة الحقيقة القائلة إن التفكير السياسي الاسرائيلي بحاجة الى صدمة كهربائية تعيده الى حجمه الحقيقي وتمسح عنه كل هذا القدر غير المعقول من الخيلاء والجموح والقفز فوق حقائق التاريخ والجغرافيا .

(٢)

لعل أخطر ما يمكن أن يسقط فيه الفكر السياسي العربي المعاصر ، هو أن يقيم حساباته على أساس أن اسرائيل تبحث فعلا عن السلام ، وان الهدف النهائي لكل هذا الذي فعلته اسرائيل على مدى عشرين عاماً ، هو الحصول على اعتراف عربي رسمي بوجودها كدولة ذات كيان قائم في المنطقة . ذلك أن مثل هذه الحسابات سوف تؤدي في نهاية المطاف الى اسقاط مجموعة من الحقائق التي أصبحت على درجة من الوضوح بحيث لم يعد في مقدور أي صوت عالي النبرات أن يمسح عن هذه الحقائق وضوحها وجلاءها .

ان أية محاولة جادة لفهم السياسة الاسرائيلية سوف تفضي الى النتيجة التالية ، وهي أن ماتسعى اليه اسرائيل ليس السلام قبل أي شيء آخر ، وانما الأرض أولاً وقبل كل شيء ، ثم السلام اذا جاء السلام . وبمعنى آخر ، فان متابعة السياسة الاسرائيلية تنبىء عن الحقيقة القائلة ان دعوى السلام ليست سوى القفاز الذي تخلعه اسرائيل من كفها لتلقيه في وجه أية محاولة لكشف حقيقتها باعتبارها نموذجاً متقدماً للاستعمار الاستيطاني القائم على طرد شعب من أرضه ووطنه واحلال شعب آخر محله ، وعلى كسب مزيد من الأرض عن طريق الحرب ، وعلى توسيع هذه الأرض باستعمال جميع أسباب القوة ، وفي مقدمتها القوة العسكرية المسلحة بأحدث أسلحة العصر . أي أن دعوى السلام هي اللغة التي تستعملها اسرائيل لايصال صوتها بطريقة مسموعة ومؤثرة الى العالم .

وفي الحقيقة فان اسرائيل استطاعت أن تحقق نجاحاً مؤكداً في نقل صورتها الى العالم الخارجي باعتبارها الباحثة عن السلام ، المهددة أبداً بالسكين العربية الممتدة نحو عنقها ، المحاصرة ببحر من العداء العربي . غير أن حرب حزيران نزعت عن

اسرائيل صورتها المزيفة و كشفت عن حقيقتهاواسقطت القسم الاعظم مندعاواها الكاذبة .

ما الذي تريده اسرائيل في حقيقة الأمر ؟ . بكلمة واحدة : الارض .

ولعل هذه الكلمة لاتلخص تاريخ اسرائيل فحسب ، وانما تلخص في الوقت نفسه تاريخ الحركة الصهيونية خلال ثلاثة أرباع القرن .

لقد ظلت الحركة الصهيونية منذ قيام أول مؤسسة معلنة لها ، تسعى الى الحصول على الارض – باعتبار أن الحصول على الارض هو الخطوة الاولى في اتجاه الحصول على الوطن . بمعنى أن الارض والاستقرار في الارض ، وزراعة الارض والعمل فيها ، كل ذلك سوف يؤدي في النهاية الى قيام الوطن . وبدأت الحكاية كلها بانتقال مجموعات من يهود أوربا الى فلسطين حيث استوطنت في قطاعات معينة من الارض وأقامت لها مزارع خاصة ، ثم تطور الامر كله على نحو ماهو شائع ومعروف .

ومنذ مطلع هذا القرن ، اكتشفت الحركة الصهيونية ضرورة تحويل انتباه قطاع كبير من اليهود في اتجاه الزراعة . وكما هو معروف تماماً ، فان الصفة الغالبة على يهود العالم هي انهم لا يعملون في الارض ، أي انهم ليسوا فلاحين ، وانما يجتذب اهتمامهم في كل الاوقات عالم المدينة بكل مافي هذا العالم من مراكز المال والتجارة ، وفي مقدمتها المؤسسات المصرفية والاوراق النقدية والذهب وما الى ذلك .

ولعل في العودة الى الدراسة التي وضعها المؤرخ الصهيوني «رفائيل ماهلر» والتي لخصها الكاتب المعروف « احمد بهاء الدين » في كتابه الممتاز (اسرائيليات) مايكشف عن هذه الحقيقة . في تلك الدراسة يشير « ماهلر » الى أن اليهود ليس

بينهم فلاحون قط ، وان كل جهدهم ينصب في مجالات اخرى غير مجالات الزراعة وفي مقدمتها الاعمال المتعلقة بالتجارة والمصارف وبعض المهن الحرة الاخرى . كما يعرض « ماهلر » الى حالات عديدة تؤكد بأن اليهود كانوا في مجتمعاتهم أبعد مايكونون اهتماماً بالارض ، الى أن بدأت الهجرات المنظمة إلى فلسطين .

في ذلك الوقت ، بدأت الحركة الصهيونية تدرك أهمية الأرض في تحويل اليهود الى جماعات مستقرة . لأن « الزراعة هي التي تمنح الشعب استقراره وتغرس جذوره في الأرض » ، ولذلك عمدت الحركة الصهيونية الى « خلق الفلاح اليهودي والزراعة اليهودية » ومنذ قدوم المهاجرين الاوائل الى فلسطين بالذات دون سائر بلاد العالم ، عمدوا الى خلق نواة « المزرعة اليهودية » ويرى مؤلف كتاب « اسرائيليات » ان خلق الزراعة اليهودية كان قراراً سياسياً وليس قراراً اقتصادياً ، وان هذا الطابع السياسي هو الذي لازم نمو الزراعة اليهودية من ايام الهجرة الاولى والتمهيد للاغتصاب حتى مشروع تحويل نهر الأردن .

ويروي « بن غوريون » في مذكراته قصة مليونير يهودي انجليزي حاول دون ملل أن يقنع اليهود المقيمين في فلسطين منذ مائة عام بأن يوجهوا جهودهم الى الأرض ، اي بأن يتحولوا الى فلاحين . وكان « بن غوريون » نفسه من الذين عملوا في الأرض حين هاجر الى فلسطين عام ١٩٠٦ .

ولقد استمرت هذه السياسة بعد حرب حزيران ، وتمثلت اكثر من كل شيء في مراكز الاستيطان الجديدة التي انشأتها قوات الاحتلال الصهيوني في جميع الأراضي العربية التي احتلتها في تلك الحرب . وهذه المستعمرات ، بالاضافة الى أهميتها العسكرية باعتبارها وحدات مقاتلة وحصوناً عسكرية ، تعتبر مؤسسات زراعية هدفها الأول تثبيت الاحتلال الاسرائيلي عن طريق تغيير طبيعة الأرض ،

وعن طريق احداث تغييرات ديمغرافية واقتصادية على نطاق واسع ، وعن طريق ربط الاسرائيلي بتلك الأرض .

وباختصار شديد ، فان الحركة الصهيونية كانت وما تزال تسعى الى تحقيق أهدافها من خلال مجموعة من الوسائل في مقدمتها تأكيد مفهوم الارتباط بالأرض المغتصبة .

ومن جهة ثانية ، فان الحركة الصهيونية التي رفعت شعار : اسرائيل الكبرى .. من النيل الى الفرات ، ماتزال ترى في هذا الشعار حلماً قابلاً للتحقيق ، برغم كل مايظهره هذا الشعار من مجافاة لأبسط قواعد المنطق ، وبرغم كل مايظهره من خيال مجنون .

أي أن الحركة الصهيونية ماتزال تحن الى حلمها القديم بخصوص اسرائيل الكبرى . وما زال في سمعنا ذلك التصريح الشهير الذي أطلقه « موشي ديان » على مسمع من الناس والذي قال فيه مخاطباً مجموعة من الشبيبة : لقد صنع جيلنا اسرائيل عام ١٩٤٨ وصنع جيلكم اسرائيل عام ١٩٦٧ ، وسوف يصنع الجيل القادم اسرائيل الكبرى .

ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك كله سوى أن اسرائيل تسعى الى امتلاك الأرض قبل أي شيء آخر ؟. لقد كانت حرب عام ١٩٦٧ تستهدف ، في جملة ماتستهدف ، الارض . وأية متابعة متبصرة لكل ماصدر عن قادة اسرائيل من تصريحات وأقوال خلال السنوات الثلاث الماضية ، سوف تفصح عن حقيقة الحرب التي خاضتها اسرائيل في الخامس من حزيران .

الأرض أولاً وقبل أي شيء آخر . ثم السلام اذا جاء السلام . واذا كان لاسرائيل ان تختار بين الأرض وبين السلام ، فان اختيارها سوف يقع بكل تأكيد على الأرض . وليس في هذا الكلام أي تجاوز للحقائق المعروفة ، وتكفي

متابعة ما قيل على لسان « ديان ومانير وآلون » لتأكيد ذلك . آخر صيحة أطلقها « ديان » هي أن الضفة الشرقية للقناة ، وشبه جزيرة سيناء ، هي حدود اسرائيل الآمنة مع مصر . وآخر صيحة اطلقها « آلون » هي أن اسرائيل ليست في حاجة الى طلب الاستئذان من أحد قبل أن تقدم على ايجاد مستوطنات لها في الأراضي المحتلة .

ولو دققنا في تلك التصريحات ، لتوصلنا الى النتيجة التالية ، وهي أن حدود اسرائيل الآمنة تمتد من نهر الأردن شرقاً ، الى قناة السويس جنوباً ، الى مرتفعات الجولان شمالاً ، أي أن حدود اسرائيل الآمنة هي تلك التي ترابط فيها الآن قوات من جيش الاحتلال الاسرائيلي وان السلام الذي تبدي اسرائيل استعداداً لقبوله هو السلام الذي يضمن لها هذه الحدود ويعترف بها . بل لعل اسرائيل لا تريد اعترافاً بهذه الحدود ، لأن مثل هذا الاعتراف يقيد حركتها في المستقبل ، وهي التي تطمع الى توسيع رقعتها مرة أخرى بانتظار ذلك اليوم الذي تحقق فيه حلمها القديم باقامة اسرائيل الكبرى .

على أن ثمة سؤالاً سوف تحسم الاجابة عليه أية تساؤلات أخرى ، وهو : لماذا تريد اسرائيل الأرض ؟

وباختصار شديد، ودون الخوض في التفاصيل ، فان اسرائيل تريد الأرض لسبب واضح ومحدد وهو استيعاب الهجرات الجديدة التي تتوقع اسرائيل حدوثها خلال الاعوام القادمة . لقد كان حلم اسرائيل الدائم هو أن يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة في نهاية هذا القرن . وهذه الملايين الخمسة تحتاج الى ارض جديدة تعيش عليها وتأكل منها .

في جميع أرجاء العالم يوجد حوالي خمسة عشر مليون يهودي ، وبكل

تأكيد فهم ليسوا جميعاً موالين للحركة الصهيونية ، بل لعل قسماً منهم يعتبر ان الحركة الصهيونية تحمل لليهود من المخاطر اكثر مما يحمله أي شيء آخر . غير ان الحركة الصهيونية تحلم بأن تكون قادرة في يوم من الأيام على اجتذاب القسم الأعظم من هؤلاء الى المنطقة . وهي لا تستطيع ان تفعل ذلك طالما بقيت اسرائيل داخل حدودها القديمة .

ومن هنا يمكن فهم وتفسير هذه الحروب التي لا تكف اسرائيل عن اشعالها بهدف احتلال الأرض والاستيطان فيها وتغيير طبيعتها الديمغرافية والاقتصادية .

(٣)

« شمعون بيريز » وزير النقل والمواصلات الاسرائيلي ، ووزير الدفاع السابق ، الذي تلقى ذات يوم من عام ١٩٧٢ رسالة من « امستردام » تحتوي على شحنة من المواد الناسفة ، يلعب دوراً بارزاً في الحيـــاة السياسية . وفي فترة من الفترات ، فان اسم « بيريز » كان يشغل مكاناً بارزاً في الصحف الاسرائيلية .

وحين أصدر « جان بول سارتر » عدداً خاصاً من مجلته « الأزمنة الحديثة » عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وكان ذلك عام ١٩٦٧ قبل حرب حزيران بفترة وجيزة ، فان « بيريز » كان واحداً من الفريق الصهيوني الذي اسهم في تقديم وجهة النظر الاسرائيلية في هذا الصراع ، وهي وجهة نظر تقوم على مغالطات ومفارقات لا تخفى على العين المتفحصة والمدققة .

في دراسته التي تحمل هذا العنوان : « يوم قريب ويوم بعيد » ، يكتب « بيريز » ، في معرض محاولته اظهار ـ اسرائيلي ـ بمظهر الباحث عن السلام

الذي لايريده العرب»،وفي معرض حديثه عن الطريقة التي يمكن بها تحرير «عبدالناصر» من الخوف والتوجس الذي يشعر به تجاه - اسرائيل - : وكان ذلك قبل حرب حزيران بأسابيع معدودة : « يجب علينـــا أن نعيش بدون حرب في السنوات العشر القادمة . فالحرب مجازفة قد تعرض أية حضارة الى الدمار . ولقد عانى اليهود الذين يسكنون اسرائيل كثيراً من ويلات الدمار والحروب ، وهم لن يجدوا فائدة في أية مجابهة عسكرية ، مهما كان امرها » .

هل يمكن النظر الى هذا النص باعتباره يشكل نموذجاً للصوت الاسرائيلي في حديثه الى العالم الخارجي ؟. ربما كان ذلك صحيحاً الى حد كبير . ففي الوقت الذي كان « بيريز » يشارك في التخطيط للحرب القادمة مع العرب ، وكانت في ذلك الوقت حرب عام ١٩٦٧ ، باعتباره أحد القادة البارزين في الحياة السياسية الاسرائيلية ، وصديق بن غوريون وموشي دايان المخلص ، كان يعلن على صفحات « الأزمنة الحديثة » عن رغبة اسرائيل في السلام وعن خطر الدمار الذي تؤدي اليه الحروب .

اسرائيل ، كما يكتب « بيريز » لاتريد الحرب ، خلال السنوات العشر القادمة على الأقل ، ومع ذلك فان اسرائيل تصطنع الظروف التي تؤدي في نهاية المطاف الى الحرب التي يعلن « بيريز » أن اسرائيل لاتريدها لانها مجازفة قدتعرض أية حضارة الى الدمار ، ولأن يهود - اسرائيل - عانوا كثيراً من ويلات الحروب ، وهم لن يجدوا فائدة في أية مجابهة عسكرية ، مهما كان امرها .

واسرائيل لاتسعى الى التوسع ، والدليل على ذلك هو ان الذين زاروا الكنيست الاسرائيلي في القدس لم يجـــدوا أية خارطة تعين الأراضي التي تنوي - اسرائيل - احتلالها بقوة جيشها ، أي أنهم لم يجدوا خارطة ما يسمى-باسرائيل -

الكبرى ومع ذلك فان قادة - اسرائيل - هم الذين يتحدثون الآن عن الحدود الآمنة - لاسرائيل - عن أن حدود - اسرائيل - هي حيث يصل الجيش الاسرائيلي، وهم الذين يعلنون عن عزمهم على الاحتفاظ بمعظم الأراضي العربية التي احتلوها في حرب حزيران .

خارطة - اسرائيل - الكبرى ، كما يكتب « بيريز » ليست اكثر من خرافة عربية لها أثر أقوى من اثر الواقع نفسه ، وتغيير الوقائع أسهل بكثير من ازالة الخرافات ، ومع ذلك فان « موشي دايان » يعلن ، دون مواربة ، أمام حشد من الشبيبة الاسرائيلية : ان جيلنا هو الذي صنع - اسرائيل - عام ١٩٤٨، وجيلكم هو الذي صنع اسرائيل عام ١٩٦٧ ، والجيل القادم سوف يصنع اسرائيل الكبرى . فأي شيء هي اسرائيل الكبرى ان لم تكن الخارطة التي تعلن جريدة « الجمهورية » عن وجودها في مبنى الكنيست الاسرائيلي ، والتي تعين الأراضي العربية التي تنوي اسرائيل احتلالها بقوة جيشها ؟ وأي شيء هي اسرائيل الكبرى إن لم تكن اسرائيل التي يعلن « بن غوريون » انها لابد وان تضم خمسة ملايين مهاجر يهودي جديد خلال فترة وجيزة من الزمن .

يلعب « بيريز » بعد ذلك لعبة خطرة حين يحاول اقناع القارىء بأن الولايات المتحدة خذلت اسرائيل اكثر من مرة ، وان لدى اسرائيل تحفظات تجاه السياسة الامريكية . صحيح أن « بيريز » يكتب ذلك عام ١٩٦٧ وقبل حرب حزيران وما أظهرته من أن هناك تطابقاً بين السياسة الامريكية والسياسة الاسرائيلية ، إلا أن الصحيح أيضاً هو أن العلاقة الخاصة التي تربط اسرائيل بالولايات المتحدة علاقة قديمة تأسست بقيام اسرائيل وهي علاقة معروفة تماماً . يكتب « بيريز » لقد سنحت لي الفرصة لمرافقة رئيس الوزراء الاسرائيلي أثناء زيارة رسمية لواشنطن . فاخذني احد الامريكيين جانباً ، وهو رجل ذكي ، ذو

مركز مرموق ، وسألني : ينتابني الشعور ياسيد ، بانكم تضمرون بعض التحفظات تجاه السياسة الامريكية . فهل هذا صحيح ؟ وفي حال كونه صحيحاً ما هي الاسباب؟فأجبت ان لامجال للكلام عن تحفظات تجاه السياسة الامريكية بشكل عام ، بل فقط تجاه السياسة الامريكية بالنسبة لاسرائيل . ثم رغبت في معرفة شعوره حول النقطتين التاليتين ، الامر الذي ساعدني على الخروج عن تحفظي :

ـ لماذا رفضتم أن تبيعونا السلاح الدفاعي اللازم ، بعد أن اقترعتم في في الامم المتحدة لصالح ولادة اسرائيل ؟

ـ في العام ١٩٥٥ اختل التوازن العسكري في الشرق الاوسط بصورة مدهشة بعد ان عمد الاتحاد السوفييتي لأول مرة في تاريخ هذه المنطقة الى تزويدها بالأسلحة ما فوق الحديثة ، فلماذا رفضتم وقتها أن تبيعونا السلاح لحفظ التوازن بيننا وبين العرب ؟

أجابني الامريكي بحسرة واقتضاب : أما في العام ١٩٥٥ فقد ارتكبنا خطأ ، وأما بشأن ١٩٤٨ فلا أستطيع أن أجيب بشيء .

بل أن « بيريز » يذهب الى أبعد من ذلك حين يحاول الايحاء بأن الولايات المتحدة تركت اسرائيل معرضة لخطر الدمار وهو يقول ان الدول نفسها التي ساعدت على تكوين دولة اسرائيل ، اقترعت ضدها بشأن الحصار الاقتصادي، ولقد تعرض يهود اسرائيل اثناء هذا العدوان لخطر الدمار الجسدي ، ورفض مع ذلك ان يعطي لنا السلاح اللازم للدفاع المشروع عن انفسنا ، ولعل تلك الذكرى من أمر الذكريات التي يحفظها شعب اسرائيل .

مثال فريد في التضليل السياسي ، ونموذج نادر في تزييف الوقائع التاريخية..

الولايات المتحدة خذلت اسرائيل وتركتها معرضة للدمار ؟ ومع ذلك فان الجياد المعصوبة العينين والمفتونة بالدوران حول نفسها تريد ان تصدق . عشرون عاماً والفكر الدعائي الصهيوني يروج لفكرة مفادها ان الولايات المتحدة ليست مع (اسرائيل) بالقدر الكافي ، حتى وصل الامر الى الحد الذي لم يعد الانكار معه مجدي ، فوقف قادة اسرائيل الواحد تلو الآخر ، يعلنون انهم ممتنون للولايات المتحدة ، وان الولايات المتحدة لايمكن ان تعطي باكثر مما اعطت . بل لقد وقف « اسحق رابين » سفير اسرائيل في واشنطن ، ليعلن انه اصبح عاطلاً عن العمل بعد ان عمدت الولايات المتحدة الى تلبية كل ماطلبته اسرائيل منها .

« شمعون بيريز » الذي أسعفه الحظ باكتشاف شحنة المواد الناسفة المرسلة اليه من « امستردام » صورة من صور الفكر الصهيوني المعاصر في محاولته اعدام التاريخ والقفز من فوق الوقائع المعروفة ، وفي محاولته القيام بعملية غسل دماغ عالمي بحيث يفقد العالم ذاكرته ويصدق هذا الذي تريد الحركة الصهيونية أن يصبح بمرور الزمن حقيقة لاتقبل النقاش .

هذه مجرد صورة عن العقل الاسرائيلي في محاولاته المبذولة للتنكر في زي لاتق يستطيع العقل الاوربي أن يتقبله ويستسيغه ، وهي المحاولات التي تستهدف اظهار اسرائيل بالمظهر الذي يجعلها ضحية عداء عربي يحاول أن يحتز رأسها .

وأغلب الظن ان تلك المحاولات انما كانت تستهدف بالدرجة الاولى ، وقبل أي شيء ، اشاعة مناخ ملائم لاسرائيل ، على اتساع العالم ، يسمح لها بان تمارس شكلاً من أشكال الابتزاز السياسي ، وبان يكون لها الحق في ان تباشر بالدفاع عن نفسها ازاء هذا الخطر الذي يحدق بها من كل مكان .

أي ان العقل الاسرائيلي كان يحاول ان يسلب من العرب حجتهم القائلة ان اسرائيل مجتمع عدواني وان السلام في المنطقة لن يتحقق بغير اقتلاع هذا الوجود القائم على التعصب والرغبة في التوسع .

كان العقل الاسرائيلي يحاول ان يهدم الاساس الذي تقوم عليه المناقشة لعربية أساساً لمشكلة الوجود الاسرائيلي ، بدليل ان محاولات عديدة جرت لاقناع العالم بأن اسرائيل لاتريد ولا تطلب اكثر من ان تعيش بأمان ، وأكثر من أن يساعدها العالم على منع السكين العربية من الوصول الى العنق الاسرائيلية .

وبالفعل فقد وجد العقل الاسرائيلي فرصته المتاحة لتأكيد محاولاته تلك في عدد « الازمنة الحديثة » الذي أصدره « سارتر » عن الصراع العربي الاسرائيلي قبل حرب حزيران .

ومن يقرأ الدراسات المنشورة بأقلام مفكرين وسياسيين صهيونيين ، سوف يضع يده فوراً على الحقيقة التالية ، وهي أن الطابع الذي يغلب على هذه الدراسات هي محاولة التركيز على نوايا اسرائيل الطيبة تجاه العرب ، وعلى اظهار اسرائيل بمظهر الكيان الضعيف ، المضطهد ، المهدد أبداً بخطر العداء العربي المحدق به ، ولا تكاد تخلو دراسة من هذه الدراسات من مثل هذه المحاولة .

حتى تلك الدراسة التي حاول كاتبها « موشي سنه » أن يظهر بمظهر من يلوم حكومته في ذلك الوقت على عدم اظهارها الدليل الكافي على نواياها الطيبة تجاه العرب والذي ينتقد مظاهر التعصب والتطرف داخل المجتمع الاسرائيلي ... حتى تلك الدراسة التي ينبىء عنوانها بمضمونها : « الخروج من دوامة البغضاء »

تحاول أن تقول مامعناه ان وجود نزعات متطرفة داخل المجتمع الاسرائيلي لا يمكن أن تقيم الدليل على أن هذه اسرائيل بالفعل .

ولنقرأ النص التالي : لاتخفي بعض الحلقات الصهيونية المتطرفة مطامعها التوسعية التي لا يمكن لها ان تتحقق الا على حساب الدول العربية المجاورة. لكنه ينبغي التشديد على ان السياسة الرسمية تستبعد قطعاً هذه المطامع وتنكر عليها كل أساس من الصحة . من ذلك مثلا ، ان زعيم الحزب القومي المتطرف «حيروت» وهو « مناحيم بيجن » قد وضع كشرط اول لاتحاد حزبه بالحزب الليبرالي ، القول سلفاً بـ « العودة الى وحدة الوطن » وهذا يعني بوضوح ضم الاراضي الواقعة غربي الاردن وربما شرقيه . بيد أن هذه الشعارات لاتجد الا صدى خافتاً لدى الجمهور الاسرائيلي ، وفي داخل حيروت ، نفسه ، حتى ان مناحيم بيجن قد اضطر الى التخلي عن المسؤوليات الرفيعة التي كان يتولاها فيه ، رغم ذلك ينبغي أن نضع في حسابنا المخاوف والشكوك التي تبعثها مثل هذه الشعارات في الاوساط العربية وان كانت لا تحظى في اسرائيل الا بدعم أقلية بالغة الضعف . .

زيادة على ذلك ، وصل الأمر بـ « بن غوريون » اثناء حملة سيناء ، وكان آنذاك رئيس مجلس الوزراء ، الى حد الحديث علناً عن « مملكة اسرائيل الثالثة » التي كانت تضم شبه جزيرة سيناء ، لكنه مالبث أن تراجع بعد بضعة أيام ، فنفى هذه الرغبة في « توسيع الحدود » الا ان العلاقات الاسرائيلية العربية تأثرت من جراء هذا التصريح ، فترة طويلة . أما رئيس الوزراء الحالي «ليفي اشكول» فقد صرح طبعاً في حديث أدلى به الى جريدة « لوموند » ان العودة الى حملة جديدة على سيناء ، لم تعد مجال بحث . .

بل لقد ذهب البعض الى محاولة من نوع آخر تستهدف اظهار اسرائيل

بظهر الدولة المستقلة التي تملك حريتها الكاملة في ان تتصرف بشؤونها ، والتي لا تمثل اي شكل من اشكال الوجود الاستعماري في المنطقـــة ، والتي لا تقيم اية علاقات خاصة مع السياسة الامريكية . ولقد ذهب الامر بهذه المحاولة الى حد تبرير هذه العلاقات الخاصة ان وجدت اصلا .

بل ان (دوف بارنير) في دراسته عن « اليهود والصهيونية والتقدم » يحاول تبرئة اسرائيل من انها قامت في الاساس بفعل مؤامرة بريطانية ، وان وجودها الراهن مرتبط بتأييد الولايات المتحدة لها ودعمها ومدها بأسباب البقاء .

يكتب «بارنير» : انطلاقاً من هنا ، وجهت التهمة الرئيسية ضدالصهيونية تهمة كونها قاعدة للاستعمار ، ثم جيء بالبراهين لدعمها .. ان مفاتيح فلسطين كانت بيد تركية ، خلال الفترة الأولى من الاستيطان اليهودي ، ثم صارت بيد القوى الغربية التي كانت تقرر مصير الشرق الاوسط ، فما الذي كان على اليهود ، على المستوطنين الأوائل ، ان يفعلوه ؟ هل كان عليهم انتهاج سياسة واقعية أم لا ؟ هل كان المطلوب منهم القيام ببهلوانيات ، ام ارساء قواعد الاستقلال اليهودي ؟.

كانت النوايا البريطانية واضحـة تمام الوضوح عشية وعـد بلفور : اقناع الولايات المتحـدة وحركتها اليهودية بدخول الحرب ضد المانيا ، تبرير السيطرة البريطانية على فلسطين الواقعـة على مشارف قناة السويس وآبار البترول بواسطة لعبها دور الدولة المنتدبة ، توطين اقلية يهودية لـ « مواجهـــة » تطلعات العرب اللاحقة ، اتباع سياسة فرق تسد ..

كيف تصرفت حركة الاستيطان اليهودية في فلسطين في الواقع ؟. تؤكد الوقائع انها ذهبت الى حد معارضة الستراتيجية البريطانية عندما وجدت نفسها مضطرة لتحطيم القمقم الذي حاولوا حبسها مضطرة لتحطيم القمقم الذي حاولوا

حبسها فيه . فاذا بدينا ميتها تتناقض مع الحالة شبه الاستعمارية التي يعيشها البلد والادارة وجاء اليوم الذي تواجه فيه الشريكان ، عندما تواجهت قوات « الهاغانا» مع الجنود البريطانيين على الشواطىء بينما البواخر تحـــاول انزال المهاجرين غير الشرعيين . فكان ذلك نهاية « قصة حب » لم تكن في الواقع تمت الى الحب بصلة .. فأية خدمة اسداها الصهيونيون للاستعمار ؟ تراها طرد الاستعمار عن بقعة الأرض هذه في الوقت الذي كان الاستعمار يحتضر في البلدان العربية المجاورة ؟ قد يقال اننا استبدلنا الاستعمار الانجليزي المحتضر باستعمار امريكي ظافر . لنفترض جدلاً ان التواطؤ مع الولايات المتحدة كامل ، فنكون مثل ايطاليا او المانيا .هل من يتهم هذين البلدين ، حتى من بين الشيوعيين ، بأنها قاعدة للاستعمار .

ما الذي حدث بعد حزيران ؟.

لقد سقط كل شيء ، وفقدت اسرائيل كل فرصة متاحة لمتابعة قصة الكيان الاسرائيلي المهدد ، واتضح لكل ذي عينين مبصرتين ان الوجود العربي ، وليس أي شيء آخر ، هو الذي يتعرض للتهديد ، وان الارض العربية هي التي تواجه خطر الغزو والاحتلال ، وان الكيان الاسرائيلي هو الذي يحاول الامتداد والتوسع بعد ابتلاع كل هذه الوجبة الدسمة دفعة واحدة . ولم يعد ثمـــة مناص امام العقل الاسرائيلي من الاعتراف بالحقيقة كلها ، وهي ان اسرائيل تريد الارض أولاً وأخيراً .

ولعل الكتاب الذي صدر في اسرائيل مؤخراً تحت عنوان : « الكل.. حدود السلام لأرض اسرائيل » يضع العقل الاسرائيلي في حقيقته العارية من أية أصباغ يحاول اخفاء وجهه القبيح .

في هذا الكتاب ، نقرأ النماذج التالية التي يقدمها العقل الاسرائيلي في حقيقته العارية :

ان التنازل عن أية قطعة أرض من التي نسيطر عليها اليوم ، والتي رجيت ان نستوطنها بقوة الانسان اليهودي والرأسمال الوطني ، هو خطوة نحو الابتعاد عن السلام مع العرب ، سكان هذه المناطق . ان شعار « السلام مقابل الانسحاب» الذي يرفعه أصدقاؤنا في الامم المتحدة لصالحنا ، على حد زعمهم ، هذا الشعار يحتوي على حرب جديدة ستكون أقسى من كل مايهددنا .

ان الانتصار العسكري في حرب الأيام الستة يجب النظر اليه كمرحلة ثورية في مجرى تحقيق الصهيونية الذي هو عودة الشعب الى وطنه التاريخي ..

اذا كنا قد عقدنا العزم على تحويل اسرائيل الى دولة هامة ، فعلينا ان نستغل كل فرصة وان نبحث عن كل ذريعة لكي نتوطد في شبه جزيرة سيناء ، والا نتزحزح من هناك الى الأبد ، والامر مشابه بالنسبة للجولان . لقد كان الجولان منطقة اسرائيلية في الماضي البعيد ، ولهذا يصح القول عنه أنه أرض محررة . ولكن ، وبدون هذا التراث ، فان الاحتلال للجولان سيحسن وضعنا الجغرافي والسياسي .

اعترف انني لاأرى كارثة في استمرار اسرائيل بالتقدم وتوسيع منطقتها التي لاتزال حتى اليوم صغيرة وضيقة حتى وشبه جزيرة سيناء وكل الضفة الغربية وهضبة الجولان في أيدينا .

لقد كان هدف عمنا ولا يزال : أرض اسرائيل الكاملة في حدودها الطبيعية القديمة من البحر الابيض المتوسط ، حتى الصحراء ومن لبنان حتى البحر الاحمر .. هذه الارض هي الوطن المتحد للشعب اليهودي بأسره .

ان الواقع الجديد الذي أصبح فيه الاردن حدودنا ، وبور سعيد والاسماعيلية اصبحتامدن حدود مصرية ، تعطينا درجة من الامان الذي لم نعرف له

مثلاً .. لقد كنا طيلة سنوات عديدة نهفو الى مباحثات السلام حتى تحول هذا التعبير الى كلمة سحرية ، ولكن الواقع الجديد يفرض علينا تفكيراً جديداً.

ان أي سلام يأتي بشكل مفاوضات دون احتفاظنا بالمناطق، لن يكون التغيير التاريخي الملائم للامكانيات التي نملكها اليوم .

تلك مجرد نماذج وعينات من كتاب يحاول أن يكشف عن جانب من العقل الاسرائيلي في صورته الراهنة وهي نماذج وعينات تفصح عن نفسها بأكثر مما يفصح عنها أي شيء آخر .

قبل حرب حزيران ، كان العقل الاسرائيلي يحاول في طريق آخر ، كان يحاول في طريق التظاهر برغبة اسرائيلية ناضجة في سلام دائم مع العرب .

واليوم يحاول العقل الاسرائيلي أن يقول شيئاً آخر . . يحاول أن يقول أن الأرض هي ضمانة السلام ، وان الجغرافيا ، لا السياسة ، هي التي تملك أن تفعل الشيء الكثير بالنسبة لاسرائيل ، وان الجغرافيا هي التي تضمن لها حدودها الآمنة .

أي أن العقل الاسرائيلي يعترف ، ربما للمرة الأولى بهذه الصورة الصفيقة بأن هدف اسرائيل الحقيقي هو الأرض وليس السلام ..

هل يعني ذلك أن العقل الاسرائيلي قد طرأ عليه تغيير ما بعد حرب حزيران ؟.

كل الذي حدث هو أن الأفكار التي كانت متخفية تحت عباءة السلام الاسرائيلية لم تعد تملك أن تفعل ذلك .

كل ما في الامر هو أن السلام الاسرائيلي قد سقط أمام الحقيقة الناصعة وهي أن اسرائيل وجود عدواني .

لقد سقط السلام الاسرائيلي لانه كان سلاما بغير سلام .. كان مسافة بين نقطتين ولم تكن اسرائيل لتستطيع ان تعبر هذه المسافة بغير ادعاء السلام .

كانت اسرائيل ، وما تزال ، مجتمعا عدوانيا . وليس كالعبارة التالية ما يفصح عن حقيقة هذا المجتمع العدواني : كل دولة في العالم لها جيش .. أما اسرائيل فهي جيش له دولة ..

(٤)

ما من قضية من قضايانا الراهنة اولى بالشرح والتوضيح من قضية العلاقة بين الصهيونية والاستعمار هذه العلاقة التي يصعب متابعة تطور القضية الفلسطينية دون الرجوع اليها ، والقاء شعاع من الضوء عليها . ولقد تكون هذه العلاقة على درجة كبيرة من الوضوح بالنسبة للرأي العام العربي ، غير انها ماتزال غائبة عن وعي قطاعات واسعة من الرأي العام العالمي ، على الرغم من أن حرب حزيران اسهمت في جعل هذه العلاقة اكثر وضوحاً .

من هنا ، فان التوضيح ينبغي أن يتجه ليس فقط الى الرأي العام العربي وانما في الوقت نفسه الى الرأي العام العالمي الذي نجحت الصهيونية العالمية في أن تجعله أسير دعايتها .

على أنه ينبغي التنبيه الى أن الرأي العام العالمي ، برغم تأثيره الواسع ، وبرغم كونه قوة ينبغي كسبها الى جانب الحق العربي لا يملك تلك القوة السحرية التي نتخيلها في بعض الأحيان، أي أن الرأي العام العالمي ليس سوى أحد اسلحتنا في مواجهة العدو الصهيوني ، ولا يمكن أن يكون سلاحنا الوحيد وهو قوة مؤثرة وفاعلة ، ولكنه ليس القوة الوحيدة المؤثرة والفاعلة . وهو قابل لأن نكسبه الى جانب قضيتنا ، غير ان عجزنا عن كسبه لا يعني اننا خسرنا معركتنا الكبرى وعلى الذين يتصورون ان تتحول معركة التحرير الى حوارا ومناظرة

سياسية وحملات ومساجلات دعائية ، أن ينتظروا عشرات السنين في البردو المنفى ومصير فلسطين سيحدده العرب لا الغرب ، وعلى ارض فلسطين بالذات سيتحدد ، وليس في العواصم الأجنبية ... أي ان كسب معركة الدعاية امر هام جدا بكل تأكيد ، ولكن قصاراه وهدفه ليس الا عملية غسيل مخ للغرب وتكييف لمناخه الفكري وتحييده وتصفية انحيازه واعداده لتقبل الامر الواقع الجديد الذي نسعى الى فرضه [1] .

لقد كانت المنشأة الأولى للحركة الصهيونية المعاصرة ، في نهـاية القرن التاسع عشر . وكان المؤتمر الصهيوني الاول الذي انعقد في مدينة « بال » السويسرية عام ١٨٩٧ ، الاشارة الأولى للمنظمة الصهيونية العالمية التي اسسها « تيو دور هرتزل » على ان ذلك لا يعني أن الصهيونية لم تكن تملك جذورا قديمة فلقد كان للصهيونية مثل هذه الجذور في التاريخ الاوروبي القديم ، الا ان الصهيونية كحركة سياسية لم تأخذ شكلها العملي الا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والبدايات الأولى للقرن العشرين . ففي عام ١٨٩٤ صدر « هرتزل » كتاب تحت عنوان « الدولة اليهودية » دعا فيه الى انشاء مستعمرة يهودية تحت الوصاية الانكليزية يمكن ان تتحول فيما بعد الى دولة منفصلة ومستقلة . وقـد اقترح « هرتزل » في هذا الكتاب ان تقوم هذه الدولة في احد مكانين : فلسطين او الارجنتين . وفي هـذا المؤتمر الصهيوني الأول في « بال » اقترح « هرتزل » تشجيع اليهود في جميع ارجاء العالم على الهجرة الى فلسطين ، والحصول على التأييد العالمي لهذه الهجرة ، واحيا مما اسماه بالتراث اليهودي والقومية اليهودية ، وتكوين منظمة صهيونية تضم يهود العالم .

---

(١) قضية فلسطين ومحور الاستعمار والصهيونية « الدكتور جمال حمدان » الكاتب ، تشرين الأول ١٩٦٦ .

ولم تكن هذه البداية غريبة عن ظروف أوروبا في نهايات القرن التاسع عشر ، حيث كان الاستعمار الأوروبي يبحث عن أشكال جديدة لسيطرته على العالم ، وبالفعل ، فان الحركة الصهيونية تمثل الوجه الجديد الذي كان الاستعمار يبحث عنه بعد أن بدت وجوهه القديمة و كأنها على وشك أن تسقط تحت تأثير تطورات متعددة . وكما يقول الدكتور جمال حمدان ، فانه يجب أن لا ننسى أن بدايات الصهيونية في المرحلة المرتزلية لم تتجرثم إلا في التسعينات من القرن الماضي حين كان الاستعمار العالمي قد انطلق الى خروجه الكوكبي الشامل ، واندفع في طريق التكالب المشهور على افريقيا . « فقد كان الاستعمار هو الذي وضع فلسفة عصر باكمله ، وخلق هستيريا الغزو والنهب وراء البحار وفي هذا المناخ الملائم ، تعلقت الصهيونية بأذياله ، وحاولت أن تطفو على سطح الموجة الى حلمها الفاوستي الموهوم . وفيما بعد ، مع تعاظم تلك الموجة المدية ، نجحت في أن تركب الموجة مرتين ، كل واحدة منها تتفق مع أزمة حرب عالميـة ، وكلتاهما تعدان أخطر نقطتين في تاريخ حياة الصهيونية . في الأولى انتزعت الوعد بالكيان وفي الثانية ابتزت ذلك الكيان »[1] .

أي أن الصهيونية هي محصلة عصر طغى فيه الاستعمار على كل شيء ، وتبدلت أقنعته أكثر من مرة وتكونت فيه امبراطوريات لاتغيب عنها الشمس ، ويستطيع المتتبع لتطور الحركة الصهيونية أن يلاحظ على الفور ذلك الارتباط الذي لا تخطئه العين بينها وبين الاستعمار. وأكثر من ذلك ، فلقد كانت الصهيونية أداة طيعة في يد الاستعمار ، بل لقد طرحت الصهيونية نفسها على هذا الأساس ودون أية مواربة . وكان ذلك على لسان واحد من أبرز قادتها هو حاييم وايزمان ، الذي كتب يقول : في استطاعتنا أن نقول اليوم انه اذا ما وضعت فلسطين داخل

---

(١) المصدر السابق .

منطقة النفوذ البريطاني ، وإذا ما شجعت انجلترا إقامة اليهود في هذه المنطقة ، فاننا سنكون قادرين في مدى السنوات الثلاثين القادمة [١] ، على ان نجمع مليون يهودي في هذه المنطقة، يقومون بنشر التطور والحضارة في الوقت الذي سيكونون فيه الحراس اليقظين لقناة السويس » . فإذا عرفنا الأهمية القصوى التي تمثلها قناة السويس بالنسبة لدولة بحرية مثل بريطانيا ، أدركنا على الفور طبيعة هذا الاغراء الذي يلوح به «وايزمان» لبريطانيا ، حيث يقترح وضع الصهيونية في خدمة الحيوية للامبراطورية البريطانية .

وإذا ما عدنا الى مذكرات « ونستون تشرشل » فاننا نستطيع أن نقرأ العبارة التالية : وإذا أتيح لنا في حياتنا ، وهو ما سيقع حتماً ، أن نشهد مولد دولة يهودية ، لا في فلسطين وحدها ، بل على ضفتي الاردن معاً ، تقوم تحت حماية التاج البريطاني ، وتضم نحواً من ثلاثة ملايين أو اربعة من اليهود فاننا سنشهد وقوع حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحقيقة للامبراطورية البريطانية » .

وأكثر من ذلك ، فان « وايزمان » نفسه يكتب قائلاً « وقد بينت للورد » [٢] أن إقامة مجتمع يضم أربعة أو خمسة ملايين من اليهود في فلسطين ، سيكون قاعدة اقتصادية كافية يستطيع اليهود منها أن ينتقلوا بطريق الاشعاع الى الأجزاء الأخرى الباقية من الشرق الأدنى ، وأن يسهموا إسهاماً ضخماً في إعادة بناء تلك البلاد التي كانت مزدهرة في يوم من الأيام . لكن هذا العمل يتطلب أول ما يتطلب ، تنمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، تنمية حرة وغير مقيدة بحيث تتمكن من إسكان أربعة ملايين أو خمسة من اليهود في فلسطين في غضون

---

(١) وردت هذه العبارة في رسالة بعث بها (وايزمان) الى رئيس تحرير صحيفة « مانشستر غارديان » وذلك عام ١٩١٤ .

(٢) يقصد اللورد « بلفور » وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت .

جيل واحد ، وتجعل من فلسطين بلاداً يهودية في ظل التاج البريطاني » ، ثم يضيف « وايزمان » هذه العبارة ذات الدلالات التي لا تخطئها العين : وقد أقنعت اللورد بأن ما يسمى بالاستعمار ليس إلا الصهيونية بعينها »[1].

وفيما يبدو الآن ، فان «هرتزل» كان قد قرر منذ المؤتمر الصهيوني الأول في « بال » أن يضع الحركة الصهيونية في خدمة الاستعمار البريطاني . وكان يعلم منذ ذلك الوقت ، أن الدولة الصهيونية في فلسطين سوف تكون بغير شك ثمناً جديراً بان تكرس من أجله جهود الحركة الصهيونية، وأن توضع الحركة الصهيونية من أجله في خدمة الاستعمار ، وهو الذي دون في مفكرته الملاحظة التالية : «وكان لي أن الخص مؤتمر « بال » بعبارة واحدة ، احرص على عدم الافشاء بها علناً ، لقلت في « بال » أسست الدولة اليهودية ، ولو أني جاهرت بذلك ، لتعالى الضحك من كل حدب وصوب . لكني على ثقة من أن الجميع سوف يعترف بذلك بعد خمس سنوات بعد خمسين سنة »[2].

وكما أن الصهيونية قدمت نفسها كأداة طيعة في خدمة أهداف استعمارية في المنطقة ، كذلك فان الاستعمار لم يفوت هذه الفرصة . وكما أنه شارك في تشجيع الحركة الصهيونية ، وزرقها بالدم الذي يمنحها القدرة على النمو والتطور ، كذلك فقد عمد الى استخدام هذا الكائن الشيطاني لخدمة أغراضه وكان غرضه الأساسي هو حماية قناة السويس من أية اخطار محتملة ، واقامة حاجز بشري يفصل الأمة العربية ويمنع اتصال مشرقها بمغربها . وكانت الصهيونية هي المؤهلة لتحقيق هذا

(١) الوجود الاسرائيلي في المخطط الاستعماري ، خيري حماد ، مجلة (الطليعة « القاهرية ») مايس ١٩٦٦ .

(٢) اليهود والصهيونية والتقدم — دوف بارنير . من الفكر الصهيوني المعاصر ، من منشورات مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

الهدف . وبالفعل ، فان وعد وبلفور ، يمثل الصورة الحية لهذه السياسة البريطانية . وليت الأمر كان أمر وعد فحسب فلقد أسهمت بريطانيا في تحويل الوعد إلى حقيقة تمثلت في قيام اسرائيل عبر مؤامرة كبرى امتدت على مدى نصف قرن من الزمان ، وشاركت فيها قوى عالمية كبرى .

وبصرف النظر عن كل التفاصيل والدقائق ، فان الحركة الصهيونية برغم استقلالها النسبي ، جزء لا يتجزأ من حركة الاستعمار العالمي في تطلعها إلى فرض سيطرتها على أجزاء واسعة من العالم بهدف خدمة أهدافها الاستراتيجية . وهي أن بدت في بعض مراحلها خارج هـــذا الاطار ، فان ذلك لم يكن الا بهدف التمويه والتضليل .

وإذا لم تكن الظروف التي نشأت فيها الحركة الصهيونية كافية لاداتها ، فان تطورهـا التاريخي كفيل بتحقيق هذه الاداة . كذلك فان وجود اسرائيـل اداة في حد ذاته . فكما أن بريطانيا هي التي احتضنت الحركة الصهيونية وزرقت في شرايينها الدم والحياة ، كذلك فان بريطانيا هي التي خلقت اسرائيل وهي التي اصطنعتها اصطناعاً . ومن بعدها جاءت الولايات المتحدة الامريكية لتجعل منها قاعدة لها في المنطقة ، ورأس جسر إلى آسيا وافريقيا ، وأداة للثورة المضادة في مواجهة الثورة العربية ، وخطراً جاثماً في قلب الأمة العربية ، يهدد الأمن والوجود والمصير . والموقف الأمريكي ازاء حرب حزيران شاهد على دور اسرائيل كقاعدة متقدمة للامبريالية الامريكية . وهو ليس الشاهد الوحيد ذلك أن تاريخ اسرائيل كله هو تاريخ السياسة الامريكية في المنطقة ، فيما عدا بعض الحالات التي لا يصح القياس عليها .

ولقد يكون ثمة من يرى أن عكس الصورة أكثر تعبيراً عن حقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة واسرائيل بمعنى أن الولايات المتحدة هي التي تخضع للضغوط

الصهيونية . وهذا الرأي صحيح في بعض جوانبه الا أن الرأي الأصح هو أن اسرائيل هي التي تخضع للتأثير الامريكي . ولقد آن الأوان لانهاء تلك الاسطورة القائمـة على افتراض أن الولايات المتحدة مغلوبة على أمرها ، وان الاخطبوط الصهيوني هو المسؤول عن سياستها .

ذلك أن هناك من وقائع التاريخ المعاصر ماينفي هذا الاجتهاد والذي لا يقوم على أساس ولعل حرب السويس أن تكون أكثر وقائع التاريخ المعاصر تعبيراً عن هذه الحقيقة . فلو كانت الولايات المتحدة مغلوبة على أمرها بالفعل اذن لكان مستحيلاً على « ايزنهاور » ان يتخذ موقفه المعروف عام ١٩٥٦ في وقت كانت فيه انتخابات الرئاسة الاميريكية على الأبواب . وأكثر من ذلك ، فان السيطرة اليهودية المدعاة على الاقتصاد الامريكي ليست بمثل الاتساع الذي تتخيله أحياناً . وقد صدر في العام الماضي كتاب عن الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة يكشف فيه مؤلفه[١] الدور الذي تقوم به هذه الأقلية في المجتمع الامريكي . ومن خلال هذه الدراسة ، يتبين أن الأقلية اليهودية لاتملك السيطرة إلا علـى قطاعات محدودة من الاقتصاد الامريكي ، ومعنى ذلك أن السياسة الامريكية لايقررها النفوذ الصهيوني المتوهم ، وان لم يخل الأمر من بعض نفوذ ، وانما تقررها الولايات المتحدة ومصالحها الاستراتيجية .

كذلك فإن دراسة تطور الموقف الفرنسي إزاء إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ حتى وقتنا الراهن ، يكشف حقائق بالغة الأهمية ذلك أنه حين كانت اسرائيل قادرة على خدمة أهداف السياسة الفرنسية في المنطقة ، نشأ تحالف بينها وبين فرنسا عبر عن نفسه في حرب السويس . إلا أنه باستقلال الجزائر ، ونتيجـة الرؤيا

(١) مصطفى عبد العزيز ، الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة من منشورات مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

التاريخية ، وللأفق السياسي الرحب الذي كان يتمتع به الجنرال « ديغول » وتحت تأثير المصالح الفرنسية العليا ، تغيرت سياسة فرنسا ، ولم يعد ممكناً الحديث عن السياسة الفرنسية المماثلة للصهيونية .

وخلاصة ذلك كله ، ان الاجتهاد القائل بخضوع السياسة الامريكية والأوربية بوجه عام لنفوذ صهيوني لا يمكن مجابهته ، هو اجتهاد تثبت الأحداث والوقائع أنه يأخذ جانباً واحداً من الصورة الشاملة وان الحقيقة الأصلب هي أن إسرائيل بمثل ما هي قاعدة متقدمة للاستعمار ، فانها تستطيع في ظروف محددة أن تأخذ دور الشريك . أي أن الصهيونية بتبعيتها للامبريالية تجني الثمار وتقبض الثمن .

لقد قال « لينين » مرة وإن الامبريالية هي أعلى مراحل الاستعمار » وإذا كانت الصهيونية هي المعادل العنصري للامبريالي ، فلا ريب في انها تصبح بدورها مرحلة متقدمة من مراحل الاستعمار ، أو على مراحله على الاطلاق .

(٥)

ما أشبه الليلة بالبارحة .

صحيح أن التاريخ لا يعيد نفسه ، لكن أحداث التاريخ تتشابه في بعض الأحيان إلى الحد الذي يبدو معه التاريخ وكأنه يعيد نفسه .

بعد أسبوع واحد من بداية حرب السويس عام ١٩٥٦ ، شرعت « الكنيست » الاسرائيلية في نقاش مفتوح حول الحرب التي أسهمت امرائيل في شنها ضد مصر ،

في الجلسة الأولى ، وقف « دافيد بن غوريون » وكان في ذلك الوقت رئيساً للوزارة الاسرائيلية يخطب قائلاً : إننا نرفض استمرار حالة الفوضى التي

كانت تطبع علاقاتنا بمصر ، ونحن مستعدون للدخول في مفاوضات للتوصل إلى سلم راسخ وتعاون وعلاقات حسن جوار مع هذا البلد ، وذلك في محادثات مباشرة دون ضغط أو شروط مسبقة من أي طرف ، ونأمل بأن تدعمنا في ذلك جميع الشعوب المحبة للسلام . . .

في ذلك الخطاب ، يعلن « بن غوريون » دون مواربة أن معاهدة الهدنة مع مصر قد انتهت وقبرت ولا أمل في بعثها من جديد ، وان حدود الهدنة مع مصر قد لاقت المصير ذاته الذي لاقته هذه المعاهدة .

ويخطب زعيم إسرائيل آخر في معرض النقاش الدائر حول غزو مصر : ان بلاغ الجيش الاسرائيلي الذي أعلن تحرير غزة ، أراحنا أيما ارتياح . لقد قال جيشنا ان هذا الجزء المسلوخ عن الوطن الأم قد أعيد اليه . تبارك الذي سمح لنا بأن نسمع مثل هذه الكلمات .

ثم ما يلبث بعد ذلك ان يتحدث بلغة ربما كان من العسير فهمها في ذلك الوقت غير أن حرب حزيران سلطت عليها من الضوء ما جعلها أيسر فهماً وإدراكاً . يقول هذا الزعيم الاسرائيلي : إذا كانت غزة مدينة الآباء والأجداد المسلوخة عن الوطن ، فما عسانا نقول عن القدس والخليل وبيت لحم . عندما نطالب ، من الآن فصاعداً ، بالتدخل لتحرير أرض الأجداد . لن يتهم أحد إسرائيل بالعدوان أو بالتوسع الاقليمي .

ويخطب رئيس حزب المابام في جلسة لاحقة : يحق لنا في البدء ، وقبل كل شيء ، أن نهنيء النفس بتحريرنا لغزة . لقد انتزعنا الشوكة المسمومة المغروسة في خاصرة إسرائيل . وإني لمتأكد الآن ، وقد انتزعنا اسرائيل . وإني لمتأكد الآن ، وقد انتزعنا هذه الشوكة ، بأنه ما من أحد ، باستثناء فريق صغير سوف ينصحنا بإعادة هذه الشوكة المسمومة إلى خاصرتنا بملء إرادتنا .

ويروي كاتب إسرائيلي معاصر في معرض سرده لوقائع تلك الأيام ، بأن جميع الأحزاب الصهيونية كانت مصممة كل التصميم على رفض التخلي عن قطاع غزة ، وان رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الحين أعلن خلال أحد النقاشات السابقة يوم التاسع من كانون الأول ١٩٥٦ بأن إسرائيل لن توافق أبداً ، ولا بأي حال من الأحوال على عودة الغزاة المصريين إلى غزة .

ويروي هذا الكاتب بأنه خلال أحد نقاشات « الكنيست » ألقى مندوب أحد الأحزاب خطاباً حث فيه المجلس على عدم الرضوخ لضغوط الامم المتحدة والاحتفاظ بقطاع غزة ، وطالب فوراً بتحدي كل المؤسسات وكل قوة وكل دولة عالمية .

كما اعلن مندوب « المابام » في النقاش ذاته بأن دولة أسرائيل لا يمكن ان تسمح لغزة بان تتحول الى قاعدة انطلاق للاعتداءات الارهابية ضد المواطنين الآمنين ... وبأن حزبه قد وضع مشروعاً يقوم على ضم غزة لاسرائيل ودمج اللاجئين العرب الذين يعيشون في هذه المنطقة في دولة أسرائيل .

واقترح المتحدث باسم « المابام » في الخطاب ذاته ، فتح مفاوضات سلم مباشرة ، دون شروط مسبقة ، بين اسرائيل والدول العربية .

ومرة اخرى ، ما اشبه الليلة بالبارحة .

فقادة اسرائيل يتسابقون هـذه الأيام على الادلاء بتصريحات تتعلق بمستقبل الاراضي التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ وحتى اولئك الذين كانوا يعلنون في وقت سابق عن وجهة نظرهم القائلة انهم يوافقون على اعادة الأراضي المحتلة في مقابل السلام مع العرب ، ينسحبون الآن شيئاً فشيئاً ، ويدخلون في حلبة السباق الكبير الذي يجري الآن داخل اسرائيل .

« بن غوريون » وهو احد القلائل الذين اعلنوا في وقت مضى عن موافقتهم على انسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها في حرب حزيران ، فيما عدا بعض الاستثناءات ، ينسحب الأن من آرائه السابقة ويعلن عن ان هذه الآراء كانت تصلح لفترة سبقت وانقضت ، وان كل شيء الآن قد تغير . وهو يقول ان هذا الانسحاب كان ممكنا قبل ان تقوم اسرائيل بانشاء مستعمرات لها في الأراضي المحتلة ، اما الآن ، وبعد انشاء هذه المستعمرات ، فان من واجب اسرائيل البقاء فيها ، حتى ولو ادى ذلك الى ضياع فرص السلام مع العرب .

« غولدامائير » وهي من الذين كانوا يتعمدون الحيطة والحذر عند الحديث عن الأراضي العربية المحتلة ، ويتجنبون الاعلان عن موقف نهائي بهذا الخصوص تعلن الآن على شاشة التلفزيون البريطاني انه لا يمكن بأي حال العودة الى الخطوط التي كانت موجودة قبل معارك حزيران ١٩٦٧ ، وانها لا ترى أية امكانيات لأن يحصل الفلسطينيون على وطن لهم ، لأنه ليس هناك مكان لهم ، وليست هناك ضرورة لذلك » .

وغير ذلك كثير مما يقوله قادة اسرائيل هذه الايام .

ومن يتأمل في التاريخ السري والعلني للحركة الصهيونية، سوف يضع يده على حقيقة مفادها أن الحركة الصهيونية تتصرف في حدود ما هو متاح لها . فحين تظهر في الأفق إمكانية الحصول على أية مكاسب، فإنها سرعان ما تتصرف بالطريقة التي تضمن لها الحصول على هذه المكاسب . وحين تجد الأبواب أمامها مسدودة ومقفلة ، فانها تتراجع في انتظار اللحظة التي ترى فيها باباً من هذه الأبواب وقد فتح أمامها .

ولعل مثال عام ١٩٥٦ يوضح الكثير في هذا المجال. فحين وجدت اسرائيل الأراضي المصرية ، لم تتردد لحظة واحدة في أن تفعل ذلك ، بل لعلها كانت تمارس

دور المحرض ازاء كل من بريطانيا وفرنسا وكانت تصور لها الأمر وكأنه الفرصة الباقية لتحطيم حركة القومية العربية التي كانت في ذلك الوقت تعيش ذروة شبابها وطموحها. وحين احتلت غزة، أعلنت أنها لن تعيدها إلى مصر مهما تكن الأسباب والعواقب. غير أن التطورات التي أعقبت عملية الاحتلال، وانسحاب بريطانيا وفرنسا من منطقة القناة والضغوط التي تعرضت لها اسرائيل للانسحاب من سيناء وغزة .. كل ذلك جعل حكومة اسرائيل تعلن في شهر آذار من عام ١٩٥٧ عن عزمها على سحب قواتها من قطاع غزة.

والأمر نفسه ينسحب على مسألة المفاوضات المباشرة بين العرب واسرائيل. ففي أعقاب حرب السويس أعلنت اسرائيل مراراً عن ضرورة اجراء مفاوضات مباشرة مع العرب من أجل التوصل إلى التسوية المطلوبة.

وكانت تصف هذه المفاوضات بأنها مفاوضات سلم، ودون شروط مسبقة. ثم مالبثت اسرائيل، تحت تأثير مجموعة اعتبارات، أن انسحبت من فكرة المفاوضات المباشرة وقبلت بالأمر الذي لم يكن أمامها خيار في قبوله، وهو الانسحاب بغير مفاوضات مباشرة أو غير مباشرة.

ثم هاهي ذي اسرائيل تعلن منذ حرب حزيران عن أن المفاوضات المباشرة هي السبيل إلى تسوية سياسية مع العرب وانه بغير هذه المفاوضات فان الأمور سوف تبقى على ماهي عليه الآن.

ثم تتقدم اسرائيل بعد ذلك خطوة الى الامام حين تعلن ان التسوية السياسية مع العرب لم تعد شغل اسرائيل الشاغل، وان استئصال « الارهاب » هو الذي يتقدم الآن على كل الشواغل الأخرى.

هل معنى ذلك انه سوف يجيء يوم تنسحب فيه اسرائيل من كل هذا الذي ظلت تعلن عنه خلال السنوات الخمس الماضية ؟.

تجربة عام ١٩٥٦ تومىء الى ذلك ، بل تؤكد وتقطع به . صحيح ان الظروف تغيرت ، وصحيح ان اسرائيل استخلصت الدروس المستفادة من تجربة عام ١٩٥٦ ، غير ان الصحيح ايضا هو ان الحركة الصهيونية تعمل وتتصرف في حدود ما هو متاح لها . وحين تكتشف الحركة الصهيونية ان الطوق امامها قد سدت وافقلت من جديد ، فانها سوف تخرج من جلدها وتدخل في جلد آخر .

ولعل مهمة العرب الآن هي ان يرغموا اسرائيل على الخروج من جلدها ، وهذه بالنسبة لهم قضية مستقبل ومصير .

العدد القادم

حرب التحرير العربية

تحليلات ومناقشات وآفاق جديدة

تتمة خطاب الرئيس أنور السادات

ان الولايات المتحدة تقيم جسراً بحرياً وجوياً لتتدفق منه على اسرائيل دبابات جديدة وطائرات جديدة ومدافع جديدة وصواريخ جديدة والكترونات جديدة ونحن نقول لهم ان هذا لن يخيفنا نحن نقول لهم أن هذا لن يخيفنا لكن عليكم وعلينا قبل أن تصل الأمور الى نقطة اللاعودة ان نسأل الى أين والى متى . . الى أين ونحن خريطة الشرق الأوسط وليست اسرائيل. الى أين ومصالحكم كلها عندنا وليست في اسرائيل. الى اين والى متى ؟!.

أيها الأخوة والأخوات لقد فكرت ان ابعث الى الرئيس ريتشارد نيكسون بخطاب أحدد فيه موقفنا بوضوح ولكنني ترددت خشية اساءة التفسير. ولذلك فانني قررت أن أستعيض عن ذلك بتوجيه رسالة مفتوحة اليه من هنا. رسالة لا يمليها الخوف ولكن تمليها الثقة. رسالة لا تصدر عن ضعف ولكن تصدر عن رغبة حقيقية في صون السلام ودعم الوفاق .

أريد أن أقول له بوضوح ان مطلبنا معروف لا حاجة بنا الى إعادة شرحه . وإذا كنتم تريدون معرفة مطلبنا في السلام فاليكم مشروعنا للسلام :

أولاً : اننا قاتلنا وسوف نقاتل لتحرير أراضينا التي أمسك بها الاحتلال الإسرائيلي سنة ١٩٦٧ ولايجاد السبل لاستعادة واحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين. ونحن في هذا نقبل التزامنا بقرارات الامم المتحدة والجمعية العامة ومجلس الأمن .

ثانياً : اننا على استعداد لقبول وقف اطلاق النار على اساس انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة فوراً وتحت اشراف دولي الى خطوط ما قبل خمسة حزيران ١٩٦٧ .

ثالثاً : اننا على استعداد فور اتمام الانسحاب من كل هذه الاراضي أن نحضر مؤتمر سلام دولي في الأمم المتحدة ، سوف أحاول جهدي ان اقنع به رفاقي من القادة العرب المسؤولين مباشرة عن ادارة صراعنا مع العدو كما انني سوف أحاول جهدي ان اقنع به ممثلي الشعب الفلسطيني وذلك لكي نشارك معاً ومع مجتمع الدول في وضع قواعد وضوابط للسلام في المنطقة تقوم على احترام الحقوق المشروعة لكل شعوب المنطقة .

رابعاً : انا على استعداد هذه الساعة بل هذه الدقيقة أن نبدأ في تطهير قناة السويس وفتحها أمام الملاحة العالمية لكي تعود الى أداء دورها في رخاء العالم وازدهاره ولقد أصدرت الأمر بالفعل الى رئيس هيئة قناة السويس بالبدء في هذه العملية غداة اتمام تحرير الضفة الشرقية للقناة . وقد بدأت بالفعل مقدمات الاستعداد لهذه المهمة .

خامساً : اننا لسنا على استعداد في هذا كله لقبول وعود مبهمة أو عبارات مطاطة تقبل كل تفسير انما نريده الآن هو الوضوح .. الوضوح في الوسائل .

أيها الاخوة والأخوات . .

لقد قلنا كلمتنا وأدعو الله مخلصاً ان يفهمها الجميع في اطارها الصحيح وأن يضعوها على الخط المستقيم وان يحسنوا تقدير الامور . ان هذه الساعات تتطلب شجاعة الرجال وعقل الرجال . ومن جنبنا فاننا نواجه هذا الساعات بخشوع الصادقين مع الله ومع أنفسنا ومع امتهم ومع انسانيتهم . هذه ساعات تدور فيها معارك أكبر مما دار بالاسلحة التقليدية في حروب العمالقة . هذه ساعات تقرر فيها مصائر وتتحدد فيها علاقات سوف تفرض نفسها على المستقبل وهي تؤكد نفسها في الحاضر هذه ساعات يتقدم فيها أبطال وهذه ساعات يسقط بل يرتفع فيها شهداء هذه ساعات حافلة بمشاعر متباينة تمتزج فيها صيحة الفرح بمشاعر عميقة اخرى .

انا كنا ولا زلنا نريد الحق ولا نريد الحرب. لكننا كنا ولا نزال نريد الحق اذا فرضت علينا الحرب. وحين كانت نشوة الانتصار تملأ القلوب فانني كنت بيني وبين ربي أعرف مدى العناء الانساني الذي ندفعه في سبيل النصر ولقد كنت اتتبع أنباء انتصاراتنا في خشوع لانني أعرف الحرب. ولقد كان أعز القائلين هو الذي علمنا « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » .

أيها الاخوة والأخوات . .

هذه ساعات نعرف فيها أنفسنا ونعرف فيها الأصدقاء ونعرف فيها الأعداء. ولقد عرفنا أنفسنا ولقد عرفنا أصدقاءنا وكانوا أصدق وأخلص ما نطلب من الأصدقاء ولقد كنا نعرف عدونا دائماً ولسنا نريد ان نزيد في أعدائنا بل أننا نوجه لكمة بعد الكلمة والتنبيه بعد التنبيه والتحذير بعد التحذير لكي نعطي للجميع فرصة يتراجعون ولعلهم يتراجعون. لكننا بعون الله قادرون بعد الكلمة ، بعد التنبيه وبعد التحذير ، من توجيه الضربة بعد الضربة والسلام عليكم ورحمة الله .

١٩٧٣/١٠/١٦

* * *


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب كل يوم ثلاثاء من كل اسبوع